جامعة بنغازي
كلية التربية المرج



المجلة الليبية العالمية

Global Libyan Journal

ISSN 2518-5845
المجلة الليبية العالمية

العدد الثالث والسبعون /أبريل 2026م Global Libyan Journal

المجلة الليبية العالمية

Global Libyan Journal

مجلة علمية محكمة نصف سنوية تصدر عن:

كلية التربية المرج – جامعة بنغازي

العدد الثالث والسبعون

أبريل 2026م

Email: glj@uob.edu.ly

الرقم المعياري للمجلة ISSN 2518-5845

هيئة التحرير

م	الاسم	الصفة	التخصص	الدرجة العلمية
1	أ.د محمد علي حمزة مجاور	رئيس التحرير	مناهج وطرق التدريس	أستاذ
2	د. عمر عثمان علي عوض	مدير التحرير	اللغة العربية	أستاذ مشارك
3	د. تهاني بشير محمد سليم	عضو	إدارة تربوية	أستاذ مشارك
4	د. فايز مسعود محمد	عضو	علم الاجتماع	أستاذ مساعد
5	أ.عبد الرحيم فرج هارون	عضو	اللغة الإنجليزية	أستاذ مساعد
6	أ.خالد الناجي عمر	عضو	التربية	أستاذ مساعد
7	أ.سميحة رجب الكيلاني	عضو	الرياضيات	أستاذ مساعد
8	أ.عثمان سعد علي	عضو	اللغة العربية	أستاذ مساعد
9	أ.أحمد مصطفى أبوبكر	عضو	الرياضيات	محاضر

التعريف بالمجلة:

المجلة الليبية العالمية هي مجلة دورية علمية محكمة، تعنى بنشر البحوث والدراسات العلمية المعرفية والتربوية التابعة للأقسام العلمية بكليات التربية. المجلة نصف سنوية تصدر عن كلية التربية – المرج بجامعة بنغازي، وتتبع لجنة المجلات العلمية بالجامعة. تحرص المجلة في عملها على الالتزام بالقوانين والمعايير المعتمدة في النشر العلمي، وتلتزم في عملية التحكيم بمعايير الجودة العالمية، والسرية المطلقة في التحكيم، والدقة في اختيار الاختصاص والدرجة العلمية للمحكِّم.

رئيس تحرير المجلة الليبية العالمية
أ.د. محمد علي حمزة

رؤية المجلة:

أن تكون المجلة منصة علمية رائدة في نشر البحوث والدراسات العلمية المعرفية والتربوية التابعة للأقسام العلمية بكليات التربية.

رسالة المجلة:

نشر البحوث الأصيلة والمحكمة في مجالات العلوم المعرفية والتربوية التابعة للأقسام العلمية بكليات التربية، مع الحرص على اتباع معايير الجودة الأكاديمية؛ لإثراء المعرفة، وخدمة المجتمع.

أهداف المجلة:

تهدف المجلة الليبية العالمية إلى:

1. مواكبة معايير النشر المقبولة دوليًّا في مجالات العلوم المعرفية والتربوية للتميز في النشر العلمي.
2. نشر البحوث العلمية ذات الجودة العالية، والأصالة، والجدة.
3. توفير منصة أكاديمية للباحثين، من جميع دول العالم، تعنى بنشر نتاجهم العلمي الذي يسهم في تطوير المجتمع وتقدمه.
4. أن تكون المجلة مرجعًا موثوقًا للباحثين في العلوم الإنسانية والتطبيقية.

جامعة بنغازي
كلية التربية – المرج
ISSN 2518-5845
المجلة الليبية العالمية

University of Benghazi
Faculty of Education Al Marj

العدد الثالث والسبعون /أبريل 2026م Global Libyan Journal

شروط كتابة البحث العلمي في المجلة الليبية العالمية

القواعد العامة لقبول النشر:

تنشر المجلة الليبية العالمية البحوث باللغتين العربية والإنكليزية، التي تُرسل إليها وفقًا للقواعد الآتية:

- أن يكون البحث أصيلًا، وتتوافر فيه شروط البحث العلمي المعتمد على الأصول العلمية والمنهجية المتعارف عليها من حيث الإحاطة والاستقصاء والإضافة المعرفية (النتائج) والمنهجية والتوثيق وسلامة اللغة ودقة التعبير.
- ألا يكون البحث قد سبق نشره أو قدم للنشر في أي جهة أخرى.
- ألا تتجاوز عدد صفحات البحث (25) صفحة متضمنة الملخصين العربي والإنجليزي، والكلمات المفتاحية، والمراجع، والملاحق.
- ألا يتجاوز عدد كلمات الملخص باللغة العربية وباللغة الإنكليزية (150كلمة).
- أن يلي كل ملخص كلمات مفتاحية (Keywords) تشير إلى جوهر موضوع البحث، والقضايا الرئيسة التي تناولها، ولا يتجاوز عددها ستَ كلمات.
- أن يكون البحث مراعيًا لقواعد الضبط ودقة الرسوم والأشكال إن وجدت، ومطبوعًا على ملف وورد، حجم الخط 14 بخط (Traditional Arabic) للغة العربية، وحجم الخط 12 بخط (Times New) Arabic للغة الإنكليزية.
- أن تكون الجداول والأشكال مدرجة في أماكنها الصحيحة، وأن تشمل العناوين والبيانات الإيضاحية الضرورية، وتكتب بخط (Traditional Arabic) وبحجم (11) غامقًا.
- أن يُراجع البحث لغويًّا من قبل مدقق لغوي، ويكون البحث منسقًا بحسب شروط وقالب المجلة.
- أن يكون البحث ملتزمًا بدقة التوثيق للمراجع والمصادر حسب نظام الرابطة الأمريكية لجمعية علم النفس الإصدار السابع (American Psychological Association7) (APA) للنشر العلمي.
- يُشار إلى المراجع داخل المتن بذكر اسم المؤلف العائلي، والسنة، ورقم الصفحة.

مثال على ذلك: (Marten, 2023 ,5) أو (العيسوي، 2019، 4). ويُشار إلى ذلك بالتفصيل في قائمة المراجع، وتوثق بالتسلسل الهجائي لاسم المؤلف العائلي، وتذكر المراجع العربية أولاً ثم الأجنبية دون ترقيم.

- بالنسبة للكتاب: فيبدأ المرجع بذكر الاسم الأخير للمؤلف، ثم بقية الاسم كاملًا، ثم توضع سنة النشر بين حاصرتين، فعنوان الكتاب غامقًا، يلي ذلك رقم الطبعة، ثم يذكر اسم دار النشر: بلد النشر.

مثال على ذلك: خيري، يوسف (2018). **قضايا معاصرة في الإدارة**. ط2، القلم العربي للنشر والتوزيع: القاهرة، مصر.

- بالنسبة للدوريات: يبدأ بذكر الاسم الأخير للمؤلف، ثم بقية الاسم كاملًا، ثم توضع سنة النشر بين حاصرتين، ثم عنوان البحث، ثم اسم المجلة غامقًا أو مائلًا، ثم مكان صدورها، ثم رقم المجلد، ثم رقم العدد، ثم أرقام الصفحات.

مثال: العمري، سليمان عبده أحمد (2013). ثقافة تكنولوجيا النانو والاتجاهات نحوها لدى معلمي العلوم بالمرحلة الثانوية في مدينة تعز. **مجلة جامعة صنعاء للعلوم التربوية والنفسية**، 9(2)، ص141-149.

- يجب مراعاة تطابق المراجع المكتوبة في متن البحث مع قائمة المراجع.

- تعتذر المجلة عن عدم النظر في البحوث المخالفة للتعليمات وقواعد النشر.

إجراءات النشر:

- يرسل الباحث إلكترونيًّا إلى إيميل المجلة (glj@uob.edu.ly) ، نسخة ورد (word) من بحثه ونسخة (pdf) تتضمن في الصفحة الأولى (اسم الباحث/الباحثين، والدرجة العلمية، والتخصص، والقسم، والكلية، والجامعة، والبلد، والبريد الإلكتروني، ورقم الهاتف).
- يرفق مع البحث نموذج تقديم ورقة بحثية للنشر (موجود على موقع المجلة)، وكذلك إرفاق موجز للسيرة الذاتية للباحث إلكترونيًّا.
- لا يتم قبول الورقة العلمية إلا بعد استيفاء شروط المجلة الليبية العالمية وقوالبها.
- في حال قبول البحث مبدئيًّا يتم عرضه على محكمين من ذوي الاختصاص في مجال البحث، ويتم اختيارهم بسرية تامة، ولا يُعرض عليهم اسم الباحث أو بياناته؛ وذلك لإبداء آرائهم حول مدى أصالة البحث، وقيمته العلمية، ومدى التزام الباحث بالمنهجية المتعارف عليها، ويُطلب من المحكم تحديد مدى صلاحية البحث للنشر في المجلة من عدمها.
- يخطر الباحث بقرار صلاحية بحثه للنشر من عدمها خلال شهر من تاريخ استلام البحث، وبموعد النشر، ورقم العدد الذي سينشر فيه البحث.
- في حالة ورود ملحوظات من المحكمين، ترسل تلك الملاحظات إلى الباحث لإجراء التعديلات اللازمة بموجبها، على أن تعاد للمجلة خلال مدة أقصاها شهر.
- على الباحث أن يُقدم تعهدًا خطيًّا يؤكد أن البحث لم يُنشر كليًّا أو جزئيًّا، ورقيًّا أو إلكترونيًّا، وألا يكون مرشحًا للنشر في الوقت نفسه في وسائل نشر أخرى، وألا يكون البحث مستلًّا من رسالة علمية، أو كتاب، أو متعدّيًا على ملكية علمية.
- جميع المواد المنشورة في المجلة تخضع لقانون حقوق الملكية الفكرية للمجلة.

هيئة تحرير المجلة الليبية العالمية

جامعة بنغازي
كلية التربية – المرج
ISSN 2518-5845
المجلة الليبية العالمية

University of Benghazi
Faculty of Education Al Marj

Global Libyan Journal

العدد الثالث والسبعون /أبريل 2026م

المحتويات

م	في هذا العدد	الصفحة
1	العلاقة بين التركيب العمري للإناث في المدى العمري (15–49 سنة) ومستويات الخصوبة في البيئات الحضرية والريفية بمنطقة المرج خلال الفترة (1973–2006)، فرج عبدالله حسين عبدالقادر.....	1
2	التنظيم المالي لبيت المال في البصرة والكوفة في العصر الأموي الموارد واوجه الانفاق من (40 – 132 هـ / 660 – 750 م)، مجدي سليمان إبراهيم علي.....	15
3	الحِرَف الصناعية وأنواعها في مدينتي البصرة والكوفة (40 – 132 هـ / 660 – 750 م)، عبدالباسط حسن الكيلاني.....	36
4	تجليّات التراث الصوفي وأثرها في تشكيل الحدث الروائي عند أحمد إبراهيم الفقيه شخصيّة الولي الصالح أنموذجًا، المصري منصور فضل الله المصري.....	56
5	التداخل اللغوي وأثره في تعليم اللغة العربية لدى الناطقين بغيرها، أحمد غربا.....	71
6	مظاهر الإبداع في ديوان (دعني وشأنك) لعصام الفرجاني، الصافي علي أحمد أبو فردة.....	80
7	اتجاهات التحليل الزمني في دقائق التصريف لابن المؤدِّب، محمد علي عبد الوهاب بيومي.....	108
8	صور صرف ما لا ينصرف ومنع المصروف في العربية [دراسة تحليلية على نماذج مختارة من المعلقات السبع]، أماني أحمد محمود.....	119
9	ضوابط مواقع التواصل الاجتماعي وآثارها العقدية الإيجابية، إيمان عبد الكريم أبو مصطفى.....	131
10	وسائل التواصل الاجتماعي وإعادة تشكيل العلاقات الإنسانية لدى طلبة جامعة بنغازي، مبروكة محمد سالم الدرولي ، حليمة مختار حمد الجهاني.....	150
11	العنف الأسري ضد المرأة: الطالبة الجامعية نموذجاً دراسة ميدانية على عينة من طالبات كلية الآداب والعلوم – المرج،أحلام المدير فرج نازو ، حنان المدير فرج نازو	166
12	اضطرابات النطق الأكثر شيوعياً لدى أطفال الملتحقين برياض الأطفال من وجهة نظر المعلمات في مدينة المرج، جمعة فرج جبريل.....	190
13	دور الإرشاد النفسي في تمكين الأشخاص ذوي الإعاقة وتعزيز صحتهم النفسية: مقاربة نوعية في ضوء مبادئ التمكين والتنوع والانصاف، حنان محمد محمد بالقاسم.....	202
14	الألكسيثيميا (صعوبة التعبير عن المشاعر) لدى عينة من نزلاء دار الرعاية الاجتماعية بمدينة بنغازي في ضوء بعض المتغيرات الديموغرافية، رجعة محمد حمد العريبي	218
15	الاحتراق النفسي لدى المعلمات بمراكز رعاية أطفال اضطراب طيف التوحد بمدينة المرج، حفصة محمد عطية الشلماني.....	233

جامعة بنغازي
كلية التربية – المرج
ISSN 2518-5845
المجلة الليبية العالمية

University of Benghazi
Faculty of Education Al Marj

Global Libyan Journal

العدد الثالث والسبعون /أبريل 2026م

م	في هذا العدد	الصفحة
16	مستوى الطموح الأكاديمي وعلاقته بالتحصيل الدراسي لدى طلبة جامعة درنة، فتحي الدايخ طاهر، جمعة عبدالرحمن إقويدر	253
17	الرضا الوظيفي لمعلمي ذوي الاحتياجات الخاصة في مدينة المرج، فاطمة طاهر إبراهيم، حامد المبروك صالح	272
18	مدى استعداد معلمي (العلوم والاجتماعيات) لتوظيف الذكاء الاصطناعي في التعليم بمدينة المرج نجية المبروك مسعود سليمان، إيمان جادالله المصراتي.	291

جامعة بنغازي
كلية التربية – المرج
ISSN 2518-5845
المجلة الليبية العالمية

University of Benghazi
Faculty of Education Al Marj

العدد الثالث والسبعون /أبريل 2026م Global Libyan Journal

العلاقة بين التركيب العمري للإناث في المدى العمري (15–49 سنة) ومستويات الخصوبة في البيئات الحضرية والريفية بمنطقة المرج خلال الفترة (1973–2006)

فرج عبدالله حسين عبدالقادر
قسم الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم - المرج ، جامعة بنغازي، ليبيا
faraj.373.f3@gmail.com

The Relationship between the Age Structure of Females Aged (15–49 Years) and Fertility Levels in Urban and Rural Areas of Al-Marj Region during the Period (1973–2006)

Faraj Abdullah Hussein Abdelqader
Department of Geography, Faculty of Arts and Sciences, Al-Marj, University of Benghaz[i]

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل العلاقة بين التركيب العمري للإناث في سن الإنجاب (15–49 سنة) ومستويات الخصوبة في الحضر والريف بمنطقة المرج خلال الفترة 1973–2006، بالاعتماد على بيانات التعدادات العامة للسكان. وقد أظهرت النتائج ارتفاع نسبة الإناث في سن الإنجاب في كلٍ من الحضر والريف، بما يعكس اتساع قاعدة القوة الإنجابية، خاصة في الحضر، دون أن يقابله ارتفاع في معدلات الخصوبة.

وفي المقابل، سجلت الخصوبة الكلية تراجعًا واضحًا خلال الفترة نفسها، حيث انخفضت من مستويات مرتفعة عام 1973 إلى قرابة طفلين لكل امرأة عام 2006، مع انتقال ذروة الإنجاب نحو الأعمار الوسطى وتراجع مساهمة الفئات الأصغر سنًا، ولاسيما في الحضر، ويعكس هذا الاتجاه تأثير التحولات الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية، مثل تأخر سن الزواج وارتفاع تعليم المرأة وانتشار نموذج الأسرة الصغيرة، إلى جانب تقلص الفوارق بين الحضر والريف نتيجة امتداد التحول الديموغرافي إلى المناطق الريفية.

الكلمات المفتاحية : التركيب العمري، سن الإنجاب، الخصوبة الكلية، التحول الديموغرافي.

Abstract:

The study aims to analyze the relationship between the age structure of females of reproductive age (15–49 years) and fertility levels in urban and rural areas of the Al-Marj region during the period 1973–2006, based on data from the general population censuses. The results indicate an increase in the proportion of females of reproductive age in both urban and rural areas, reflecting an expansion of the reproductive base—particularly in urban areas—without a corresponding rise in fertility rates.

In contrast, total fertility rates declined markedly over the same period, falling from high levels in 1973 to around two children per woman by 2006. This decline was accompanied by a gradual shift of peak childbearing toward the middle age groups and a reduced contribution of younger age groups, especially in urban areas. These trends reflect the impact of social, economic, and educational transformations, such as delayed age at marriage, higher levels of female education, and the spread of the small-family norm, as well as the narrowing of urban–rural fertility differentials due to the diffusion of the demographic transition into rural areas.

Keywords: Age structure, Reproductive age, Total fertility, Demographic transition.

تمهيد:

تُعد الخصوبة السكانية أحد أهم العوامل التي تحدد مسار النمو السكاني واتجاهاته في أي مجتمع، فهي التي تضع الإطار العام لتغير حجم السكان وبنيتهم عبر الزمن. وتعكس معدلات الخصوبة مدى استقرار المجتمع وقدرته على التجدد السكاني، إذ تتأثر بمجموعة من الخصائص الديموغرافية والاجتماعية، في مقدمتها التركيب العمري للإناث في سن الإنجاب، والذي يمثل المؤشر الأبرز على القوة الإنجابية للمجتمع.

منذ سبعينات القرن الماضي، شهدت ليبيا تحولات ديموغرافية واضحة تمثلت في انخفاض ملموس في معدلات الخصوبة الكلية، إلى جانب تغيرات في توزيع الفئات العمرية للنساء، ولا سيما الفئة العمرية (15–49 سنة) التي تُعد النطاق العمري الرئيس للإنجاب. وقد انعكست هذه التحولات بصورة مباشرة على ديناميكية النمو السكاني، خاصة مع تباينها بين البيئات الحضرية والريفية.

إن دراسة العلاقة بين التركيب العمري للإناث ومستويات الخصوبة في منطقة المرج خلال الفترة (1973–2006) تكتسب أهمية خاصة، لما توفره من فهم أعمق لخصائص السكان واتجاهاتهم الديموغرافية. فاختلاف بنية الفئات العمرية في المجتمع يؤدي بالضرورة إلى اختلاف في معدلات الإنجاب، كما أن الفروق بين الحضر والريف تكشف عن تأثير العوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في السلوك الإنجابي.

في منطقة المرج، حيث تتنوع البيئات بين الحضر والريف، تتجلى هذه العلاقة بوضوح من خلال تباين مستويات الخصوبة، وارتباطها بتركيب السكان من حيث العمر، والتعليم، وسن الزواج، وأنماط الحياة السائدة، ومن هنا تبرز أهمية التحليل الديموغرافي الدقيق لهذه العلاقة، باعتبارها مدخلًا أساسيًا لفهم التحولات السكانية وتوجيه السياسات السكانية والتنموية على أسس علمية متينة.

أولاً–مشكلة الدراسة:

تواجه منطقة الدراسة تغيرات واضحة في التركيب العمري للإناث في سن الإنجاب، حيث ارتفعت نسبة الإناث في هذه الفئة العمرية في الحضر من حوالي 18.9٪ من إجمالي السكان إلى 28.6٪، وفي الريف من 17.8٪ إلى 28.4٪ خلال فترة الدراسة، كما زادت نسبتهم من إجمالي الإناث في نفس الفئة من 38.2٪ إلى 57.3٪ في الحضر، ومن 36.5٪ إلى 52.9٪ في الريف. ورغم هذا التوسع في قاعدة القوة الإنجابية، لم يترجم إلى ارتفاع في معدلات الخصوبة، التي تراجعت من 8.9 مولود لكل امرأة في الحضر و9.9 في الريف إلى 2.1 و2.3 على التوالي. وينشأ عن ذلك تناقض بين اتساع الفئة العمرية الخصبة وانخفاض مستويات الإنجاب، ما يطرح تساؤلات حول العوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية المؤثرة، مثل تأخر سن الزواج، وارتفاع مستويات التعليم لدى النساء، وزيادة مشاركتهن في سوق العمل، إضافة إلى التحولات في أنماط الأسرة. كما تتطلب هذه الظاهرة دراسة الفروق بين البيئة الحضرية والريفية ومدى تأثير هذه المتغيرات على سلوك الإنجاب، لفهم التحولات الديموغرافية وإعادة تشكيل نمط الخصوبة في المنطقة.

ومن هنا تنبع المشكلة من التساؤل حول ما إذا كانت التغيرات في مستويات الخصوبة بمنطقة الدراسة ترجع أساسًا إلى التحول في التركيب العمري للإناث، أم أن هناك عوامل أخرى ذات تأثير متداخل مثل التعليم، وسن الزواج، والظروف الاقتصادية والاجتماعية.

ثانياً–تساؤلات الدراسة:

1. كيف توزعت الإناث في سن الإنجاب (15–49 سنة) في البيئات الحضرية والريفية بمنطقة المرج خلال الفترة (1973–2006)؟
2. ما مدى التغير في مستويات الخصوبة في كل من الحضر والريف خلال نفس الفترة؟
3. ما التغيرات في مستويات الخصوبة (مؤشرات مثل ومعدلات الخصوبة حسب الفئات العمرية معدل الخصوبة الكلي) في نفس الفترة وفي كل بيئة على حدة؟
4. ما أوجه الاختلاف بين الحضر والريف في تأثير التركيب العمري على معدلات الخصوبة؟

ثالثاً –أهداف الدراسة:

1. تحليل التركيب العمري للإناث في سن الإنجاب (15–49 سنة) في البيئات الحضرية والريفية بمنطقة المرج عبر الفترة (1973–2006).
2. تحديد مستويات الخصوبة في كل من الحضر والريف خلال نفس الفترة ومقارنة اتجاهاتها.
3. دراسة العلاقة الإحصائية بين التركيب العمري ومستويات الخصوبة في المرج.
4. الكشف عن التباينات المكانية بين الحضر والريف في أثر التركيب العمري على الخصوبة.

رابعاً– أهمية الدراسة:

تتجلى أهمية هذه الدراسة في سعيها إلى إبراز دور التركيب العمري للإناث في تفسير التغيرات التي شهدتها مستويات الخصوبة في منطقة الدراسة خلال الفترة 1973–2006، مع التركيز على الفروق بين الحضر والريف، ويُعد فهم العلاقة بين الفئة العمرية للإناث في سن الإنجاب ومستوى الخصوبة مدخلًا أساسيًا لتفسير ديناميات النمو السكاني ومسارات التحول الديموغرافي، كما تكتسب الدراسة أهميتها من تناولها لبيئة محلية ذات خصوصية اجتماعية وثقافية، بما يسهم في تفسير الفوارق السكانية بين البيئتين، وتضيف الدراسة قيمة علمية من خلال تحليلها لعلاقة متبادلة بين عاملين ديموغرافيين رئيسيين ضمن إطار زمني ممتد يتيح رصد التحولات السكانية على مدى ثلاثة عقود.

خامساً– منهجية البحث:

اعتمد هذا البحث على مجموعة من المناهج العلمية المتكاملة التي تسهم في تحقيق أهداف الدراسة، وتوضيح العلاقة بين التركيب العمري للإناث ومستويات الخصوبة في البيئات الحضرية والريفية بمنطقة المرج خلال الفترة (1973–2006)، وقد تمثلت هذه المناهج في المنهج الوصفي التحليلي، والمنهج المقارن، والمنهج الكمي الإحصائي، والمنهج الجغرافي التحليلي، وذلك على النحو الآتي:

1. المنهج الوصفي:

يُعد المنهج الوصفي التحليلي من الأساليب الأساسية في الدراسات الديموغرافية، إذ يعتمد على وصف الظواهر السكانية وتحليلها باستخدام البيانات الكمية للكشف عن الاتجاهات والعلاقات بين المتغيرات. وقد جرى توظيفه في دراسة خصائص التركيب العمري للإناث في سن الإنجاب (15–49 سنة) بمنطقة المرج، وتحليل التغيرات التي طرأت عليها عبر الفترات الزمنية، مع إبراز الفروق بين البيئتين الحضرية والريفية، بما يتيح فهماً دقيقاً للواقع السكاني وتفسيره استنادًا إلى مؤشرات كمية موضوعية .(عبدالباسط محمد اسماعيل،2015،ص104)

2. المنهج المقارن:

اعتمد الباحث المنهج المقارن لدراسة الفروق بين البيئات الحضرية والريفية في منطقة المرج عبر الفترة الزمنية (1973، 1984، 1995، 2006)، بهدف تحديد أوجه التشابه والاختلاف في التركيب السكاني واتجاهات الخصوبة، وفهم العلاقة بين هذه التباينات والظروف الجغرافية والاجتماعية، ومعرفة ما إذا كانت الفروقات بين الحضر والريف ثابتة أم متغيرة زمنياً، (عبد الرحمن بدوي(2009،ص 54-82).

المنهج الكمي الإحصائي:

استُخدم المنهج الكمي الإحصائي لتحليل البيانات الديموغرافية المستخلصة من التعدادات السكانية الليبية، وحساب المؤشرات ذات الصلة مثل معدلات الخصوبة الكلية والعمرية، ونسب التوزيع العمري للإناث في سن الإنجاب، ومعاملات الارتباط بين المتغيرات. وساهم هذا المنهج في تحويل البيانات الخام إلى مؤشرات قابلة للقياس والمقارنة، بما يتيح رسم صورة دقيقة للعلاقة بين التركيب العمري ومستويات الخصوبة (فوزي محمد زيدان، 2016، ص 91)

سادساً–الدراسات السابقة:

دراسة محمد الهمالي، محمد العماري (2021) خصوبة السكان في ليبيا – محدداتها مستوياتها واتجاهاتها المستقبلية للفترة 1984-2015، حيث توصلت إلى أنّ الخصوبة في ليبيا انخفضت بين 1984 و2015، حيث هبط معدل الخصوبة الكلية من 8.3 إلى 3.3 طفل لكل امرأة، ومعدل المواليد الخام من 46 إلى 33 لكل ألف، ومعدل التكاثر الإجمالي من 4.1 إلى 1.6 طفل. وعزا الباحثان هذا الانخفاض لتغير التركيب العمري للنساء في سن الإنجاب، ارتفاع سن الزواج، تراجع الزواج المبكر، توسع التعليم، وزيادة مشاركة المرأة في العمل، مع توقع استمرار الانخفاض مستقبلاً إذا ظلت هذه العوامل ثابتة.

دراسة محمد إبراهيم، محمد مرسال(2022) تغير ذروة الخصوبة عند الإناث الليبيات: دراسة في العوامل والآثار (1950–2020)" أظهرت النتائج انتقال ذروة الخصوبة من الفئة العمرية 15–19 سنة في خمسينيات القرن الماضي إلى 25–29 سنة في العقد الأخير، أي بتأخر يقارب 5.7 سنوات. ويرجع هذا التغير إلى ارتفاع سن الزواج، وتحسن التعليم والصحة، وانتشار تنظيم الأسرة. كما انخفض معدل الخصوبة الكلي من 8.1 طفل عام 1973 إلى 2.2 طفل عام 2015، وارتفع متوسط سن الزواج من 14.4 سنة إلى 28.8 سنة، ما يعكس تحول السلوك الإنجابي للمرأة الليبية نحو التأخر في الإنجاب وتراجع الخصوبة.

دراسة سليمان أبو شناف علي إبراهيم (2023) مساهمة الإناث في النشاط الاقتصادي وأثرها على معدل الخصوبة السكانية في ليبيا، أظهرت النتائج ارتفاع نسبة مساهمة الإناث في النشاط الاقتصادي من 6.1٪ عام 1973 إلى 35.74٪ عام 2020، مقابل انخفاض معدل الخصوبة الكلي من 8.3 طفل لكل امرأة عام 1973 إلى 2.4 طفل عام 2015.

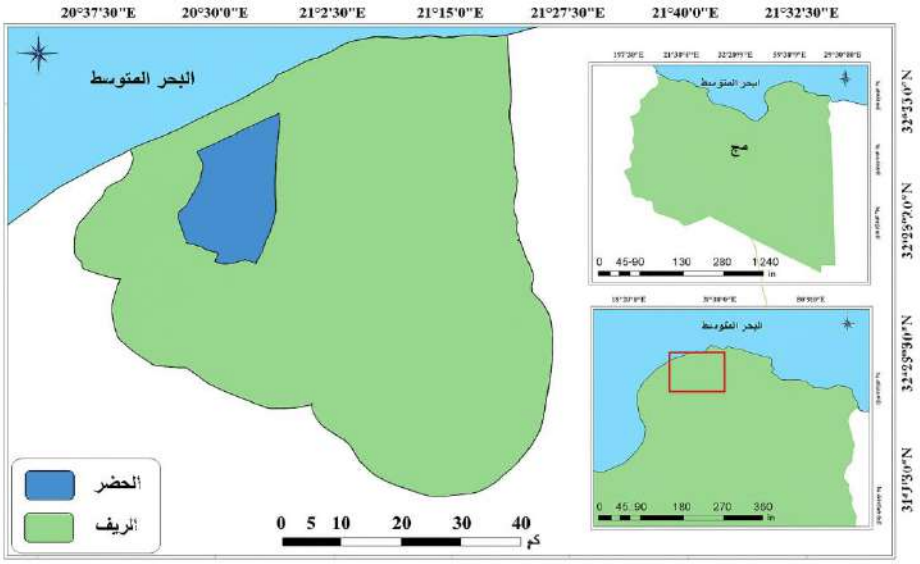
توصلت الدراسة إلى وجود علاقة عكسية قوية بين المتغيرين، أي أنه كلما زادت مشاركة الإناث في سوق العمل، انخفضت الخصوبة، وأكد التحليل الإحصائي باستخدام معامل الارتباط (Excel) وجود ارتباط سلبي بلغ (r = −0.86) بين معدل مساهمة الإناث في النشاط الاقتصادي ومعدل الخصوبة الكلية في ليبيا.

سابعاً–حدود منطقة الدراسة:

تقع منطقة المرج في إقليم الجبل الأخضر بشمال شرق ليبيا، ويبلغ متوسط ارتفاعها عن سطح البحر نحو 300 متر، حيث تمتد أراضيها بين المنخفضات الساحلية شمالًا والمرتفعات الداخلية جنوبًا. ويؤثر هذا الارتفاع على المناخ والغطاء النباتي والنشاط الزراعي، إذ تمنح المنطقة طقسًا معتدلًا ورطوبة أعلى مقارنة بالمناطق الداخلية، ما جعلها من أبرز المناطق الزراعية خصوبة في ليبيا.

تمثل المرج منطقة انتقالية تجمع بين الطابعين الريفي والحضري؛ إذ يتركز النشاط الإداري والخدمي في مدينة المرج، بينما تنتشر القرى والمناطق الريفية المحيطة، مثل العويلية، تاكنس، جردس، البنية، وطلميثة. وقد ساهم هذا التنوع المكاني في تنوع الأنماط السكانية والاقتصادية والاجتماعية، حيث يعتمد سكان الريف على الزراعة وتربية الماشية، بينما تتنوع أنشطة السكان الحضر على الإدارة والتعليم والخدمات التجارية.

خريطة (1) موقع منطقة الدراسة



المصدر: بالاعتماد على برنامج (Arc map 10.8)

وبذلك، تعكس منطقة المرج نموذجًا للتكامل بين البيئة الريفية المنتجة والبيئة الحضرية الإدارية، متميزة بخصائص جغرافية وديموغرافية فريدة ضمن إقليم الجبل الأخضر. وتشمل فترة الدراسة 1973–2006، وهي مرحلة شهدت تغيرات سكانية

واجتماعية واقتصادية بارزة، من بينها انخفاض معدلات الخصوبة والزواج في الحضر مقارنة بالريف، إلى جانب توسع عمراني وتحسن الخدمات الصحية والتعليمية، ما جعلها تمثل مرحلة انتقالية نحو استقرار النمو السكاني في المنطقة.

أولاً: التركيب العمري للإناث في سن الانجاب :

يشير التركيب العمري للإناث في سنّ الإنجاب إلى توزيع النساء ضمن الفئات العمرية الواقعة بين 15 و49 سنة، وهي الفئات القياسية المستخدمة في التحليل الديموغرافي والقياس الإحصائي للخصوبة. ويُعد هذا التقسيم أساسًا لحساب معدلات الخصوبة الخاصة بالعمر (ASFR)، والتي تُعرَّف بأنها عدد المواليد الأحياء لنساء في فئة عمرية محددة خلال فترة زمنية معينة لكل 1000 امرأة في الفئة نفسها، حيث يُحسب المعدل كنسبة يكون بسطها عدد المواليد ومقامها عدد النساء أو سنوات التعرض للإنجاب في تلك الفئة.

وتُقسَّم الأعمار عادة إلى سبع فئات خماسية هي: 15–19، 20–24، 25–29، 30–34، 35–39، 40–44، 45–49، ويُستخدم هذا التقسيم القياسي لأن الخصوبة لا تتوزع بالتساوي عبر الأعمار؛ إذ تختلف احتمالات الإنجاب باختلاف المرحلة العمرية، ما يجعل تحليل الخصوبة حسب العمر أدق من الاعتماد على المتوسط العام، (United Nations, 2024)

أ. التركيب العمري للإناث في سن الانجاب حسب البيئة الحضر – الريف بمنطقة المرج:

يوضح الجدول(1) والشكل(1) تطور نسبة الإناث ضمن الفئة العمرية 15–49 سنة مقارنة بإجمالي السكان في البيئتين الحضرية والريفية لمنطقة المرج خلال الفترة 1973–2006.

جدول (1) توزيع الإناث في المدى العمري (15–49 سنة) إلى إجمالي السكان واجمالي الاناث

بمنطقة المرج 1973–2006

البيئة	السنة	اجمالي السكان	اجمالي الاناث	البيئة	اجمالي السكان	اجمالي الاناث
الحضر	1973	18.9	38.2	الريف	17.8	36.5
	1995	25.3	50.7		22.8	44.0
	2006	28.6	57.3		28.4	52.9

المصدر:

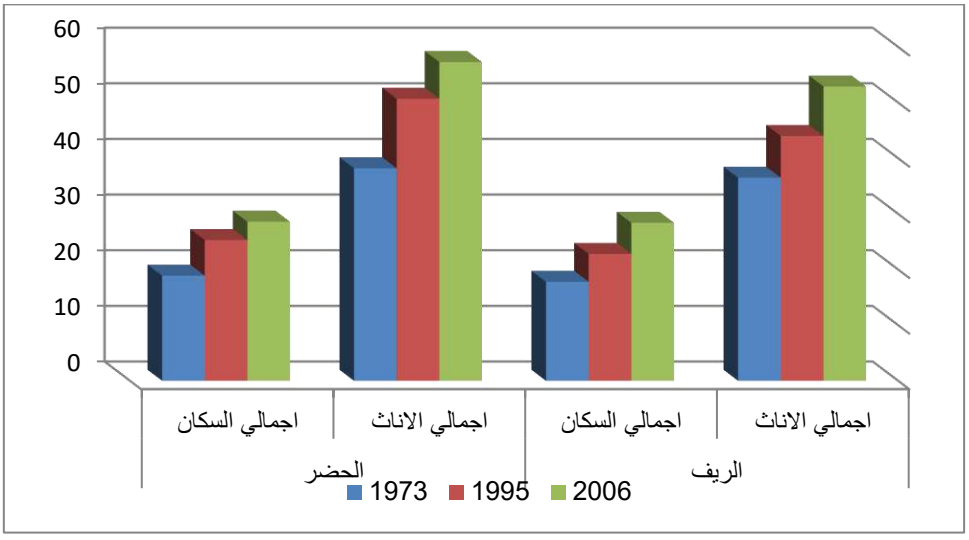
- نتائج التعداد العام للسكان، الجبل الأخضر، ج (1) ،1973،ص 30،31.
- نتائج التعداد العام للسكان، بلدية الفاتح، ج (1)،1984،ص 6.
- النتائج النهائية للتعداد العام للسكان ، الجبل الاخضر، ج(14)1995، ،.109.112).
- نتائج تعداد العام لسكان مدينة المرج ، ج(11)، 2006،ص.15.17.
- النتائج النهائية للتعداد العام للسكان ، منطقة سهل بنغازي، ج(14)، 1995ص، 102. 105.

في البيئة الحضرية، نلاحظ زيادة مستمرة في نسبة الإناث ضمن هذه الفئة العمرية، إذ ارتفعت من 18.9% من إجمالي السكان و38.2% من إجمالي الإناث عام 1973 إلى 28.6% من إجمالي السكان و57.3% من إجمالي الإناث عام 2006. ويعكس هذا الارتفاع توسع حجم القوة الإنجابية في المدن، وهو ما يتوافق مع التحولات الاجتماعية والاقتصادية مثل تحسين الخدمات الصحية والتعليمية وتأخر سن الزواج.

أما في البيئة الريفية، فقد سجلت النسبة أيضًا ارتفاعًا ملحوظًا، وإن كان أقل حدة مقارنة بالحضر، إذ ارتفعت من 17.8% من إجمالي السكان و36.5% من إجمالي الإناث عام 1973 إلى 28.4% و52.9% على التوالي عام 2006. ويشير هذا التغير إلى استمرار دور الفئة العمرية الإنجابية في الريف، على الرغم من أن وتيرة النمو في الحضر كانت أسرع نتيجة التحولات العمرانية والاجتماعية المرافقة للتوسع الحضري.

شكل(1) تطور نسبة الاناث في المدي العمري(15–49) حسب البيئة الحضر– الريف بمنطقة المرج

للفترة 1973–2006



المصدر: اعتمادا على الجدول (1)

بشكل عام، يعكس الجدول اتجاهًا واضحًا نحو زيادة نسبة الإناث في سن الإنجاب خلال العقود الثلاثة، مع تباين بين الحضر والريف، ما يشير إلى التحولات الديموغرافية المرتبطة بتغيرات الخصوبة والهجرة الداخلية وتحسن الظروف المعيشية والخدمات الأساسية في منطقة المرج.

ثانيا: معدل الخصوبة العمرية الخاصة:

معدل الخصوبة العمرية الخاصة هو مقياس ديموغرافي يُستخدم لتحليل الخصوبة داخل الفئات العمرية المختلفة من النساء في سنّ الإنجاب (15–49 سنة) (اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا ، ويُعرَّف بأنه عدد المواليد الأحياء لنساء في فئة عمرية

محددة خلال فترة زمنية معينة (عادة سنة) مقسومًا على عدد النساء في نفس الفئة العمرية، ويُعبَّر عنه عادة بعدد المواليد لكل 1000 امرأة في الفئة العمرية. يُحسب هذا المعدل للفئات العمرية الخماسية القياسية ضمن سن الإنجاب، وهي: 15–19، 20–24، 25–29، 30–34، 35–39، 40–44، 45–49، ويُعدّ أساسًا لحساب معدل الخصوبة الكلية الذي يعكس مجموع الخصوبة السنوية لجميع الفئات العمرية (ESCWA, 2013, p1).

ويُظهر تحليل معدل الخصوبة العمرية كيف تختلف احتمالات الإنجاب بين الفئات العمرية، إذ تسجل الفئات العمرية من 20–34 سنة أعلى معدلات للولادات، بينما تكون المعدلات أقل في الفئات الأصغر سنًا مثل 15–19 سنة، وكذلك في الفئات الأكبر مثل 45–49 سنة. ويُستخدم هذا المؤشر لتحليل الاتجاهات الديموغرافية في المجتمع، مثل المرحلة التي يمر بها من حيث التحول الديموغرافي، بالإضافة إلى تقييم تأثير السياسات الصحية والاجتماعية على سلوك الإنجاب والقرارات الأسرية المتعلقة بالولادة (ESCWA, 2013, p2).

أ. تتغير معدل الخصوبة العمرية الخاصة حسب البيئة(الحضر–الريف) بمنطقة المرج:

من خلال بيانات الجدول (2) تتضح الخصوبة العمرية الخاصة بمنطقة المرج خلال الفترة 1973–2006، حيث تُظهر تدرجًا واضحًا في مستويات الخصوبة وتوزيعها حسب الفئات العمرية والبيئة، بما يعكس انتقال المجتمع من نمط الخصوبة المرتفعة والمتوزعة على مدى زمني واسع إلى نمط ذي خصوبة منخفضة ومركزة في الأعمار الوسطى. ففي عام 1973 اتسمت الخصوبة بمستويات مرتفعة في كلٍ من الحضر والريف، إلا أن الريف كان أكثر خصوبة بوضوح، خاصة في الفئة العمرية 15–19 سنة التي بلغت مساهمتها نحو 19.6% في الريف مقابل 9.5% في الحضر، وهو ما يشير إلى انتشار الزواج المبكر في الريف واعتماد الأسر على الإنجاب في سن صغيرة.

جدول(2) معدل الخصوبة العمرية الخاصة حسب البيئة(الحضر–الريف) بمنطقة المرج

خلال الفترة 1973–2006

سنة التعداد	البيئة	15-19	20-24	25-29	30-34	35-.39	40-44	45-49
1973	الحضر	170.8	401.2	399.8	377.7	276.5	154.4	7.6
	الريف	388.2	445.2	373	332.7	258.7	152.9	27.8
1984	الحضر	168.1	295.9	361.4	347.6	333.9	129.1	1.7
	الريف	353.9	360.6	290.4	231.9	171.6	115.3	28.1
1995	الحضر	56.2	81.2	296.3	170.8	145.2	137.1	4.1
	الريف	99.6	115	267.5	181	158.5	136.4	13.4
2006	الحضر	47.6	58.4	139.8	76.8	68.5	23.2	0
	الريف	67.2	88.8	171.6	49.6	45.8	32.7	7.7

المصدر:

- **نتائج التعداد العام للسكان، الجبل الأخضر، ج (1) ،1973،ص 30،31.**
- **نتائج التعداد العام للسكان، بلدية الفاتح، ج (1)،1984،ص 6،.**
- **النتائج النهائية للتعداد العام للسكان ، الجبل الاخضر، ج(14)1995،ص. 112109.).**

- نتائج تعداد العام لسكان مدينة المرج ، ج(11)، 2006،ص.15.17.
- النتائج النهائية للتعداد العام للسكان ، منطقة سهل بنغازي، ج(14)، 1995،ص.102. 105).

كما سجلت الفئتان 20–24 و25–29 ذروة الخصوبة في كلا البيئتين، إذ بلغت في الحضر 22.4% و22.3% على التوالي، وفي الريف 22.5% و18.9%، وفي الوقت نفسه احتفظت الفئات الأعلى عمرًا، مثل 30–34 و35–39 سنة، بمساهمات مرتفعة نسبيًا بلغت في الحضر 21.1% و15.5%، وفي الريف 16.8% و13.1%، ما يدل على امتداد العمر الإنجابي إلى منتصف الثلاثينيات وربما إلى ما بعدها.

وبحلول تعداد 1984 بدأ نمط الخصوبة في التغير، إذ انخفضت معدلات الإنجاب في الفئات الأصغر، وخصوصًا في الحضر، حيث تراجعت مساهمة الفئة 15–19 إلى 10.2% مقابل 22.8% في الريف، بينما بقيت الفئتان 20–24 و25–29 في مقدمة الإسهام بنسبة 18.1% و22.1% في الحضر، وبنسبة 23.2% و18.7% في الريف. كما استمرت الفئات العمرية الأعلى نسبيًا في الاحتفاظ بمستويات معتبرة، حيث ساهمت الفئتان 30–34 و35–39 بـ 21.2% و20.4% في الحضر مقابل 14.9% و11.1% في الريف، ما يعكس تغيرًا تدريجيًا في توقيت الإنجاب، مع بقاء الريف أكثر تمسكًا بنمط الخصوبة المبكرة مقارنة بالحضر.

وفي عام 1995 أصبح التراجع أكثر وضوحًا، خصوصًا في الفئات العمرية الأصغر، حيث انخفضت مساهمة 15–19 و20–24 في الحضر إلى 6.3% و9.1% فقط، مقارنة بـ 10.2% و11.8% في الريف. وفي المقابل ظلت الفئة 25–29 محور الخصوبة وذروتها بنسبة 33.3% في الحضر و27.5% في الريف، بينما سجلت الفئة 30–34 مساهمة بلغت 19.2% في الحضر و18.6% في الريف، وتراجعت مساهمة الفئات الأكبر مثل 40–44 إلى 15.4% في الحضر و14% في الريف، ما يعكس تقلص العمر الإنجابي وتوجه النساء نحو الإنجاب خلال فترة زمنية أقصر نسبيًا.

أما في عام 2006، فقد وصلت الخصوبة إلى مستويات متدنية جدًا في كل الفئات العمرية، خصوصًا في الفئات ذات المساهمة التاريخية الأكبر، حيث نلاحظ أن الفئة 25–29 بقيت الأعلى إسهامًا بنسبة 33.7% في الحضر و37% في الريف، بينما ساهمت الفئة 30–34 بنحو 18.5% في الحضر مقابل 10.7% في الريف. كما شهدت الفئة 20–24 انخفاضًا ملحوظًا لتصل إلى 14.1% في الحضر و19.1% في الريف، في حين تراجعت الفئة 15–19 إلى 11.5% حضريًا و14.5% ريفيًا، وتكاد مساهمة الفئة 45–49 تختفي تمامًا (0% في الحضر و1.6% في الريف)، مما يدل على تحول شبه كامل نحو خصوبة مقتصرة على الأعمار الوسطى.

وبناءً على ما سبق، فإن التطور الزمني لمعدلات الخصوبة العمرية في المرج بين 1973 و2006 يشير بوضوح إلى انتقال المجتمع من نمط خصوبة مرتفعة وممتدة عبر الفئات العمرية إلى نمط منخفض ومتركز في فئة عمرية محدودة نسبيًا. كما يتضح أن التحول كان أسرع وأعمق في الحضر قبل أن يمتد لاحقًا إلى الريف، مع بقاء الفروق البيئية حاضرة طوال فترة الدراسة. ويعكس هذا التحول تغيرات بنيوية في سلوك الإنجاب وسن الدخول في الحياة الزوجية، واتجاه المجتمع نحو خصوبة أقل وأكثر تأخرًا، في إطار مسار الانتقال الديموغرافي الذي شهدته المنطقة.

ثالثاً: معدل الخصوبة الكلية:

معدل الخصوبة الكلية هو مقياس ديموغرافي يُستخدم لتقدير متوسط عدد الأطفال الذين من المتوقع أن تنجبهم المرأة طوال فترة سنّ الإنجاب (15–49 سنة) إذا استمرت معدلات الخصوبة الخاصة بكل فئة عمرية عند مستوياتها الحالية طوال فترة الإنجاب. ويُعبر عن هذا المعدل بعدد الأطفال لكل امرأة، ويُعد من أهم المؤشرات السكانية المستخدمة في فهم حجم الإنجاب في المجتمع وتوقعات النمو السكاني.

ويقيس هذا المؤشر إجمالي معدلات الخصوبة العمرية الخاصة عبر الفئات العمرية الخماسية المعتمدة، ما يجعله أكثر دقة في إبراز مستوى الخصوبة مقارنة بالمعدلات البسيطة، كما يسمح بمقارنة مستويات الخصوبة بين دول أو مناطق مختلفة، أو متابعة تغيرها عبر الزمن. ويُستخدم هذا المعدل أيضًا في التخطيط السكاني والاجتماعي لأن انخفاضه يشير عادةً إلى دخول المجتمع في مرحلة متقدمة من التحول الديموغرافي حيث تقل الولادات وتبدأ معدلات النمو السكاني في الانخفاض (ESCWA, 2013, p3.4).

أ. معدل الخصوبة الكلية حسب البيئة(الحضر – الريف) بمنطقة المرج:

من خلال الجدول (3) والشكل(2)الخاص بمعدل الخصوبة الكلية بمنطقة الدراسة خلال الفترة 1973–2006، يتضح أن المنطقة شهدت مسارًا تنازليًا واضحًا في الخصوبة، يعكس التحولات الاجتماعية–الاقتصادية والديموغرافية التي طرأت عبر العقود.

جدول(3) معدل الخصوبة الكلية حسب البيئة(الحضر – الريف) بمنطقة المرج

خلال الفترة1973–2006

السنة / البيئة	1973	1984	1995	2006
الحضر	**8.9**	8.2	4.1	2.1
الريف	**9.9**	7.9	4.8	2.3

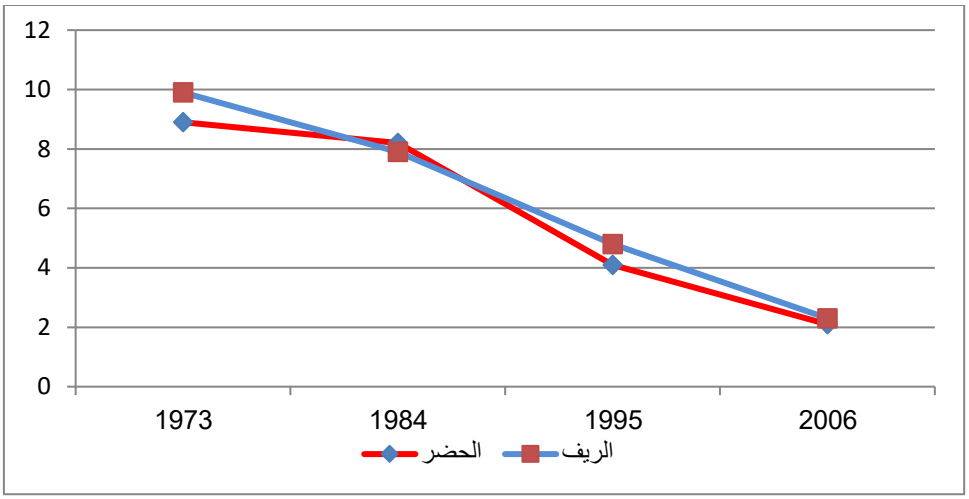
المصدر: الجدول(2)

فقد سجلت الخصوبة في عام 1973 مستويات مرتفعة بلغت 8.9 مواليد للمرأة الحضرية و9.9 للمرأة الريفية، وهو ما يعكس نمط الخصوبة التقليدي المرتفع الذي كان سائدًا في ليبيا آنذاك، حيث ارتبطت الأسرة الكبيرة بمنظومة اجتماعية وثقافية واقتصادية تشجع على زيادة عدد الأبناء، خاصة في المناطق الريفية التي تُظهر قيمًا أعلى للخصوبة نتيجة الزواج المبكر، وقلة مشاركة المرأة في سوق العمل، وضعف انتشار وسائل تنظيم الأسرة مقارنة بالحضر.

وفي عام 1984 بدأت الخصوبة في الانخفاض بوضوح، حيث تراجع المعدل إلى 8.2 في الحضر و7.9 في الريف، وهو ما يشير إلى بداية التحول الديموغرافي في المنطقة، مدفوعًا بتحسن مستويات التعليم، خصوصًا بين الإناث، وتوسع خدمات الصحة العامة، إلى جانب تغيرات اجتماعية تمثلت في تأخر سن الزواج تدريجيًا، بالإضافة إلى بدء انتشار الوعي المتعلق بتنظيم الأسرة في المدن بشكل أكبر من الريف.

شكل(3) تطور معدل الخصوبة الكلية حسب البيئة(الحضر – الريف) بمنطقة المرج

خلال الفترة1973–2006



المصدر: اعتمادا على الجدول(3)

أما في عام 1995 فقد تسارعت وتيرة الانخفاض، حيث انخفض معدل الخصوبة الكلية إلى 4.1 في الحضر و4.8 في الريف، وهو تراجع كبير عكس انتقال المنطقة من مرحلة الخصوبة المرتفعة إلى مرحلة الخصوبة المتوسطة. وفي هذه المرحلة بدأت تتجلى بوضوح التحولات في الدور الاجتماعي والاقتصادي للمرأة من خلال زيادة الالتحاق بالتعليم والعمل، وتنامي التوجه نحو الأسرة النووية الصغيرة، إلى جانب التطورات الاقتصادية التي جعلت من صغر حجم الأسرة خيارًا عقلانيًا لدى العديد من الأسر.

وبحلول تعداد عام 2006، وصلت الخصوبة إلى مستويات منخفضة جدًا، حيث سجلت 2.1 مولود للمرأة الحضرية و2.3 للمرأة الريفية، وهي مستويات تقارب حدود الإحلال السكاني (2.1)، ما يؤكد أن المنطقة دخلت بوضوح مرحلة الخصوبة المنخفضة. ويشير هذا التراجع إلى نضوج التحول الديموغرافي، وانعكاس تأثير مجموعة من العوامل الهيكلية مثل ارتفاع تكاليف المعيشة، وزيادة مشاركة المرأة في التعليم والعمل، وانتشار قيم الإنجاب المحدود، واستمرار ارتفاع سن الزواج، إلى جانب تحسن الوعي الصحي والإنجابي بصورة عامة.

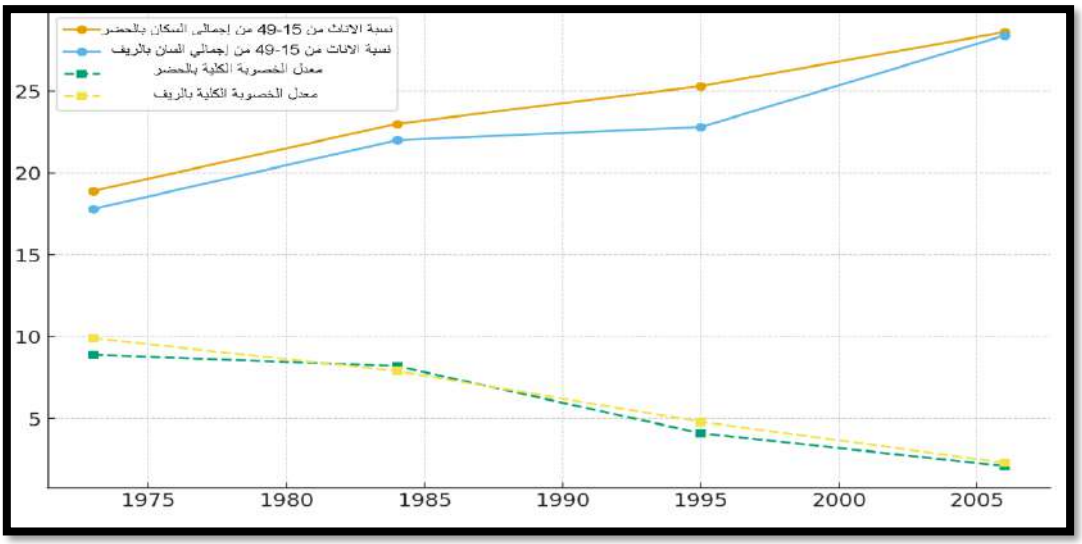
وبشكل عام يمكن القول إن المسار الخصوبي في منطقة المرج اتخذ اتجاهًا تنازليًا مستمرًا، مع بقاء الفروق البيئية واضحة؛ حيث كانت الخصوبة دائمًا أعلى في الريف مقارنة بالحضر، غير أن المسافة بينهما تضيق عبر الزمن. ويعكس هذا الاتجاه انتقال المجتمع المحلي من النمو السكاني الطبيعي المرتفع إلى نمط سكاني أكثر استدامة، تتراجع فيه الخصوبة تدريجيًا بالتوازي مع التحولات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

رابعاً: تباين الإناث في سن الإنجاب وأثره على الخصوبة في الحضر والريف بمنطقة المرج:

يبين الشكل(3) تطور التركيب السكاني للإناث ومعدلات الخصوبة حسب البيئة الحضرية والريفية بمنطقة المرج خلال الفترة 1973–2006، حيث يظهر أن نسبة الإناث من إجمالي السكان ارتفعت في كلٍ من الحضر والريف عبر الزمن، إذ ارتفعت في

الحضر من نحو 18.9% عام 1973 إلى 28.6% عام 2006، وفي الريف من 17.8% إلى 28.4% خلال الفترة ذاتها. كما ارتفعت نسبة الإناث من إجمالي الإناث في سن الإنجاب (15–49 سنة) في الحضر من 38.2% إلى 57.3%، وفي الريف من 36.5% إلى 52.9%. يعكس ذلك اتساع قاعدة القوة الإنجابية لدى الإناث في المنطقة، خصوصًا داخل الحضر، بما يعبر عن انتقال ديموغرافي واضح اتسم بزيادة أهمية الفئات العمرية المنتجة للخصوبة.

شكل(3) تغير نسبة الإناث في سن الإنجاب والخصوبة في الحضر والريف بمنطقة المرج (1973–2006)



المصدر: اعتمادا على الجدول(1) والجدول(3)

بمقارنة هذه المعطيات مع الاتجاهات الزمنية لمعدل الخصوبة الكلية، يتضح أن زيادة نسبة الإناث في سن الإنجاب لم يرافقها استمرار في ارتفاع الخصوبة؛ إذ شهدت المنطقة انخفاضًا حادًا في معدلات الخصوبة في الحضر من 8.9 مولود لكل امرأة عام 1973 إلى 2.1 فقط عام 2006، وفي الريف من 9.9 إلى 2.3 خلال الفترة نفسها. يشير هذا التراجع إلى دخول المنطقة مرحلة تحول ديموغرافي واضحة، حيث انتقلت من مرحلة الخصوبة المرتفعة إلى خصوبة منخفضة، بالرغم من اتساع حجم الفئة العمرية في سن الإنجاب.

يعكس هذا التناقض الظاهري بين اتساع الفئة الخصبة وانخفاض معدلات الإنجاب تأثير العوامل الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية التي أصبحت أكثر حضورًا مع مرور الزمن، مثل ارتفاع مستويات التعليم لدى النساء، وتأخر سن الزواج، وزيادة مشاركة المرأة في التعليم والعمل، إضافة إلى تغير الاتجاهات الاجتماعية نحو حجم الأسرة المثالي. كما يظهر أن الفارق بين الحضر والريف في الخصوبة بدأ يتقلص وصولًا إلى قيم متقاربة في نهاية الفترة، ما يعكس انتشار أنماط التحول الديموغرافي من المدن نحو الأرياف.

وباختصار، توضح البيانات أن منطقة المرج شهدت توسعًا في حجم الإناث في سن الإنجاب، لكنه لم يترجم إلى ارتفاع في الخصوبة، بل واكب مرحلة انخفاض حاد نتيجة التحولات الاجتماعية والديموغرافية، ما يؤكد دخول المنطقة في مرحلة انتقال ديموغرافي متقدم تتجه فيها مستويات الخصوبة نحو المعدلات التعويضية أو دونها.

الخاتمة:

أولاً: النتائج:

1. شهدت نسبة الإناث في سن الإنجاب من إجمالي السكان في الحضر ارتفاعًا من 18.9% عام 1973 إلى 28.6% عام 2006، مما يعكس توسع القوة الإنجابية خلال العقود الأولى نتيجة زيادة عدد النساء في الفئة الإنجابية.
2. في الريف ارتفعت النسبة من 17.8% عام 1973 إلى 28.4% عام 2006، ما يشير إلى توسع الفئة الإنجابية، مع استقرار نسبي لاحق نتيجة التحولات الديموغرافية والاجتماعية.
3. نسبة الإناث في سن الإنجاب من إجمالي الإناث ارتفعت في الحضر من 38.2% إلى 57.3% (1973–2006) ، بينما ارتفعت في الريف من 36.5% إلى 52.9%، ما يعكس زيادة التركيز العمري للفئة الإنجابية في كلتا البيئتين.
4. معدلات الخصوبة العمرية الخاصة (ASFR) كانت أعلى في الريف عام 1973 في معظم الفئات العمرية، لا سيما الفئات الشابة (15–24 سنة)، نتيجة الزواج المبكر والنمط التقليدي للإنجاب، بينما شهدت جميع الفئات انخفاضًا مستمرًا حتى عام 2006، مع تراجع أسرع في الحضر بسبب التعليم وتأخر سن الزواج وتنظيم الأسرة.
5. معدل الخصوبة الكلية في الحضر انخفض من 8.9 (1973) إلى 2.1 (2006) ، وفي الريف من 9.9 إلى 2.3، ما يعكس دخول منطقة المرج مرحلة متقدمة من التحول الديموغرافي وانتقال المجتمع من نمط إنجابي تقليدي إلى نمط منخفض الخصوبة.
6. التركيب العمري للإناث في الحضر يميل نحو الفئات الأكبر سنًا (25–34 سنة)، ما أدى إلى انخفاض الخصوبة لدى الفئات الأصغر، بينما التركيب العمري في الريف أكثر شبابًا (20–29 سنة)، مما يتيح فترة إنجاب أطول ومستويات خصوبة أعلى.
7. الفوارق بين الحضر والريف في التعليم، سن الزواج، والعادات الاجتماعية كانت محورية في تحديد مستويات الخصوبة، حيث ساهمت العادات التقليدية والهجرة والوعي الصحي في اختلاف مسارات التحول الديموغرافي.

ثانياً: التوصيات:

1. استمرار حملات التثقيف الصحي وتنظيم الأسرة، خصوصًا في الريف، للحد من الخصوبة العالية التقليدية وتحسين التخطيط الأسري.
2. دعم تعليم الفتيات والمرأة في الريف لتمكينها من اتخاذ قرارات إنجابية مدروسة، وتقليص الفجوة بين الحضر والريف.
3. تصميم برامج خصوبة وتنمية تستجيب لتوزيع الأعمار الفعلي للنساء في المنطقة، مع مراعاة الفوارق العمرية.
4. تحسين فرص العمل، دعم الرعاية الصحية، ومواجهة الهجرة الداخلية، للحد من الضغوط على التركيب السكاني والفئات الإنجابية.
5. اعتماد سياسات سكانية مرنة تستجيب للتحولات الاجتماعية والاقتصادية، لضمان استمرارية التقدم في التحول الديموغرافي.

المراجع:

أولاً: الكتب:

1. إسماعيل، عبد الباسط محمد (2015) مناهج البحث الجغرافي، الأسس النظرية والتطبيقات العملية، دار المعرفة الجامعية ،الإسكندرية.
2. بدوي، عبد الرحمن (2009) المنهج العلمي ومناهج البحث في العلوم الاجتماعية، دار النهضة العربية، القاهرة.
3. زيدان، فوزي محمد (2016) أساليب البحث والتحليل الإحصائي في الجغرافيا البشرية، دار الكتب العلمية، بيروت.

ثانيا: المجلات والدوريات:

1. محمد الهمالي، محمد العماري (2021) خصوبة السكان في ليبيا – محدداتها مستوياتها واتجاهاتها المستقبلية للفترة 1984–2015، مجلة كلية الآداب – جامعة بنغازي.
2. دراسة محمد إبراهيم (2022) تغير ذروة الخصوبة عند الإناث الليبيات: دراسة في العوامل والآثار (1950–2020)" للباحث ، نُشرت في مجلة الأكاديمية العليا للبحوث والدراسات العلمية، العدد السادس، يوليو 2022.
3. دراسة سليمان أبو شناف علي إبراهيم (2023) مساهمة الإناث في النشاط الاقتصادي وأثرها على معدل الخصوبة السكانية في ليبيا، جامعة بني وليد.
4. أمانة التخطيط ، مصلحة الإحصاء والتعداد(1973) نتائج التعداد العام للسكان، منطقة الجبل الأخضر، طرابلس،1977م.
5. أمانة التخطيط ، مصلحة الإحصاء والتعداد(1984) نتائج التعداد العام للسكان ، بلدية الفاتح ، طرابلس،(د – ت)
6. الهيئة الوطنية للمعلومات والتوثيق ،(1995) نتائج التعداد العام للسكان ، منطقة الجبل الأخضر طرابلس،1998م.
7. اللجنة الشعبية العامة ، الهيئة العامة للمعلومات (2006) النتائج النهائية للتعداد العام للسكان، شعبية المرج، طرابلس 2008م.
8. اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا (2013) .(ESCWA). معدل الخصوبة العمرية. في نشرة السكان والإحصاءات الحيوية في المنطقة العربية، العدد السادس عشر.
9. مكتب السجل المدني المرج، 1973 – 2006.

ثالثا: المراجع الاجنبية:

1.United Nations, Department of Economic and Social Affairs, Population Division. (2024).

جامعة بنغازي
كلية التربية – المرج
ISSN 2518-5845
المجلة الليبية العالمية

University of Benghazi
Faculty of Education Al Marj

العدد الثالث والسبعون /أبريل 2026م Global Libyan Journal

التنظيم المالي لبيت المال في البصرة والكوفة في العصر الأموي
الموارد واوجه الانفاق من (40 – 132 هـ / 660 – 750 م)

مجدي سليمان إبراهيم علي
باحث في التاريخ الإسلامي، ليبيا
mjdalqtrany1@gmail

The financial organization of the Treasury (Bayt al-Mal) in Basra and Kufa during the Umayyad era: resources and aspects of expenditure

Magdy Suleiman Ibrahim ail
researcher in Islamic history

الملخص:

يتناول هذا البحث التنظيم المالي لبيت المال في مدينتي البصرة والكوفة خلال العصر الأموي، بوصفه أحد الركائز الأساسية للإدارة الاقتصادية في الدولة الإسلامية. ويسعى إلى إبراز طبيعة الموارد المالية التي اعتمد عليها بيت المال، وفي مقدمتها الخراج، والجزية، والعشور، والغنائم، إلى جانب أوجه الإنفاق المختلفة التي شملت رواتب الجند والولاة، والإنفاق على المرافق العامة، ودعم النشاط الإداري والعسكري. كما يناقش البحث آليات إدارة هذه الموارد وأساليب ضبطها وتوزيعها، في ظل التحولات السياسية والإدارية التي شهدها العصر الأموي. ويعتمد البحث المنهج التاريخي التحليلي، مع الإفادة من المصادر العربية المبكرة، للكشف عن مدى كفاءة التنظيم المالي في البصرة والكوفة، وأثره في تحقيق الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي في هاتين المدينتين، بوصفهما مركزين حضاريين وإداريين مهمين في الدولة الأموية.

الكلمات المفتاحية : بيت المال، التنظيم المالي، البصرة، الكوفة.

Abstract:

This study examines the financial organization of the Bayt al-Māl in the cities of Basra and Kufa during the Umayyad period, considering it a fundamental pillar of economic administration in the early Islamic state. The research highlights the main financial resources of the Bayt al-Māl, including land tax (kharāj), poll tax (jizya), tithes (‘ushūr), and spoils of war, as well as the various expenditure channels such as soldiers’ and governors’ salaries, public services, and administrative and military expenses. It also analyzes the mechanisms of financial management, regulation, and distribution in light of the political and administrative developments of the Umayyad era. Relying on a historical-analytical approach and early Arabic sources, the study aims to assess the efficiency of the financial system in Basra and Kufa and its role in achieving economic and social stability in these two important administrative and urban centers of the Umayyad state.

Keyword: Bayt al-Māl, Financial Organization, Basra, Kufa,.

مقدمة البحث:

يمثّل التنظيم المالي لبيت المال أحد الركائز الأساسية التي قامت عليها الإدارة الاقتصادية في الدولة الإسلامية خلال العصر الأموي، إذ اضطلع بدور محوري في إدارة الموارد العامة وتنظيم أوجه الإنفاق بما ينسجم مع متطلبات الدولة والمجتمع. وقد اكتسبت مدينتا البصرة والكوفة مكانة بارزة في هذا الإطار، لكونهما من أهم المراكز الحضرية والإدارية في العراق، إضافة إلى ما تمتعتا به من ثقل عسكري واقتصادي، جعلهما محورًا رئيسًا لتطبيق السياسات المالية الأموية.

وتنبع أهمية تناول التنظيم المالي لبيت المال في البصرة والكوفة من كونه يعكس طبيعة الفكر الإداري والاقتصادي الذي ساد تلك المرحلة، ويكشف عن الأساليب المعتمدة في جمع الموارد المالية وضبطها وتوزيعها. كما تسهم هذه الدراسة في تعميق الفهم بتاريخ المالية العامة في العصر الأموي، من خلال تحليل العلاقة بين التنظيم المالي والاستقرار الاقتصادي والاجتماعي، في ظل التحولات السياسية والإدارية التي شهدتها الدولة آنذاك.

أهمية البحث:

تتجلى أهمية هذا البحث في تسليطه الضوء على جانب جوهري من تاريخ الإدارة المالية الإسلامية، يتمثل في دراسة التنظيم المالي لبيت المال في البصرة والكوفة خلال العصر الأموي. ويكتسب البحث أهميته من محاولته تقديم معالجة تحليلية مقارنة لآليات إدارة الموارد والنفقات في المدينتين، فضلًا عن إبراز دور بيت المال في دعم الاستقرار الاقتصادي، وتنظيم شؤون الدولة المالية في واحدة من أكثر المراحل التاريخية حيوية وتأثيرًا.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى تحقيق مجموعة من الأهداف، من أبرزها:

1. توضيح الإطار المفاهيمي والتنظيمي لبيت المال في العصر الأموي.
2. تحديد مصادر الموارد المالية المعتمدة في البصرة والكوفة.
3. بيان أوجه الإنفاق العام وأولوياته في المدينتين.
4. تحليل أساليب التنظيم المالي وإدارة الموارد والنفقات.
5. استجلاء أثر التنظيم المالي لبيت المال في تحقيق الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي.

إشكالية البحث:

ينطلق البحث من إشكالية رئيسة تتمثل في التساؤل الآتي:

ما مدى فاعلية التنظيم المالي لبيت المال في البصرة والكوفة خلال العصر الأموي، وأثره في تحقيق الكفاءة المالية والاستقرار الاقتصادي؟

ويتفرع عن هذه الإشكالية عدد من التساؤلات الفرعية، من أهمها:

- ما طبيعة الموارد المالية التي شكّلت دعائم بيت المال في المدينتين؟

- كيف جرى تنظيم النفقات العامة وتحديد أولوياتها؟
- ما أوجه التشابه والاختلاف في التنظيم المالي بين البصرة والكوفة؟
- إلى أي مدى تأثر التنظيم المالي بالسياسات الإدارية والاقتصادية الأموية؟

منهج البحث:

يعتمد هذا البحث على المنهج التاريخي التحليلي، من خلال تتبع الروايات والنصوص الواردة في المصادر التاريخية العربية المبكرة، وتحليلها تحليلًا نقديًا يراعي السياقين الزمني والإداري. كما يستعين البحث بالمنهج الوصفي المقارن لإبراز أوجه الاتفاق والاختلاف في التنظيم المالي لبيت المال بين البصرة والكوفة، بما يتيح تقديم رؤية علمية متكاملة حول طبيعة الإدارة المالية في العصر الأموي.

1. إن الواردات المالية في البصرة والكوفة لم تكن واضحة المعلم في كل الفترات وكانت تجبى باسم واردات العراق، بحيث لم يكن هناك التحديد بدقة لأبواب الجباية ومصادرها فهل اقتصرت على الخراج وحده أم شملت أيضا ما يجبى من أراضي العشر، والجزية، والتجارات، والمكوس والهدايا وغيرها، وهل شملت ما ترسله الأقاليم الأخرى، ولم تحدد بدقة الأقاليم أو المناطق التي جبيت منها هذه المبالغ، وهل شملت الكور القريبة من البصرة والكوفة، إن أكثر المصادر التي ذكرت أرقام الجبايات وقد ذكرت سابقا حيث أشارت إلى أنها جباية السواد ولم تحدد هل كان السواد الذي جبيت منه يشمل العراق كله، أم أنه يقتصر على ما يتبع الكوفة فحسب. ولعل عدم التحديد بدقة كان من أكثر الصعوبات التي واجهت البحث، فلم نقف كثيرا على روايات مفصلة بجبايات البصرة أو الكوفة إلا ما ندر، إن الأحوال السائدة في عصر الراشدين والفترة الزمنية المحددة لدراستنا هذه كانت تقضي أن تصرف موارد الجباية على مقاتلة الكوفة والبصرة بعد إرسال خمسها إلى الحجاز، وهذا يتطلب التمييز بين ما يجبى للكوفة وما يجبى للبصرة، ولقد أشارت بعض المصادر إلى وجود سوادين متمايزين هما سواد الكوفة وسواد البصرة، كما أشارت إلى العراقيين وإلى ولاة خراج على كل من البصرة والكوفة (**العلي : 1986، ص 234**)

تتفاوت مساهمة الإيرادات المالية في مدينتي البصرة والكوفة من نشاط إلى آخر، وكان النشاط والقطاع الزراعي من أكبر المساهمين بهذه الإيرادات، حيث اكتسبت أهمية الأراضي التي عرفت بأرض سواد العراق، لما فيه من خصوبة ووفرة مياه وإنتاج، وتأتي أهمية الإيرادات المالية لما لها من أهمية واضحة في تطور الحياة الاقتصادية في البصرة والكوفة. اولا الواردات المالية في البصرة والكوفة.

اتخذ الخليفة عبد الملك بن مروان قرارًا بتعريب الدواوين ضمن مشروع إصلاحي شامل هدفه تعزيز مركزية الدولة وتوحيد نظامها الإداري. وقد بدأ تطبيق هذا القرار في ديوان العراق على يد القائد والإداري الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي أمر بنقل سجلات الديوان من الفارسية إلى العربية بعد إعداد كوادر قادرة على القيام بهذه المهمة.

استلزم هذا التحول إعداد كتّاب عرب يتقنون الحساب والإدارة، كما احتاج إلى إعادة تنظيم السجلات المالية بطريقة تتلاءم مع اللغة العربية. ولم يكن الأمر مجرد ترجمة حرفية، بل شمل إعادة صياغة النظام الإداري والمالي بما يتناسب مع متطلبات الدولة الإسلامية المتسعة (**أحمد شلبي : 1991،ص 215**)

أدى نقل الدواوين إلى العربية إلى تحسين إدارة الموارد المالية للدولة، إذ أصبحت سجلات الخراج والضرائب مفهومة للسلطة المركزية وللكتّاب العرب الذين تولوا إدارتها. وقد ساعد ذلك في ضبط عملية تحصيل الضرائب وتقليل الأخطاء التي قد تنشأ نتيجة الترجمة أو سوء الفهم.

كما أدى تعريب الدواوين إلى توحيد المصطلحات المالية والإدارية، وهو ما أسهم في تسهيل عملية التواصل بين الأقاليم المختلفة ومركز الخلافة. فبدلًا من وجود أنظمة متعددة بلغات مختلفة، أصبحت الإدارة المالية تعمل ضمن إطار لغوي واحد، الأمر الذي عزز كفاءة الجهاز المالي للدولة (**جرجي زيدان : 1993،ص 187**)

كان من أهم نتائج تعريب الدواوين تعزيز قدرة الدولة على مراقبة مواردها المالية. فقد أصبح الخليفة والمسؤولون في العاصمة قادرين على الاطلاع المباشر على السجلات المالية دون الحاجة إلى مترجمين أو وسطاء. وهذا بدوره قلل من احتمالات التلاعب في الحسابات أو إخفاء الإيرادات.

2. كما أدى التعريب إلى إدخال عناصر عربية في الإدارة المالية، الأمر الذي حدّ من احتكار بعض الفئات غير العربية للمناصب الإدارية الحساسة. وقد ساعد ذلك على تحقيق قدر أكبر من الشفافية في إدارة الأموال العامة (**طقوش : د . ت ،ص 142**)

أولاً : الواردات المالية فى البصرة والكوفة :

إن القاعدة العامة في النظام المالي الإسلامي أن تتضمن التخصيص لكل مصر ما يجبى من المقاطعات التي فتحها مقاتلة ذلك العصر، إضافة الى واردات أخرى وهي كالآتي:

جباية الأموال :

كان الدخل الرئيسي للبصرة والكوفة، يأتي من جباية أراضي الخراج والمقاطعات التي فتحها مقاتلة البصرة والكوفة والتي كانت تابعة في إدارتها إلى مدينتي البصرة والكوفة. فأما البصرة فقد فتحت مقاطعاتها تدريجيًا فكور دجلة فتحت بين سنة (15-17هـ / 636-638م)، والأهواز بين سنة (17-19هـ / 638-640م)، وأصفهان (22هـ / 642م)، وفارس (25-28هـ / 645 - 648م) ، وكرمان (30هـ - 650م) ، وسجستان (31-34هـ / 651-654م)، ومكران (45هـ - 665م) وخراسان (30 - 32هـ / 650 - 652م).

في حين أن الضرائب لا تفرض على المقاطعات بل على المدن الرئيسية.(**عبد الشافي : 1998م ، ص 261**)

إن هذه المدن والمقاطعات بدأت ترفد إيرادات الدولة بأموال الخراج والضرائب والهدايا.

فكانت البصرة هي أحد مدن سواد العراق بل أهمها وكان خراج العراق قد بلغ حوالي مائة مليون سنويًا، في العصر الراشدي أشار ابن الفقيه إلى ذلك قائلا: وكان" خراج العراق أيام زياد بن أبيه مائة ألف ألف وخمسة وعشرين ألف ألف درهم وأيام عبيد الله بن زياد أكثر منه أيام زياد بن أبيه بعشرين ألف ألف. وكان في أيام ابن هبيرة مائة ألف ألف سوى طعام الجند وأرزاق الفعلة الذين يكونون في العسكر.... وذكر بعض كتاب الفرس: إن العراق كان يجبي في أيام أنوشروان ستمائة ألف ألف مثقال، وزعم أنه جبي في آخر أيام أبرويز تسعمائة ألف ألف مثقال وترك في أيدي الناس كلهم من جميع غلاتهم مائة ألف ألف (مائة مليون)، فهلك الناس حتى أن الجارية النفيسة كانت تباع بدرهم. وجبى بعض أمراء خراسان ثمانية وعشرين ألف ألف مثقال، وجبى الجنيد بن عبد الرحمن أرض الهند خمسة وعشرين ألف ألف مثقال، وكانت جباية البصرة خمسة وسبعين ألف ألف درهم، وأرض الكوفة خمسة وعشرين ألف ألف درهم (المقدسي : 1991، ص 133)

إن هذه الرواية تبين ما تم جبايته من قبل الولاة فلم يكن الخراج ثابتا فزادت على عهد ولاة ونقصت على عهد ولاة آخرين كانت جباية الأراضي عند الفتوح وتمصير البصرة والكوفة، أشبه بالوقتية فكل جباية حسب المكان والأرض التي تجبى منه فليس هناك شيء ثابت وقد تداخلت الأراضي العشرية مع الخراجية في البصرة والكوفة، وحدثت الخلافات الفقهية فيها ولقد أشارت الباحثة إلى هذه الخلافات في نظم ملكية الأراضي، وللمقارنة على ما كان يجبى من أراضي البصرة وما يدخل إليها من إيرادات مالية في عصر الراشدين وزمن الفتوحات والتوسع وفيما بعده.

فرض ولاة البصرة على بعض المناطق والمدن عند دخولهم إياها مصالحة، وصالح أهل نهر المرأة ، خالد بن الوليد. وذكر خليفة ابن خياط: "صالحه أهل نهر المرأة على اثني عشر ألف درهم" (خليفة : 1977، ص 118)

ويتبين لنا أن بعض المناطق قد تم فتحها صلحًا حيث تقدر جبايتها تقديرا وفق ما تصالحوا عليه بين أهل الأرض والفاتحين.

أما بعض الأراضي فقد فتحت عنوة، مثل: كور تابعة للأهواز، وهذه الكور كانت تتبع إداريًا وماليا للبصرة وسوف يأتي التفصيل عنها لاحقا، وقيل أن هذه الكور فتحت صلحا وقيل عنوة. ويبين ذلك خليفة بقوله: فأتى الأهواز فافتتحها يقال عنوة ويقال صلحا فوظف عليها عمر عشرة آلاف ألف وأربع مائة ألف (خليفة : 1977، ص 126)

إن هذه الرواية تبين أن افتتاح الأهواز إن كان قد تم صلحًا أو عنوة فقد كان الرقم هو عشرة ملايين وأربعمائة ألف درهم، أما أهل سرق وأهل راهمرز فقد صالحوه على عينات أو أشياء عينية وبلغت قيمة هذه الأشياء هي ثمانمائة ألف درهم.

وذكر البلاذري أيضا قالوا وهادن أبو موسى أهل رامهرمز ، ثم انقضت هدنتهم فوجه إليهم أبا مريم الحنفي فصالحهم على ثمانمائة ألف درهم... قال : حدثني يعقوب عن أبي عاصم الرامهرمزي، وكان قد بلغ المائة أو قاربها، قال: صالح أبو موسى أهل رامهرمز على ثمانمائة ألف أو تسعمائة ألف، ثم أنهم غدروا ففتحت بعد عنوة ففتحها أبو موسى في آخر أيامه (البلاذري : 1992، ص 368)

إن ما ذكر من روايات لكور الأهواز وغيرها التي فتحت صلحا أو تلك التي فتحت عنوة تبين لنا كيف آلت إليه أرض البصرة وكيف تمت الجباية إن كانت صلحا بعد مهادنة أو عنوة بعد غدر، إن مثل هذه الارقام والروايات تعطي دلالة واضحة على أن أمور الجباية في هذه الحالات كانت أقرب ما يكون إلى الاجتهادات الشخصية أو الآنية، بمعنى أن التقدير كان يترك للوالي حسب حالة كل أرض.

ومن ضمن واردات جباية الأموال على سبيل المثال لا الحصر كانت الغنائم والصوافي جميعها توضع تحت اسم خراج العراق.

الغنائم :

إن الفتوحات وما ترتب عليها من غنائم للمقاتلين في البصرة والكوفة وأرض السواد عامة جعل من هذه الغنائم أن تكون موردا ماليا يرفد بيت المال والمقاتلة على حد سواء، وفي هذا الصدد يذكر الطبري: "قمات الحكم بن عمرو وكان قد غزا طخارستان ، فغنم غنائم كثيرة، واستخلف أنس بن أبي أناس بن زنيم وكان كتب إلى زياد: أني قد رضيته لله وللمسلمين ولك، فقال زياد: اللَّهُم إني لا أرضاء لدينك ولا لِلْمُسْلِمِينَ ولا لي وكتب زياد بن أبيه إلى خليد بن عبد الله الحنفي بولاية خراسان، ثُم بعث الربيع بن زياد

الحارثي إلى خُراسان في خمسين ألفا، مِنَ الْبَصْرَة خمسة وعشرين ألفا، ومن الكوفة خمسة وعشرين ألفا، على أهل البصرة الربيع، وعلى أهل الْكُوفَة عَبْدِ اللَّهِ ابن أبي عقيل، وعلى الجماعة الربيع بن زياد (الطبري : د . ت ، ص 226)

إن هذه الرواية تشير إلى نوع من الواردات ويتمثل بالغنائم وكانت كثيرة، فأرسل الحكم بن عمرو إلى زياد بن أبيه يستخلف أنس بن أبي أناس فرفض زياد، فجعل ولاية خراسان إلى خليد بن عبدالله الحنفي، وأرسل من البصرة خمسة وعشرين ألفا ومن الكوفة مثلها، وعلى الجماعة البالغ عددهم خمسين ألفا من البصرة والكوفة الربيع بن زياد.

الصوافي:

تعد الصوافي من الواردات المالية لمدينتي البصرة والكوفة في العهد الأموي، فقد قام معاوية بن أبي سفيان بعدة تغييرات هامة في النظام المالي، فقد فصل الصوافي عن بيت المال وجعلها للخليفة، وكانت صوافي العراق أراضي واسعة وكبيرة تدر دخلا يبلغ سبعة ملايين درهم سنويا، وذكر أبو يوسف: "وكان خراج ما استصفاه عمر الله سبعة آلاف ألف (أبو يوسف : 2009، ص 69)

ولكنها لم تستمر على هذا الحال فبعد أن استقرت أمور البصرة وتغيرت أحوال هذه الأراضي من المهادنة والصلح والنظر فيمن فتحت صلحا أو عنوة إلى تغيير جنسها للخراج، قام أبو موسى الأشعري استقرى (قرأ وضع) كور دجلة فوجد أهلها مذعنين بالطاعة، فأمر بمساحتها ووضع الخراج على قدر احتمالها (البلاذري : 1992، ص 370)

وبعد ذلك قام التنظيم الإسلامي بعد استقرار الفتوح على أساس تقدير الضرائب تبعا لموقفها من الفتوح، فأراضي الأقاليم المفتوحة عنوة يوضع عليها الخراج، حيث كان لمشكلة ملكية الأراضي، وامتلاك العرب الأراضي اقطاعا أو شراء أن أدى إلى نشوب كثير من الخلافات (جواد : 1969، ص 314)

وحين جاء عمر بن عبد العزيز أوقف بيع الأراضي الخراجية وإقطاعها، إلا أنه قد توارثها الناس وباع من باع واشترى من اشترى، وكتب رسالته بعام المائة أما مقدار جباية هذه الأراضي، فإن واردات البصرة والكوفة منذ تمصيرهما في فترة صدر الإسلام والعصر الذي يليها لم تكن هناك استقلالية تامة في الواردات تسمى باسم هذا المصر دون الآخر إلا ما ندر، وفي حالات خاصة، وإنما كانت تسمى بواردات العراق أو جباية العراق، وذلك نتيجة للتوسع في الفتوحات الإسلامية حتى فترة ما بعد عصر الراشدين واعتماد هذه الامصار على ما يجبى من أراضي الفتوح، فقد تكون جباية خاصة لمدينة البصرة قريبة من الكوفة والعكس صحيح، وكان هناك ديوان للخراج لضبط هذه الواردات والحسابات التي تدخل إلى هذه المدن وقد ولي عليها ولاة مختصون بجمع الخراج، وأول نشأتها كانت في العصر الراشدي وظلت بعد الفتح الإسلامي على ما كانت عليه؛ لأن ديوان خراج البصرة والكوفة أو خراج العراق كان آنذاك مكتوب باللغة الفارسية (الزيات : 1968، ص 20)

كان من أبرز إصلاحات عمر بن عبد العزيز في العراق إعادة تنظيم نظام الخراج، وهو الضريبة المفروضة على الأراضي الزراعية. فقد لاحظ أن بعض الولاة كانوا يفرضون الضرائب بصورة لا تتوافق مع القواعد الشرعية أو مع القدرة الإنتاجية للأرض.

لذلك أصدر الخليفة تعليمات تقضي بالالتزام بالقواعد العادلة في جباية الخراج، بحيث يُراعى حال الأرض وإنتاجها الحقيقي. كما شدد على عدم تحميل السكان أعباء مالية إضافية لا يقرها النظام المالي الإسلامي.

وفي هذا السياق أمر الولاة في البصرة والكوفة بمراجعة سجلات الخراج وإعادة تقييم الضرائب المفروضة على الأراضي الزراعية، بما يضمن تحقيق العدالة بين السكان وعدم إرهاقهم بالجبايات. وقد أدى ذلك إلى تخفيف الضغط المالي على كثير من المزارعين، الأمر الذي ساعد على تنشيط النشاط الزراعي في تلك المناطق. (طقوش : د . ت ،ص 198)

من الإصلاحات المهمة التي قام بها عمر بن عبد العزيز معالجة مسألة الجزية المفروضة على غير المسلمين، وكذلك موقف الدولة من الموالي الذين اعتنقوا الإسلام. فقد كان بعض الولاة يستمرون في فرض الجزية على من أسلم من أهل البلاد المفتوحة حفاظًا على الموارد المالية للدولة.

إلا أن عمر بن عبد العزيز رفض هذا الأسلوب، وأصدر أوامره بإسقاط الجزية عن كل من يعتنق الإسلام، لأن الجزية لا تُفرض إلا على غير المسلمين. وقد أدى هذا القرار إلى زيادة عدد الداخلين في الإسلام في العراق، خاصة في البصرة والكوفة.

وعلى الرغم من أن هذا القرار أدى في البداية إلى انخفاض بعض الإيرادات المالية، فإن الخليفة رأى أن تحقيق العدالة والالتزام بالمبادئ الشرعية أهم من الحفاظ على موارد مالية غير مشروعة. كما عُوِّض هذا النقص لاحقًا من خلال تنشيط الاقتصاد وزيادة الإنتاج الزراعي والتجاري. (جرجي زيدان : 1993 ، ص 226)

عمل عمر بن عبد العزيز على إعادة تنظيم بيت المال في مختلف الأقاليم، بما في ذلك البصرة والكوفة. فقد شدد على ضرورة تسجيل الإيرادات والنفقات بدقة، ومنع أي تصرف في الأموال العامة دون سند إداري واضح.

كما حرص على اختيار ولاة وموظفين يتمتعون بالنزاهة والكفاءة لإدارة الشؤون المالية في العراق. وكان يوجه إليهم رسائل يؤكد فيها أهمية العدل في إدارة الأموال العامة وعدم استغلال المناصب لتحقيق مكاسب شخصية.

وقد أسهمت هذه الإجراءات في تقليل مظاهر الفساد المالي وتعزيز ثقة السكان في الإدارة المالية للدولة. كما ساعدت في تحقيق قدر أكبر من الانضباط في إدارة الموارد المالية في البصرة والكوفة (حسين مؤنس: 1998، 291)

وأوكل أمر خراج العراق إلى أحد موالي معاوية، حتى تكون هناك له عليه سلطة تامة، ويضمن أن لا تهدر من أموال جباية الخراج شيء، ففصل ولاية الخراج عن الولاية العامة، وعزل المغيرة بن شعبة عام (42هـ/ 662م)، فأصبحت ولاية الخراج لعبد الله بن دراج. وذكر ابن عساكر عبد الله بن دراج مولى معاوية بن أبي سفيان ولاه معاوية على خراج الكوفة (ابن عساكر: د.ت، ص 35)

واستعمل الدهاقين في جباية الخراج لما لهم خبرة في جمع الأموال والتجارة والقدرة على جباية الأموال بدون ضياع حق.

وذكر ابن مسكويه حول هذا الموضوع قائلا: "وأما استعمال الدهاقين... وبلغ خراج العراق مائة ألف ألف (100.000.000) بضمانها ، فخيرني معاوية بين الضمان والعزل، فكرهت العزل فكنت إذا استعملت العرب كسروا الخراج، وإن أقدمت على الرجل منهم أوغرت صدور عشيرته، وإن أغرمت قومه أضررت بهم، وإن تركته ضاع لي حق وأنا أعرف مكانه، فوجدت الدهاقين أعرف بالجباية، وأوفى بالأمانة، وأهون على المطالبة منكم، مع أني قد جعلتكم أمناء عليهم (ابن مسكويه : 2003، ص 99)

إن عمل الدهاقين سهل هذه المهمة فكان الولاة يعانون من استعمال العرب حيث واجهتهم مشاكل كثيرة منها : كسر الخراج أي نقص قيمته وذلك لعدة أسباب منها قلة الخبرة في حساب هكذا أمور تردف إيرادات الدولة بحسابات مالية عالية جدا، إضافة أنه

حصلت بعض المشاكل بين الجابي العربي وقومه فكان إن فرض الجباية على قومه أضر بهم وإن تركهم ضاع الحق، فكان خيار الدهاقين مناسب جدا للجباية.

وعلى الأغلب كان مقدار جباية الأراضي والإيرادات المالية بشكل عام، باسم جباية العراق إلا في حالات نادرة ومحددة إذ تكون فيها الأرقام مفصلة والسنوات أيضا، وذكر ابن الفقيه وكان خراج العراق أيام زياد بن أبيه مائة ألف ألف وخمسة وعشرين ألف ألف درهم، وأيام عبيد الله بن زياد بن أبيه أكثر منه أيام زياد بن أبيه بعشرين ألف ألف، وكان في أيام ابن هبيرة مائة ألف ألف سوى طعام الجند وأرزاق الفعلة الذين يكونون في العسكر ... وذكر بعض كتاب الفرس: إن العراق كان يجبى في أيام أنوشروان ستمائة ألف ألف مثقال، وزعم أنه جبى في آخر أيام أبرويز تسعمائة ألف ألف مثقال وترك في أيدي الناس كلهم من جميع غلاتهم مائة ألف ألف، فهلك الناس حتى أن الجارية النفيسة كانت تباع بدرهم وجبى بعض أمراء خراسان ثمانية وعشرين ألف ألف متقال وجبي الجنيد بن عبد الرحمن أرض الهند خمسة وعشرين ألف ألف متقال، وكانت جباية البصرة خمسة وسبعين ألف ألف درهم (ابن الفقيه : 1996، ص 391)

ونرى تزايد وتناقص الجباية من قبل الإسلام وبعد التمصير لكن الفارق أنه كانت تجمع الجباية في الكور سابقا بالمثقال ومن ثم أصبحت الجباية بالدرهم، ولعل من هنا بدأت ملامح تعريب النقود تتضح بغض النظر عن ما ذكر من روايات على نقش العملات النقدية.

ونلاحظ أيضا تقارب الأرقام بين ما سمي بجباية العراق أو عندما فصلها بجباية البصرة والكوفة، فالأرقام قريبة من مائة ألف وهي لا تشمل البصرة وحدها أو الكوفة وحدها وإنما تشمل البصرة وما يتبعها إداريًا وماليا من كور ومساقي المياه، وكذلك الحال ينطبق على مدينة الكوفة.

كذلك كان الحال الذي حصل في عهد عمر بن عبد العزيز، حيث يذكر ابن الفقيه جباية العراق في هذه الفترة قائلا: وجباه" عمر بن عبد العزيز مائة ألف ألف وأربعة وعشرين ألف ألف درهم، وجباه الحجاج بن يوسف ثمانية عشر ألف ألف فقط وأسلف الفلاحين للعمارة ألفي ألف فحصل له ستة عشر ألف ألف وأرض الكوفة خمسة وعشرين ألف ألف درهم (ابن الفقيه: 1996، ص 392)

غلات السواد بالبصرة والكوفة:

ذكرت روايات عدة جباية العراق أو جباية السواد أو السوادين والعراقين، ويلاحظ من تلك الروايات أن المقصود بأرض السواد مدينتي البصرة والكوفة، لذلك لم تقف الباحثة على روايات عديدة ومفصلة تحدد واردات البصرة والكوفة بأسماء المدن تحديدًا، فتارة يذكر المؤرخون سوادا وتارة عراقا وسوادين والبصرة والكوفة، ولربما لأن اسم الإقليم كان له تأثير أكبر من اسم المدينة أو المصر، إضافة إلى ذلك بدائية العملية الاقتصادية برمتها على الرغم من كثير الإيجابيات التي ذكرت سابقا وسوف يتم ذكرها لاحقا.

ذكر الماوردي شرحا مفصلا في أرض السواد والعراق وموقع البصرة والكوفة منه قائلا: القسموا خضرة العراق سوادًا، وسمي عراقا ؛ لإستواء أرضه حين خلت من جبال تعلو وأودية تنخفض، والعراق في كلام العرب هو الإستواء، قال الشاعر :

سقتم إلى الحق لهم وساقوا سياق من ليس له عراق

أي ليس له إستواء؛ وحد السواد طولاً من حديثة الموصل (**الماوردي : 2008، ص 259**) إلى عبادان، وعرضه من عذيب (الحموي : 2008 ، ص 92) إلى حلوان، يكون طوله مائة وستين فرسخا، وعرضه ثمانين فرسخا، فأما العراق فهو في العرض مستوعب لأرض السواد عرفا، ويقصر عن طوله في العرف؛ لأن أوله من شرقي دجلة العلث، وفي غربيها حربي، ثم يمتد إلى آخر أعمال البصرة من جزيرة عبادان، فيكون طوله مائة وخمسة وعشرين فرسخًا يقصر عن السواد بخمسة وثلاثين فرسخا، وعرضه مع تبعه في العرف ثمانون فرسخاً كالسواد (الدينوري بن قتيبة : 1992 ، ص 556)

إن هذه الرواية تحدد أطوال السواد وحدوده طولا وعرضا، وقد ذكرت حدود البصرة والكوفة حتى وإن لم يسمها فهي من عذيب القادسية إلى حلوان، وسوف تذكر الباحث روايات أخرى تثبت أن المقصود بالسواد هو البصرة والكوفة. سواد البصرة وما يتبعه وسواد الكوفة وما يتبعه وحدود الأراضي الإدارية التابعة للسوادين "السواد هما سوادان سواد البصرة، وسواد الكوفة. فأما سواد البصرة: فالأهواز ودست ،ميسان ،وفارس وأما سواد الكوفة: فكسكر إلى الزاب وحلوان إلى القادسية (أبو يوسف : 2009، ص 59) أما العراقيين فقد ذكر الجاحظ كان يوسف بن عمر الثقفي يتولى العراقيين لهشام بن عبد الملك (الجاحظ : 2003، ص 79) ، إن خراج كل من البصرة والكوفة منفصلين عن بعضهما البعض، يظهر لنا أن هذا التمييز قائم على أسس إدارية لها علاقة بموارد الجبايات، إذ كان لكل من البصرة والكوفة إدارة خاصة، وموارد من مناطق محددة تذهب إلى المقاتلين في المصر ، علما أن إدارة العراق كله كانت في أغلب الأوقات يتولاها وال واحد، حيث يجمع في ولايته إدارة البصرة والكوفة معا، فيقال في كل منهما أنه والي العراقين.

وذكر أبو يوسف كذلك: "وأما أرض البصرة وخراسان فإنهما عندي بمنزلة السواد (أبو يوسف : 2009، ص 60)

ومسحت أرض السواد الأراضي المحيطة والتي ترتوي من الفرات ودجلة، فسقى الفرات يمثل الجانب الغربي من السواد وتشمل الكوفة والأراضي المحيطة بها، أما دجلة فتمثل الجانب الشرقي من أرض السواد وتشمل البصرة والأراضي المحيطة بها، علما أن الفرات يدخل إلى البصرة ويلتقي بنهر دجلة في البصرة مكونا ما يعرف بشط العرب، ويشير ابن خرداذبة إلى هذا الموضوع بقوله: وأمر عمر بن الخطاب الله بمسح السواد وطوله من العلث وحربي إلى عبادان وهو مائة وخمسة وعشرون فرسخًا وعرضه من عقبة حلوان إلى العذيب وهو ثمانون فرسخًا فبلغ جربانة ستة وثلثين ألف ألف جريب فوضع على كل جريب الحنطة (القمح) أربعة دراهم وعلى جريب الشعير درهمين وعلى جريب النخل ثمانية دراهم وعلى جريب الكرم ستة دراهم وعلى جريب الرطاب سنة دراهم وختم على خمس مائة ألف إنسان للجزية على الطبقات فجبى عمر بن الخطاب السواد مائة ألف ألف وثمانية وعشرين ألف ألف درهم (ابن خرداذبة : 1989، ص 14)

تبين هذه الرواية طول السواد وعرضه، وتظهر لنا كذلك الأراضي التي تقع ضمن مدينتي البصرة والكوفة إداريًا وماليا، وعلى ضوء هذا المسح والمساحة تم وضع الطريقة التي تتم فيها الجباية، وهي كم درهم على الجريب إن كان حنطة أو شعير أو نخيل، ويظهر لنا أيضا أنه كانت هناك جزية تفرض على الرؤوس أي الأشخاص، وقد بلغ عددهم نحو 500 ألف إنسان.

هدايا النيروز :

تعتبر هدايا النيروز من الواردات المالية التي يطالب بها الحاكم، أما أصل نيروز فقد جرت العادة تقديم هدايا في عيد النوروز، وهذا المهرجان عادة قديمة كانت لدى الفرس، وقد ذكر القلقشندي في هذا الصدد قائلا: وأما عوام الفرس فكانت عادتهم فيه رفع النار في ليلته، ورش الماء في صبيحته؛ ويزعمون أن إيقاد النيران فيه لتحليل العفونات التي أبقاها الشتاء في الهواء.." (القلقشندي : 1992 ، ص 447) وذكر الريس فالمهرجان دخول الشتاء وفصل البرد، والنيروز إذن بدخول فصل الحر

ذكر النويري (ت: 733هـ – 1333م) قائلا فأما النيروز، فهو أعظم أعيادهم وأجلها. يقال إن أول من اتخذه جمشيد أحد ملوك الفرس الأول. ويقال فيه جمشاد... ومدته عندهم ستة أيام، أولها اليوم الأول من شهر أفريدون ماه، الذى هو أول شهور سنتهم. ويسمون اليوم السادس النوروز الكبير؛ لأن الأكاسرة كانوا يقضون في الأيام الخمسة حوائج الناس ثم ينتقلون إلى مجالس أنسهم مع خواصهم (النويري : 2003 ، ص 185)

هذه الروايات تبين لنا أصل عيد النيروز أو كما يطلق عليه في العراق عند الأكراد خاصة أعياد النوروز، ووجدت هذه الهدايا (النيروز) أثناء الفتوح في العصر الراشدي، وقد صالح الأحنف بن قيس أهل بلخ على أربعمائة ألف، ثم تطور الأمر إلى أن تكون هذه الهدايا هي جزء من الموارد المالية لمدينة البصرة والكوفة ومقاطعاتهما والكور التي ألحقت بهما إدارياً ومالياً.

وفيما بعد تطور الأمر فتحول من ركن الهدايا إلى أن يكون موردا ماليا يتم جمعه عن طريق العمال في الأقاليم، تحت اسم الذهب والفضة، فكانت هناك رغبة لمعاوية في زيادة الموارد حيث طلب من الحكم بن عمرو عامله على خراسان أن يقوم بجمع الذهب والفضة، ولكن عامله أبى أن يجيب إلى طلبه، وذكر ابن سعد أن زيادًا بعث الحكم بن عمرو على خراسان، ففتح الله عليهم، وأصابوا أموالا عظيمة، فكتب إليه زياد أما بعد: فإن أمير المؤمنين كتب إلى أن أصطفي له الصفراء والبيضاء، فلا تقسم بين الناس ذهبًا ولا فضة، فكتب : فاتقى الله لجعل الله له منهما مخرجا، والسلام عليك، قال: ثم قال للناس: «اعدوا على فيئكم، فاقسموه" (ابن سعد : 2001 ، ص 28)

إن هدايا النيروز كانت إحدى موارد الدولة بغض النظر عن كمية المبالغ والعينات التي كانت تجمع عن طريق هذا المورد، فلربما كانت عادةً أو وضع هذه المبالغ لردع الناس عن هذه العادات كونها مخالفة للشريعة الإسلامية عندما كانت تعامل كمعتقد ديني.

وكان لمعاوية كاتب يقال له عبد الرحمن بن الدراج، كان من مواليه، فقلده خراج العراق لما قلد المغيرة الحرب بها، وطالب أهل السواد بأن يهدوا إليه في النوروز، والمهرجان. ففعلوا ذلك قبلغ عشرة آلاف ألف درهم (ابن مسكويه : 2003، ص 22)هذا فيما يتعلق بما جرى في عهد معاوية بن أبي سفيان ولكن اختلف الأمر في عهد عمر بن عبد العزيز، والذي يعد عهد الاصلاحات المالية حيث رفعت هذه الرسوم، فكانت جزء من الإصلاح الذي طال مفاصل كثيرة في الدولة وأمصارها شرقا وغربا، ثم انتكست هذه الإصلاحات بعد سنة (101هـ/ 719م)، أي ما بعد وفاته وعادت الأمور إلى حالها في فترة ما قبل الإصلاح.

وأما أول من فرض الرسوم على الهدايا فقد ذكر القلقشندي رواية تشير إلى أن الحجاج هو أول من فرضها وليس معاوية بقوله: أن أول من رسم هدايا النيروز والمهرجان في الإسلام الحجاج بن يوسف الثقفي، ثم رفع ذلك عمر بن عبد العزيز (القلقشندي : 1992 ، ص 447) ويبدو أن مصادر الواردات المالية للبصرة والكوفة خاصة والعراق عامة من عام (40هـ –

132هـ / 660 – 750م)، كانت تسير على نفس خطى العصر الراشدي، فمنها مصادر الجباية والخراج والعشور وأراضي زراعية وأرض السواد وحتى هدايا النيروز، وجميع هذه المصادر لم تستحدث في هذه الفترة وإنما هي مصادر وطرق الجمع وجباية الأموال كانت موجودة أساسا ويلاحظ على واردات الأموال في البصرة والكوفة في هذه الفترة أنها مرت بعدة مراحل مرحلة فتوح المقاطعات والكور والأقاليم المجاورة لمدينتي البصرة والكوفة، فجباية الأموال لم تكن منظمة بقانون جباية معين وإنما نوعية الفتوح كانت تحدد هذه المبالغ إن كانت فتحت مهادنة وصلحا أو عنوة، ثم تطورت عملية جبي الأموال بعد الاستقرار والاستقراء لأمور المقاطعات والكور وتم تنظيم قانون لجباية هذه الأموال إن كانت خراجية أو عشرية تجارية أو حتى ما يفرض على رؤوس الأشخاص، وبعد استقراء ورواية كثير من الروايات التاريخية للواردات المالية في البصرة والكوفة في تلك الفترة، وجدت الباحثة أنه نادرا ما كان يجمع أو ترد رواية تحدد كمية الأموال التي جمعت من مدينة البصرة أو الكوفة منفردة، فكانت تجبى وتجمع وتورد هذه الأموال تحت اسم إقليم العراق أو السواد ثم من بعدها تعود إلى نفس هذه المقاطعات والمدن لكي تكون مصدر نفقات وعطاء لسكان أراضي السواد والمدن.

مفهوم الضرائب غير الشرعية في النظام المالي الإسلامي:

يقوم النظام المالي في الإسلام على موارد محددة نصّت عليها الشريعة، مثل الزكاة والخراج والجزية والعشور، وهي موارد تهدف إلى تحقيق العدالة المالية وتنظيم العلاقة الاقتصادية بين الدولة والمجتمع. أما الضرائب غير الشرعية فهي الأموال التي تُفرض على الناس دون سند شرعي أو دون أن تكون جزءًا من الموارد المالية المقررة في النظام الإسلامي.

وقد ظهرت هذه الضرائب في بعض فترات العصر الأموي نتيجة الضغوط المالية التي واجهتها الدولة، خاصة مع توسعها العسكري وتزايد نفقات الإدارة. وفي بعض الأحيان لجأ بعض الولاة أو العمال في الأقاليم إلى فرض رسوم إضافية على الأسواق أو الأراضي الزراعية لزيادة الإيرادات. (الحسيني : 2017م ، ص 126)

وقد كان لهذه الممارسات أثر سلبي في نظرة السكان إلى الإدارة المالية، إذ اعتبرها كثير من الفقهاء والمؤرخين خروجًا عن القواعد التي ينبغي أن يقوم عليها بيت المال في الدولة الإسلامية.

شهد العراق خلال العصر الأموي بعض التجاوزات في مجال الجباية المالية، خاصة في البصرة والكوفة، نظرًا لأهميتهما الاقتصادية وكثرة النشاط التجاري والزراعي فيهما. فقد فرض بعض العمال رسومًا إضافية على التجار في الأسواق، أو زيادات على الخراج المفروض على الأراضي الزراعية.

كما أشارت بعض المصادر التاريخية إلى فرض رسوم على بعض الأنشطة التجارية أو على نقل البضائع بين المناطق، وهي رسوم لم تكن جزءًا من النظام المالي الأصلي. وقد عُرفت هذه الرسوم في بعض المصادر باسم المكوس، وهي جبايات تُفرض على السلع أو على المعاملات التجارية.

وقد أدت هذه السياسات إلى زيادة الأعباء المالية على السكان، خاصة المزارعين والتجار، مما انعكس على النشاط الاقتصادي في تلك المناطق. كما ساهمت هذه الممارسات في زيادة التوتر بين سكان العراق والسلطة الأموية في بعض الفترات (حسن إبراهيم حسن : 1985، 341)

على الرغم من أن فرض هذه الضرائب كان يهدف إلى زيادة موارد بيت المال، فإن آثارها لم تكن دائمًا إيجابية على المدى الطويل. فقد أدت زيادة الأعباء المالية على السكان إلى تراجع بعض الأنشطة الاقتصادية، خاصة في المجال الزراعي والتجاري.

كما أن فرض الضرائب غير الشرعية أدى إلى انتشار التهرب من دفع الضرائب، إذ حاول بعض السكان تجنب الجباية المرتفعة أو إخفاء جزء من إنتاجهم أو تجارتهم. وهذا بدوره أدى إلى ضعف كفاءة النظام المالي وانخفاض فعالية تحصيل الموارد.

ومن ناحية أخرى، أثارت هذه السياسات انتقادات من قبل العلماء والفقهاء الذين أكدوا أن بيت المال يجب أن يعتمد على الموارد الشرعية التي حددها النظام المالي الإسلامي. ولذلك كان كثير من الإصلاحيين في العصر الأموي يدعون إلى إلغاء هذه الضرائب والعودة إلى القواعد المالية الأصلية (طقوش : د . ت ، ص 173)

مع تزايد الانتقادات لهذه الممارسات، ظهرت بعض المحاولات لإصلاح النظام المالي في العراق. ومن أبرز هذه المحاولات الإصلاحات التي قام بها الخليفة عمر بن عبد العزيز، الذي سعى إلى إزالة كثير من المظالم المالية التي ظهرت في بعض الأقاليم.

فقد أمر بإلغاء عدد من الجبايات غير المشروعة، وشدد على ضرورة الالتزام بالموارد المالية التي يقرها النظام الإسلامي. كما وجّه الولاة إلى مراعاة العدل في جباية الأموال وعدم إرهاق السكان بالضرائب.

وقد ساعدت هذه الإجراءات في تحسين الأوضاع المالية في بعض المناطق، كما أعادت قدرًا من الثقة بين السكان والإدارة المالية للدولة. ومع ذلك فإن تأثير هذه الإصلاحات كان محدودًا بسبب قصر مدة خلافته (جرجي زيدان : 1993 ، ص 214)

ثانيا : النفقات المالية

أسهمت الموارد المالية التي تم تحصيلها من مدينتي البصرة والكوفة أو أراضي السواد في تحول هذه الموارد المالية إلى نفقات مالية كبيرة، حيث كانت النفقات تمثل واجبًا أخلاقيا وشرعيًا من الدولة تجاه سكان هاتين المدينتين والكور المحيطة بها، وتتنوع النفقات وفقا للحاجات المطلوبة والإيرادات التي تُخصص لكل منها، وفي قوانين الأنظمة المالية للدولة الإسلامية التي كانت مبتدأة بطبيعة حالها، إلا أنها كانت تستسقي هذه الأنظمة والقوانين وفق قوانين الشريعة الإسلامية وما وجد قبلهم في عصر الخلفاء الراشدين، فتنقسم النفقات إلى نفقات حدّدت لها الشريعة الإسلامية موارد مخصصة ونفقات على المصالح العامة للدولة، ووضعت لهذه النفقات أحكام يتم العمل ضمنها لتنظيم عملية الإنفاق في الدولة. حيث كانت نفقات الجيش والجند كبيرة قياسا بغيرها، كون طبيعة المدن لا زالت تغلب عليها الصبغة العسكرية رغم التمصير، إضافة إلى رواتب الموظفين والإداريين فنفقاتهم تختلف عن نفقات المقاتلين (حسين مؤنس : 2008 ، ص 289) وفي ما يلي توضيح أهم جيات النفقة المالية في البصرة والكوفة:

العطاء والرزق

كانت هناك نفقات كبيرة تصرف للمقاتلين وعلى تجهيز الحملات في البصرة والكوفة وكانت هذه النفقات تسدّ ما يحصلون عليه في المعارك والفتوحات من الغنائم، والتي يوزع أربعة أخماسها على المقاتلين بالتساوي، بحيث يصيب الراجل سهم والفارس سهمان، أما الخمس الباقي من الغنيمة فيصل بيت المال على إعداد الحملات في المستقبل أو يرسل للمدينة، ولما كان المقاتلين يحتاجون إلى ما يديم ودهم وما يشترون به من أشياء لسد متطلبات الحملات العسكرية ، فقد حرصت الدولة الإسلامية، ومنذ زمن الرسول على توفير احتياجات الجنود، عبر تسليم المقاتل مبلغا من المال سنويًا يسمى (العطاء)، إضافة الى تجهيزات غذائية تسمى (الرزق)،

إن أول من وضع حجر الأساس لهذا المصرف في النظام المالي هو الرسول ، حيث كان يعطي العطاء ويوزع على المسلمين، وقد تحدث ابن الأثير عن ذلك قائلا: عن عوف بن مالك : قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتاه الفيء قسمه في يومه، فأعطى الأهل حظين، وأعطى العزب حظا. وزاد في رواية: فدعينا، وكنت أدعى قبل عمار، فدعيت فأعطاني حظين، وكان لي أهل، ثم دعي بعدي عمار بن ياسر، فأعطي حظا واحدا (ابن الأثير : 1969، ص 712)

يتبين لنا أن رسول الله ﷺ وزع العطاء ونظمه حسب العازبين والمتزوجين، فللعازب سهم وللمتزوج سيمان، إلا أن مساهمة العطاء تطورت من مساهمات فردية إلى وجود مؤسسة إدارية تقوم بأعباء العطاء، وقد كان ذلك أحد أبرز الدوافع التي ساهمت في خلق إدارة مالية تعمل على تنظيم عائدات الخلافة، وتوزيعها وفق جداول ثابتة على نحو تخرج معه هذه المؤسسة من دائرتها الضيقة في الإطار العام الشامل، وذلك في ما يعرف باسم (ديوان العطاء)، وأول من أنشأ ديوان العطاء عمر بن الخطاب ، وقد ذكر الطبري: قرض" عمر" للمسلمين الفروض، ودون الدواوين وأعطى العطايا على السابقة (الطبري : 2003 ، ص 613)

ويقصد بالسابقة على الإسلام ممن دخلوا الإسلام أولا وليس على الأحساب والأنساب، غير أن لم يبقى هذا الشرط على ما هو عليه في العهد الأموي، فبدأ توزيع العطاء على القبائل.

كان العطاء في عهد زياد بن أبيه يوزع سنويًا، فذكر البلاذري قال: ما بلغ الناس عاشوراء قط في أيام زياد بن أبيه إلا وطائفة يأخذون العطاء، ولا رأينا الهلال إلا مضينا إلى دار الرزق فأخذنا الأرزاق لعيالاتنا (البلاذري : 1996، ص 219)

وتظهر رواية البلاذري أن الناس كانوا يأخذون العطاء والأرزاق من دار الرزق، غير أن دفع العطاء لم يكن ميسوزا دائمًا، وخاصة إذا لم يصل الخراج في وقته المعين، ولما آلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان وولي زياد بن أبيه أمر الكوفة والبصرة أجرى تنظيمات واسعة، منها: أن الكوفة جعلت أرباعًا بعد أن كانت أسباعا وهي أصبحت فيها أربع رؤساء قبائل بعد أن كانت سبعة وتحت كل ربع أو اسم توجد ثلاث إلى أربع قبائل، وثبت التنظيم الاداري للقبائل وجعل لكل قبيلة عريف، (والراجح أن كل قبيلة أصبحت تضم ألف مقاتل، ودققت السجلات على هذه الأساس، واهتم زياد بن أبيه بضبط أحوال الريف والجباية، فاستقرت موارد الجبايات مما يسر تنظيم العطاء والرزق، وفي زمنه تم بناء دار الرزق في الكوفة والبصرة وثبت مقدار الرزق) (العلي : 1972، ص 192) وأمر الخليفة الأموي معاوية لأهل الكوفة زيادة في العطاء وقدره عشرة دنانير، وذكر البلاذزي حول ذلك: واستعمل معاوية النعمان بن بشير على الكوفة فكتب إليه معاوية يأمره أن يلحق لأهل الكوفة في أعطياتهم زيادة عشرة دنانير (البلاذري : 1996، ص 14)، وكانت هذه الزيادة أو مكرمة العطاء مؤقتة لأم ينفذ بعضها ويرد بعضها، وأهتم عمر بن عبد العزيز بأمر العطاء، وذكر الأصبهاني وزاد" الناس في عطاياهم عشرة عشرة العرب والموالي (الأصبهاني : 1989 ، ص331)، وكان رسول الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز يأتي إلى البصرة فإذا سمع به تلقاه الناس فليس يقدم إلا بزيادة في عطاء أو قسم أو خير يأمر به أو شر ينهى عنه (ابن عبد الحكم : 1994، ص 63) والراجح ان هذا الأمر كان ينطبق كذلك إلى الكوفة (العلي : 1972 ، ص 198)

إن ما ذكر من العطاء فقد أصبح لأن يكون بمثابة التكافل والضمان الاجتماعي، وليس بغريب على مؤسسات الدولة الإسلامية أن تقوم بمثل هذا العمل من تكافل وضمان اجتماعي الأفراد المجتمع، فالإسلام دين التكافل والتأصر بين المسلمين فكانت تدخل مصارف الزكاة ونحوها في هذا النوع من النفقات، حيث كان في إقليم العراق والذي يشمل البصرة والكوفة، فقراء هذه المدن والإقليم كانوا يحملون بطاقات محدد لهم فيها الكمية المخصصة لكل فرد من المعونات العينية (نجدة : 1980 ، ص 335) ، وكانت هذه خلال الفترة من عام (45-53هـ / 673 - 673م)، ثم أصبحت في عهد عمر بن عبد العزيز (99-100هـ / 717 -718م) ، مزيجا من العطاء والرزق نقدي وعيني، ومن الأمثلة على المعونات النقدية قضاء دين من أدان في غير سفه، فقد ذكر الماوردي حول ذلك قائلا: وهو أن يكون قد أدان في حق فكرجل أدان في جوائح أصابته أو نفقات لزمته أو معاملات أضرت أو زكوات وجبت وحج أدي وفرض قضي إلى ما جرى مجرى ذلك من واجبات (الماوردي : 1999، ص 508)، فالعطاء يجب في هذه الحالات إذا كان دين في حق، أو أصابته جائحة أو أي معاملة مالية أو تعرض لها من غير قصد الإساءة، فيعطى من هذه النفقات وتزويج الرجل الذي ليس له مال وله رغبة في الزواج وينطبق على البصرة والكوفة من عطاء ما ينطبق على باقي الولايات والأقاليم والمدن، وذهب العطاء لأبعد من ذلك ليشمل الأطفال لمن هم دون السابعة عشر فيحصلون على مبلغ مائة درهم في السنة تدفع لهم عند الفطام، ونرى أن العطاء ارتقى لأن يكون نظام مالي تكافلي فيه ضماناً اجتماعيًا مسؤول عن جميع الأفراد، فكان العطاء جزءًا مهما من الاصلاحات والمبادرات التي قام بها الولاة في العراق، والبصرة والكوفة كجزء من هذه المبادرة والاصلاح.

رواتب الموظفين:

اشتمل إقليم العراق عامة والبصرة والكوفة خاصة، على عدد كبير من العمال والموظفين كانت تصرف لهم رواتب ونفقات مالية تختلف عن عطاء المقاتلين ورواتب الجند، فرواتب الولاة والعمال والقضاة وموظفو الدواوين ورؤساء الكتاب كلها تندرج تحت طائلة النفقات المالية للدولة، وذكر المبرد عن ذلك في قوله: "وبلغ زيادا" عن رجل يكنى أبا الخير .. فولاه جند يسابور . وما يليها، ورزقه أربعة آلاف درهم في كل شهر، وجعل عمالته في كل سنة مائة ألف (المبرد : 1980، ص 191)

أما موظفو الدواوين فأغلبهم كانوا من الأعاجم، ولابد أن عددهم قد ازداد بازدياد أهمية المدينة والمصر الإدارية([1]) (العلي : 1972 ، ص 144) ، حيث ازداد عدد العمال والموظفين في مدينة البصرة وهذه الزيادة بالتأكيد سوف تكون زيادة طردية مع حجم النفقات ورواتب الموظفين والعمال، وقد خاطب الخليفة الأموي معاوية أهل البصرة أن ديوان عمالكم كان تسعون ألفا والآن عددهم مائة وأربعون ألف عامل بين موظف وكاتب وعامل سوق وقد ذكر الطبري هذه الرواية قائلا: وما أحصى ديوان عمالكم إلا تسعين ألفا، ولقد أحصي اليوم مائة وأربعين ألفاً (الجهشياري : 1988، ص 21)

إن طبيعة أي عمل قائم على تقاضي أجور مالية لقاء تقديم خدماتهم إن كانوا كتابا أو عمالاً أو رؤساء دواوين أو قضاة، لكن تتفاوت نسب ومعدل رواتبهم من عمل إلى آخر، ويذكر الجهشياري سبب إقامة ديوان الخاتم قائلا: "وكان معاوية أول من أتخذ ديوان الخاتم، وكان سبب ذلك: أنه كتب لعمرو بن الزبير بمئة ألف درهم الى زياد، وهو عامله على العراق، ففض عمرو الكتاب

وجعلها مئتي ألف درهم، فلما رفع زياد بن أبيه ،حسابه، قال معاوية: ما كتبت له إلا بمئة ألف درهم، وكتب الى زياد بن أبيه بذلك، وأمره أن يأخذ المئة الألف منه، فحبسه بها، فاتخذ معاوية ديوان الخاتم وقلده عبدالله بن محمد الحميري وكان قاضيا (الجهشياري : 1988، ص 23)

وهذه الرواية تبين حجم النفقات الخاصة بالرواتب التي يتقاضاها الكتاب والعمال في مدينتي البصرة والكوفة في العراق، وإن النفقات المالية لرواتب الموظفين بجميع مسمياتهم، تظهر لنا مدى اهتمام القائمين على إدارة الدولة والنظام المالي، بالجانب المدني في البصرة والكوفة بعيدا عن عطاء ورواتب المقاتلة والعساكر القاطنة في هذه المدن، فرغم كل الاحداث التي صاحبت الفتوحات والتمصير وما بعدها، وتبين لنا أن هذه الرواتب أظهرت لنا جانبا من التنظيم المالي والتمييز بين المدنيين والمقاتلة وأنه كانت هناك دواوين وكتاب يقومون بهذا العمل في تسمية وتوزيع هذه الرواتب لمستحقيها.

النفقات العسكرية والحربية :

تعد النفقات العسكرية أحد أهم أبواب ومصارف النفقات المالية في البصرة والكوفة، وتتضح معالم النفقات العسكرية في هذه الفترة بالاهتمام بالصناعات الحربية ونفقات الجند، فكانت رواتب للجند تختلف عن العطاء، وأصبحت الجندية عملا دائما، وأصبح الجند يرابطون في الثغور وكان لهم ديوان الجند، وقد حددت لهم، ولذويهم، رواتب ونفقات منظمة ، وقد ذكر الصولي أنه قال: كان بالبصرة والكوفة ديوانان لإعطاء الجند والمقاتلة والذرية (الجهشياري : 1988، ص 24) فكانت القاعدة المتبعة أن يخصص لكل ولاية ما كان يجبى من الأموال منها فتنفق في مصالحها ومصالح المقاتلة فيها، وكانت النفقات العسكرية والحربية قد نالت اهتمامًا كبيرًا من واجبات الدولة.

أما في البصرة فقد كانت أعداد الجنود تتراوح ما بين ستين ألفا إلى ثمانين ألفا وهذه الأعداد تحتاج إلى نفقات ورواتب واهتمام خاص من الدولة، فذكر الطبري أن معاوية قال: يا أهل البصرة انسيوني ولقد وليتكم وما أحصى ديوان مقاتلتكم إلا سبعين ألف مقاتل ولقد أحصى اليوم ديوان مقاتلتكم ثمانين ألفاً (الصولي : 1923 ، ص 192) ، ويلاحظ أن هناك تناسباً بين أعداد المقاتلة في الولاية ومبلغ جبايتها، وأن عدد من في الديوان من المقاتلين فيها يتأثر بالإمكانات المادية لها، وقد يفسر هذا نقل المقاتلة من البصرة والكوفة إلى خراسان (الطبري : 2003 ، ص 504) وديوان الجند ورواتبهم يختلف عن ديوان العطاء حتى وإن كانوا الجند مستفيدين من العطاء، كما ذكر سابقا، فديوان العطاء أوسع شمولاً من ديوان الجند، فقد شمل حتى الأطفال والنساء والذريات والقبائل أما ديوان الجند فقد انحصر بالجنود المقاتلين القادرين على حمل السلاح والذين يحرسون الثغور ويشاركون في الحملات.

أما النفقات الحربية فقد كانت نفقة الصناعات الحربية تتزايد إذ كان اهتمام الدولة بسلاح البحرية واضح، حتى وصل عدد المراكب البحرية في عهد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك ألف وثمانمائة سفينة كبيرة وإن لم تكن لمدينة البصرة والكوفة أعداد واضحة من هذه السفن، إلا أن الدور الذي كان يقوم به العراق بصورة عامة ومدينتي البصرة والكوفة خاصة من فتوحات ونسبة الجبايات، يجعلنا نتصور أن للبصرة والكوفة كانت لهما نسبة عالية من النفقات الحربية ومن هذه السفن والمراكب الحربية، كيف ولا وأن مدينة البصرة وموقعها الجغرافي بين المياه الإقليمية والتي تربط بين الأنهار والأبحار فقد كانت طرقها المائية ممرا للسفن الحربية باتجاه الشرق.

نفقات البنى التحتية والخدمات الاجتماعية :

تم الحديث عن هذه النفقات في الفصل الأول في جانب الاصلاح الزراعي والري والمحاصيل الزراعية، حيث شملت نفقات البنى التحتية مثل السدود والمسنيات وحفر الأنهار وكري الجداول وإقامة القناطر وبناء المساجد والأسواق، في كل من مدينتي البصرة والكوفة إذ يعتبر من نفقات البنى التحتية والخدمات الاجتماعية التي تقدمها الدولة، فخير مثال على ذلك البطائح التي عجز عن ردم فتقها كسرى قبل تمصير البصرة، حيث استصلحت هذه الأراضي وتحولت من أرض يكثر فيها السبخ والقصب والأجام إلى أرض زراعية إنتاجية، وكذلك هو حال فيما يتعلق بحفر الأنهار، وذكر البلاذري قالوا: ولما قدم عبد الله بن عمر بن عبد العزيز عاملا على العراق من قبل يزيد بن الوليد أتاه أهل البصرة فشكوا إليه ملوحة مائهم وحملوا إليه قارورتين في أحدهما ماء البصرة وفي الأخرى ماء من ماء البطيحة فرأى بينهما فصلا فقالوا: إنك إن حفرت لنا نهرا شربنا من هذا العذب. فكتب بذلك إلى يزيد فكتب إليه يزيد أن بلغت نفقة هذا النهر خراج العراق ما كان في أيدينا فأنفقه عليه، فحفر النهر الذي يعرف بنهر عمرو قال رجل ذات يوم في مجلس بن عمرو الله أنى أحسب نفقة هذا النهر تبلغ ثلاثمائة ألف أو أكثر فقال ابن عمر، لو بلغت خراج العراق لأنفقته عليه (البطاينة : 1980 ، ص 172)

والأمثلة كثيرة على ما تم بناءه من بنى تحتية وخدمات اجتماعية في مدينة البصرة والكوفة في هذه الفترة رغم كل التحديات التي واجهت الدولة في هذه الفترة.

حصة بيت المال :

كانت ترسل البصرة والكوفة ما يتبقى من أموال بعد صد نفقات المصر، وكانت الأموال المتبقية تختلف من عام إلى آخر تبعا لمقدار الدخل والمصروفات في البصرة والكوفة، لكن تحويل الأموال من قبل الولاة إلى بلاد الحجاز قبل سد حاجة المدينتين كان يسبب مشاكل وهذا ما حدث في البصرة مع الوالي زياد بن أبيه، حيث أراد تحويل الأموال قبل دفع عطاء المقاتلين، وذكر المقدسي عن ذلك قائلا: جبى العراق مائة ألف ألف درهم (مائة مليون درهم) وجعل يخطب الحجاز (البلاذري : 1996 ، ص 359)، فقد أجبر السكان دفع العطاء وسدّد نفقات البصرة ثم بعدها يحوّل الفائض من أموال الجباية.

ويروي البلاذري قائلا: أن زياداً كان يجبي من كور البصرة ستين ألف ألف فيعطي المقاتلة من ذلك ستة وثلاثين ألف ويعطي الذرية ستة عشر ألف ألف درهم (16 مليون) وينفق نفقات السلطان ألف ألف درهم، ويجعل من بيت المال للبوابق والنوائب ألفي ألف، ويجعل إلى معاوية ثلثي الأربعة آلاف ألف؛ لأن جباية الكوفة ثلثي جباية البصرة، وحمل عبيدالله بن زياد بن أبيه إلى معاوية ستة آلاف درهم فقال اللهم أرض عن ابن أخي (المقدسي : 1993، ص 20)

وهذه الرواية تظهر لنا حجم الأموال التي كانت تحمل كحصة لبيت المال في بلاد الحجاز على الرغم من اعتراض أهل العراق على ذلك، ولا تقتصر نفقات الأموال في البصرة والكوفة على ما ذكرناه من نقاط محددة وإنما كانت النفقات تصرف حسب حاجة كل مصر من الأمصار والكور والأقاليم التابعة لها، لكن يلاحظ على النفقات المالية في البصرة والكوفة أن العطاء ورواتب الجند والنفقات العسكرية والحربية قد نالت نصيبا كبيرًا من هذه الأموال، ولعل طابع المدينتين التي ارتبط تمصيرهما بالفتوحات الإسلامية

والحملات العسكرية جعل من سكان المدينتين وخاصة مدينة الكوفة، ذات طابع عسكري وأكثر العوائل التي تقطنها هم من عوائل الجنود المقاتلين، لذلك قد نالوا نصيبا وافرا من العطاء.

مقارنة بين الموارد المالية في البصرة والكوفة:

الموارد المالية في البصرة والكوفة:

اعتمدت الموارد المالية في البصرة والكوفة على مصادر متعددة، كان أهمها الخراج المفروض على الأراضي الزراعية في العراق. فقد كانت الأراضي المحيطة بهاتين المدينتين من أكثر مناطق العراق خصوبة، الأمر الذي جعلها مصدرًا مهمًا لإيرادات الدولة.

وفي البصرة أسهم الموقع الجغرافي للمدينة في تعزيز مواردها الاقتصادية، إذ كانت ميناءً مهمًا يربط العراق بالخليج العربي وبالمناطق الشرقية مثل الهند وفارس. وقد أدى هذا الموقع إلى ازدهار النشاط التجاري فيها، مما وفر موارد إضافية لبيت المال من خلال الرسوم التجارية والعشور المفروضة على البضائع (البلاذري : 1996 ، ص 219)

أما الكوفة فقد تميزت بكونها مركزًا إداريًا وعسكريًا مهمًا، إذ استقر فيها عدد كبير من الجند العرب منذ الفتوحات الإسلامية الأولى. ولذلك اعتمدت مواردها المالية بدرجة أكبر على الخراج والجزية المفروضة على الأراضي والسكان في المناطق المجاورة، إضافة إلى ما كانت تتلقاه من إمدادات مالية من الدولة المركزية لدعم النشاط العسكري فيها (حسن إبراهيم حسن : 1985 ، ص 332)

وعلى الرغم من هذا الاختلاف النسبي في طبيعة الموارد، فإن كلتا المدينتين كانتا تمثلان ركيزة مالية مهمة للدولة الأموية، إذ كانت إيراداتهما تسهم في تمويل العديد من أنشطة الدولة في العراق والأقاليم الأخرى.

أوجه الإنفاق في البصرة والكوفة:

تنوعت أوجه الإنفاق في البصرة والكوفة وفقًا للدور الذي كانت تؤديه كل مدينة في النظام الإداري والعسكري للدولة. فقد كان الجزء الأكبر من الإنفاق موجَّهًا إلى رواتب الجند، إذ كانت المدينتان من أهم مراكز التجنيد في العراق.

وفي البصرة خُصص جزء كبير من موارد بيت المال لتمويل الحملات العسكرية التي كانت تنطلق منها نحو المشرق، إضافة إلى الإنفاق على شؤون الإدارة المحلية ومرافق المدينة. كما احتاجت المدينة إلى موارد مالية لتطوير منشآتها التجارية والمينائية التي دعمت نشاطها الاقتصادي. (طقوش : د . ت ، ص 165)

أما الكوفة فقد كان الإنفاق فيها مرتبطًا بدرجة أكبر بطبيعتها العسكرية والسياسية. فقد كانت المدينة مقرًا لكثير من القبائل العربية التي شاركت في الفتوحات، ولذلك استحوذت رواتب الجند والعطاءات التي تقدمها الدولة للمقاتلين على جزء كبير من موارد بيت المال فيها.

كما شمل الإنفاق في الكوفة إدارة الشؤون الإدارية والقضائية، إضافة إلى دعم الأنشطة الدينية والعلمية التي اشتهرت بها المدينة، إذ أصبحت مركزًا مهمًا للفقه والعلوم الإسلامية خلال تلك الفترة (جرجي زيدان، 1993 ، ص 205)

أوجه التشابه والاختلاف بين المدينتين:

تكشف المقارنة بين البصرة والكوفة في العصر الأموي عن وجود عناصر مشتركة في النظام المالي لكلتا المدينتين، إذ اعتمدت مواردهما الأساسية على الخراج والجزية والعشور، كما تشابهت أوجه الإنفاق في تخصيص جزء كبير من الموارد لرواتب الجند وإدارة الشؤون العامة.

إلا أن الاختلاف الرئيس بين المدينتين تمثل في طبيعة النشاط الاقتصادي السائد في كل منهما. فقد تميزت البصرة بطابعها التجاري والبحري، مما جعلها مركزًا اقتصاديًا نشطًا يرتبط بالتجارة الدولية. أما الكوفة فقد احتفظت بطابعها العسكري والإداري، إذ كانت قاعدة مهمة للجند ومركزًا للقيادة السياسية في العراق.

وقد انعكس هذا الاختلاف في طبيعة الإنفاق العام، حيث احتاجت البصرة إلى دعم الأنشطة التجارية والمرافق الاقتصادية، في حين ركزت الكوفة على تلبية احتياجات الجند والإدارة العسكرية. ومع ذلك فإن المدينتين ظلتا تشكلان معًا قاعدة مالية وإدارية مهمة للدولة الأموية في العراق (حسين مؤنس، 2008 ، ص 277)

توضح المقارنة بين البصرة والكوفة في العصر الأموي أن المدينتين لعبتا دورًا أساسيًا في النظام المالي للدولة الإسلامية. فقد أسهمت البصرة بمواردها التجارية والزراعية في تعزيز الإيرادات المالية للدولة، في حين أدت الكوفة دورًا مهمًا بوصفها مركزًا عسكريًا وإداريًا يعتمد على موارد الخراج والجزية لدعم نشاط الجند والإدارة.

كما تكشف هذه المقارنة عن تنوع البنية الاقتصادية في العراق خلال العصر الأموي، حيث تكامل الدور التجاري للبصرة مع الدور العسكري والإداري للكوفة، الأمر الذي ساعد الدولة على إدارة مواردها المالية وتوجيه نفقاتها بما يحقق الاستقرار الاقتصادي والسياسي في تلك المنطقة.

خاتمة البحث:

خلص هذا البحث إلى أن التنظيم المالي لبيت المال في مدينتي البصرة والكوفة خلال العصر الأموي مثّل أحد الأعمدة الأساسية التي استندت إليها الإدارة الاقتصادية للدولة الإسلامية، إذ أسهم في ضبط الموارد المالية وتنظيم أوجه إنفاقها بما ينسجم مع متطلبات الدولة السياسية والعسكرية والاجتماعية. وقد كشفت الدراسة أن بيت المال لم يكن مجرد مؤسسة مالية تقليدية، بل كان جهازًا إداريًا منظمًا يعكس تطور الفكر المالي والإداري في تلك المرحلة.

وأظهرت نتائج البحث أن تنوع الموارد المالية، مثل الخراج والجزية والعشور والغنائم، شكّل عاملًا رئيسًا في دعم الاستقرار المالي في البصرة والكوفة، في حين ساعد تنظيم النفقات، ولا سيما رواتب الجند والولاة والإنفاق على المرافق العامة، في ترسيخ دور المدينتين كمركزين إداريين واقتصاديين مهمين في الدولة الأموية. كما بيّنت الدراسة أن كفاءة التنظيم المالي ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بقدرة الإدارة الأموية على تحقيق التوازن بين الموارد المتاحة والاحتياجات المتزايدة، في ظل التحديات السياسية والإدارية التي واجهتها الدولة.

كما أكدت الخاتمة أن التنظيم المالي لبيت المال في البصرة والكوفة لم يكن بمعزل عن السياق العام للدولة الأموية، بل تأثر بالسياسات الإدارية المركزية وبأداء الولاة والقائمين على الشؤون المالية. وأسهم هذا التنظيم، بدرجات متفاوتة، في تحقيق قدر من الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي، على الرغم من التباينات التي شهدتها المدينتان تبعًا للظروف المحلية وطبيعة الدور الذي اضطلعت به كل منهما.

وفي ضوء ما توصل إليه البحث، تتضح الحاجة إلى مزيد من الدراسات المتخصصة التي تتناول التنظيم المالي في الأقاليم الإسلامية الأخرى خلال العصر الأموي، بما يسمح بإجراء مقارنات أوسع تسهم في تعميق فهم تاريخ المالية العامة في الإسلام، وتبرز الأبعاد الاقتصادية والإدارية للدولة الأموية في سياقها التاريخي العام.

أولًا: نتائج البحث

1. أظهرت الدراسة أن بيت المال في البصرة والكوفة خلال العصر الأموي كان مؤسسة مالية منظمة، تقوم على أسس إدارية واضحة هدفت إلى ضبط الموارد العامة وتنظيم أوجه إنفاقها بما يلبّي احتياجات الدولة والمجتمع.
2. كشفت النتائج عن تنوّع الموارد المالية التي اعتمد عليها بيت المال، وفي مقدمتها الخراج والجزية والعشور والغنائم، وهو ما أسهم في تحقيق قدر من الاستقرار المالي، وعكس اتساع القاعدة الاقتصادية في المدينتين.
3. بيّنت الدراسة أن النفقات العامة لبيت المال اتسمت بالتعدد، حيث شملت رواتب الجند والولاة، والإنفاق على الإدارة والمرافق العامة، فضلًا عن دعم الأنشطة العسكرية، وهو ما يدل على الدور المحوري للبصرة والكوفة في البنية الإدارية للدولة الأموية.
4. أوضحت النتائج أن التنظيم المالي لبيت المال تأثر بالسياسات المركزية للدولة الأموية، وبكفاءة الولاة والعاملين على الشؤون المالية، الأمر الذي أدى إلى تفاوت في مستوى الأداء المالي بين البصرة والكوفة تبعًا للظروف المحلية والإدارية.
5. أثبت البحث أن التنظيم المالي أسهم، بدرجات متفاوتة، في تحقيق التوازن بين الموارد والنفقات، مما ساعد على دعم الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي في المدينتين، رغم التحديات السياسية والإدارية التي واجهتها الدولة الأموية في بعض الفترات.
6. أظهرت الدراسة أن التجربة المالية في البصرة والكوفة تعكس تطورًا ملحوظًا في الفكر الإداري والاقتصادي الإسلامي المبكر، وأسهمت في إرساء ممارسات مالية استمر تأثيرها في العصور الإسلامية اللاحقة.

ثانيًا: توصيات البحث

1. يوصي البحث بضرورة توسيع نطاق الدراسات التاريخية الاقتصادية المتعلقة ببيت المال في العصر الأموي، مع التركيز على الأقاليم المختلفة، بما يتيح إجراء مقارنات شاملة تسهم في تعميق الفهم العلمي لتاريخ المالية العامة في الإسلام.
2. التأكيد على أهمية اعتماد المناهج التحليلية المقارنة في دراسة التنظيم المالي الإسلامي، لما لها من دور في إبراز أوجه التطور والاستمرارية بين العصور المختلفة.
3. الدعوة إلى إعادة قراءة المصادر التاريخية المبكرة قراءة نقدية واعية، بهدف استخلاص مزيد من المعطيات المتعلقة بالإدارة المالية، وربطها بالسياقات السياسية والاجتماعية التي أفرزتها.

4. تشجيع الباحثين على دراسة أثر التنظيم المالي لبيت المال في تحقيق العدالة الاجتماعية والاستقرار الاقتصادي، وربط ذلك بالسياسات الإدارية للدولة الأموية.
5. الإفادة من التجربة التاريخية لبيت المال في البصرة والكوفة بوصفها نموذجًا مبكرًا للإدارة المالية العامة، يمكن توظيفه في إثراء الدراسات المعاصرة في مجال الاقتصاد الإسلامي.
6. الدعوة إلى توظيف الدراسات التاريخية الاقتصادية في بناء رؤية متكاملة لتطور المؤسسات المالية في الحضارة الإسلامية، بما يعزز من حضور هذا الحقل البحثي في الدراسات الأكاديمية الحديثة.

المصادر والمراجع

1. ابن الأثير : ابن الاثير المبارك بن محمد ،(1969) جامع الأصول فى احاديث الرسول ﷺ ، مكتبة الحلبى ، القاهرة
2. ابن الفقيه : ابو عبدالله محمد بن احمد ،(1996) البلدان، تحقيق يوسف الهادى ، دار العلم للكتب ، بيروت
3. ابن خرداذبة : أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (1989) المسالك والممالك، دار صادر ، بيروت
4. ابن سعد : محمد بن سعد بن منيع الزهرى (2001) الطبقات الكبرى، ج 7، تحقيق على محمد عمر ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ،
5. ابن عبد الحكم : عبد الله بن عبدالحكم ،(1994) سيرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، تحقيق محمد عبدالقادر شاهين ، دار الكتب العلمية ، بيروت
6. ابن عساكر : أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي (د . ت) تاريخ مدينة دمشق، ج 28، دار الفكر ، بيروت
7. ابن مسكويه : أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه أبو علي، (2003) تجارب الأمم وتعاقب الهمم ، دار الكتب العلمية ، بيروت
8. أبو يوسف : يعقوب بن ابراهيم ،(د.ت) الخراج، دار المعرفة ، بيروت
9. أحمد شلبي، (1991) ، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ،القاهرة: مكتبة النهضة المصرية،
10. الأصبهاني : (1989م) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 10 مج، دار الكتب العلمية، بيروت
11. البطاينة، محمد ضيف (1980م) الحياة الاقتصادية في العصور الإسلامية الأولى دار طارق عمان
12. البلاذري : احمد بن يحى بن جابر ،(1996) انساب الإشراف، ج 5، تحقيق سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق
13. البلاذري : احمد بن يحيى بن جابر، (1992) فتوح البلدان، تحقيق ابراهيم بيضون ، دار اقرأ ، بيروت
14. الجاحظ : (2003م) المحاسن والأضداد ، دار ومكتبة الهلال القاهرة
15. الجهشياري : ابو عبدالله محمد بن عبدوس، (1988) الوزراء والكتاب، تحقيق حسن الزين ، دار الفكر الحديث ، بيروت
16. الحسيني : محمد طه حسين (2017م)التنظيم المالي للدولة منذ صدر الاسلام حتى سقوط الدولة العثمانية المركز العربي للنشر، مصر
17. الحموي، شهاب الدين ابو عبدالله الحموى ،(2008) معجم البلدان، ج2، تحقيق محمد عبدالرحمن ، دار احياء التراث العربى ، بيروت
18. الدينوري بن قتيبة : (1992م) المعارف، تحقيق ثروت عكاشة ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، القاهرة

19.الزيات : أحمد حسن باشا ،(1953) مجلة الرسالة، (ع)
20.الصولي : أبو بكر محمد بن يحيى الصولي ،(1923م) أدب الكتاب، صححه محمد بهجة الأثري المكتبة العربية ببغداد
21.الطبري : محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابوالفضل ابراهيم ، ج 5، دار المعارف ، القاهرة (د . ت)
22.العلي : صالح احمد ، (1972) الكوفة وأهلها، دار الحرية للطباعة ، بغداد
23.العلي : صالح ،(1986م) خطط البصرة ومنطقتها دراسة في احوالها العمرانية والمالية في العهود الاسلامية الاولى ، مطبعة المجمع العلمى العراقى ، بغداد
24.القلقشندي :أحمد بن علي بن أحمد الفزاري (1992م) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، 15 مج، دار الكتب العلمية، بيروت
25.الماوردي : ابو يعلى محمد بن الحسين ،(2008) الأحكام السلطانية، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت
26.الماوردي : على بن محمد ، (1999) الحاوي الكبير فى فقه مذهب الامام الشافعى ، تحقيق على محمد عوض، ج 8، دار الكتب العلمية ، بيروت
27.المبرد : على بن محمد ،(1980) الكامل في اللغة والادب، تحقيق محمد على المكى ، ج 3، دار الفكر ، بيروت
28.المقدسي : المطهر بن طاهر ،(1900) البدء والتاريخ، دار صادر ، بيروت
29.المقدسي : شمس الدين ابو عبد الله محمد ،(1991) احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، ط 3 ، مكتبة مدبولى ، القاهرة
30.النويري : أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين (2003م) نهاية الأرب في فنون الأدب 33 مج، دار الكتب والوثائق القومية القاهرة
31.جواد : على (1969) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج9، دار العلم للملايين ، بيروت
32.جرجي زيدان، (1993) تاريخ التمدن الإسلامي ، بيروت: دار الهلال
33.حسن إبراهيم حسن، (1985)، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية
34.حسين مؤنس،(1998)، *التاريخ الإسلامي* ، القاهرة: دار المعارف
35.خليفة : أبو عمرو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري البصري ،(1977م) تاريخ خليفة بن خياط أكرم ضياء العمري، دار القلم، مؤسسة الرسالة، دمشق
36.عبد الشافي ، محمد عبد اللطيف ،(1998م) السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، دار السلام، القاهرة
37.نجدة : خماش (1980م) الإدارة في العصر الأموي، دار الفكر ، دمشق

University of Benghazi
Faculty of Education Al Marj

جامعة بنغازي
كلية التربية – المرج

ISSN 2518-5845

المجلة الليبية العالمية

Global Libyan Journal

العدد الثالث والسبعون /أبريل 2026م

الحِرَف الصناعية وأنواعها في مدينتي البصرة والكوفة (40 – 132 هـ / 660 – 750 م)

عبدالباسط حسن الكيلانى
محاضر مساعد، باحث ، وزارة المالية فرع سلوق
alrybyb570@gmail

Industrial Crafts and Their Types in the Cities of Basra and Kufa (40–132 AH / 660–750 CE)

Mr. Abdulbasit Hassan Al-Kilani
Assistant Lecturer, Researcher ,Ministry of Finance, Suluq Branch

الملخص:

يتناول هذا البحث دراسة الحِرَف الصناعية وأنواعها في مدينتي البصرة والكوفة خلال العصور الإسلامية المبكرة، بوصفهما من أهم المراكز الحضارية والاقتصادية في العراق الإسلامي. كما يحاول البحث الكشف عن طبيعة النشاط الصناعي في هاتين المدينتين، والتعرّف إلى أبرز الحِرَف التي مارسها السكان، ودورها في دعم الحياة الاقتصادية والاجتماعية. ويهدف البحث إلى إبراز تنوّع الصناعات التقليدية، وتحليل العوامل التي أسهمت في ازدهارها، مثل الموقع الجغرافي، وتوفر الموارد، واتصال المدينتين بطرق التجارة. اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي التحليلي، من خلال جمع المادة العلمية من المصادر التاريخية والجغرافية، ثم تحليلها للكشف عن طبيعة الصناعات والحِرَف المنتشرة في المدينتين. وقد توصّل البحث إلى أن الحِرَف الصناعية شكّلت عنصرًا مهمًا في اقتصاد البصرة والكوفة، وأن تنوّعها شمل صناعات النسيج، والفخار، والجلود، والمعادن، وصناعة السفن. كما أظهرت النتائج أن ازدهار هذه الحِرَف ارتبط بالحركة التجارية النشطة والاستقرار الاقتصادي، مما جعل المدينتين مركزين مهمين للإنتاج والتبادل التجاري في التاريخ الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: الحِرَف الصناعية – البصرة – الكوفة – الصناعات التقليدية – التاريخ الاقتصادي.

Abstract:

This research examines the industrial crafts and their various types in the cities of Basra and Kufa during the early Islamic periods. The idea The study arises from the necessity to delve into the characteristics of industrial activities within these two regions important urban centers and to identify the main crafts practiced by their inhabitants, as well as their role in supporting economic and social life. The research aims to highlight the diversity of traditional industries and analyze the factors that contributed to their development, such as geographical location, availability of resources, and the connection of the two cities with major trade routes.

The study adopts the historical analytical method by collecting information from historical and geographical sources and analyzing them to understand the development and distribution of crafts in the two cities. The results indicate that industrial crafts It played an important role in shaping the local economies of Basra and Kufa. Various industries flourished, including textile production, pottery, leatherworking, metal industries, and shipbuilding. The study also shows that the prosperity of these crafts was closely linked to active commercial movements and economic stability, which made the two cities prominent centers of production and trade in Islamic history.

Keywords: Industrial Crafts – Basra – Kufa – Traditional Industries – Economic History.

المقدمة:

تُعدّ الحِرَف والصناعات التقليدية من أهم المظاهر الاقتصادية والاجتماعية التي تعكس مستوى النشاط الحضاري في المجتمعات التاريخية، إذ أسهمت هذه الحِرَف في تلبية احتياجات السكان اليومية، كما كان لها دور واضح في تنشيط الحركة التجارية وتطوير الحياة الاقتصادية. وقد برزت مدينتا البصرة والكوفة منذ نشأتهما في صدر الإسلام بوصفهما من أهم المراكز الحضرية في العراق، حيث شهدتا نشاطًا اقتصاديًا متنوعًا شمل التجارة والزراعة والصناعات الحِرَفية المختلفة. ومن هنا تنطلق فكرة هذا البحث لدراسة الحِرَف الصناعية في هاتين المدينتين، والتعرّف إلى أنواعها وأهميتها ودورها في دعم الاقتصاد المحلي والمجتمع الحضري.

أهمية البحث:

تبرز أهمية هذا البحث في تسليط الضوء على أحد الجوانب البارزة للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي.، وهو النشاط الصناعي والحِرَفي الذي أسهم في ازدهار المدن الإسلاميَّة،كما تكمن أهميته في إبراز دور الحِرَفيين والصنّاع في الحياة الاقتصادية، والكشف عن مدى تنوّع الصناعات التي عرفتها البصرة والكوفة، وما تركته من أثر في تطور النشاط التجاري والحضاري في العراق خلال تلك الفترة.

مشكلة الدراسة:

وتتمثل مشكلة الدراسة في محاولة الإجابة عن عدد من التساؤلات التي تتعلق بطبيعة الحِرَف الصناعية في البصرة والكوفة، وأهم أنواعها، والعوامل التي أسهمت في نشأتها وتطورها، ومدى تأثيرها في النشاط الاقتصادي والاجتماعي في المدينتين.

تساؤلات الدراسة:

ومن أبرز تساؤلات الدراسة: ما أهم الحِرَف الصناعية التي عُرفت في البصرة والكوفة؟ وما العوامل التي ساعدت على ازدهار هذه الصناعات؟ وما دورها في دعم النشاط الاقتصادي والتجاري في المدينتين؟ وإلى أي مدى أسهمت هذه الحِرَف في تشكيل الحياة الاجتماعية والاقتصادية للسكان؟

أهداف البحث:

ويهدف هذا البحث إلى تحقيق مجموعة من الأهداف، من أهمها التعرف إلى طبيعة الحِرَف الصناعية في البصرة والكوفة، وتحديد أبرز أنواعها، وتحليل العوامل الجغرافية والاقتصادية التي ساعدت على تطورها، فضلًا عن إبراز دور هذه الحِرَف في دعم الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المدينتين.

منهج البحث:

وقد اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي التحليلي، وذلك من خلال جمع المعلومات من المصادر التاريخية والجغرافية التي تناولت تاريخ البصرة والكوفة، ثم تحليل هذه المعلومات للكشف عن طبيعة النشاط الصناعي والحِرَفي، ودوره في الحياة الاقتصادية والاجتماعية في تلك المرحلة.

خطة البحث:

أما خطة البحث فقد جاءت في ثلاث مباحث حيث يتناول المبحث الاول النشاط الحرفى والصناعى فى البصرة ويتناول عدة مطالب ، أما المبحث الثانى فيتناول أشهر الصناعات فى البصرة،وأما المبحث الثالث فهو بعنوان النشاط الحرفى والصناعى فى الكوفة ويتضمن عدة مطالب ، ثم تُختتم الدراسة بخاتمة تتضمن أهم النتائج والتوصيات التي توصّل إليها البحث:

أسباب اختيار البحث:

يرجع اختيار هذا البحث إلى عدة أسباب، من أهمها:

1. قلة الدراسات المتخصصة في الحِرَف الصناعية في البصرة والكوفة.
2. أهمية المدينتين التاريخية في الحضارة الإسلاميَّة.
3. الرغبة في إبراز دور الصناعات اليدوية في بناء الاقتصاد المحلي.
4. الاهتمام بتوثيق التراث الصناعي والحِرَفي.
5. ارتباط الموضوع بمجال التاريخ الاقتصادي والاجتماعي.

الدراسات السابقة:

تناول عدد من الباحثين موضوع الحِرَف والصناعات في المدن الإسلامية، ومن بينها مدينتا البصرة والكوفة، سواء بصورة مباشرة أو ضمن دراسات أوسع عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العراق في صدر الإسلام والعصرين الأموي والعباسي، وفيما يلي عرض لأهم الدراسات التي تناولت هذا الموضوع أو اقتربت منه:

أولًا: دراسة حسين مؤنس في كتابه الحضارة الإسلاميَّة، حيث تناول ملامح الحياة الاقتصادية في المدن الإسلامية، وأشار إلى دور الحِرَف والصناعات اليدوية في ازدهار المراكز الحضرية، مبينًا أن المدن الكبرى مثل البصرة والكوفة شهدت نشاطًا صناعيًا متنوعًا شمل صناعات النسيج والفخار والجلود والمعادن. وقد ركزت الدراسة على العلاقة بين النشاط الصناعي والحركة التجارية في المدن الإسلامية.

ثانيًا: دراسة شوقي ضيف في كتابه العصر العباسي الأول، إذ تطرّق إلى الحياة الاجتماعية والاقتصادية في العراق، وبيّن أن البصرة والكوفة كانتا من أهم المراكز الحضارية التي ازدهرت فيها الحِرَف المختلفة، خاصة تلك المرتبطة بالأسواق والنشاط التجاري، كما أشار إلى دور الحِرَفيين في تنشيط الاقتصاد المحلي.

ثالثًا: دراسة جورجي زيدان في كتابه تاريخ التمدن الإسلامي، حيث تناول تطور المدن الإسلامية وما شهدته من مظاهر حضارية واقتصادية، وأوضح أن الصناعات والحِرَف كانت جزءًا مهمًا من بنية الاقتصاد الحضري، وذكر أن مدن العراق، ومنها البصرة والكوفة، عرفت أنواعًا متعددة من الصناعات التي أسهمت في ازدهارها التجاري.

رابعًا: دراسة آدم متز في كتابه الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، والتي تناولت مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الدولة الإسلامية، ومن بينها الصناعات والحِرَف التي ازدهرت في المدن الكبرى، حيث أوضح أن الحِرَف الحضرية كانت تمثل عنصرًا أساسيًا في النشاط الاقتصادي، وأسهمت في دعم التجارة الداخلية والخارجية.

ومن خلال استعراض هذه الدراسات يتضح أنها قدّمت معلومات مهمة عن النشاط الاقتصادي والصناعي في المدن الإسلامية، غير أن معظمها تناول الموضوع بصورة عامة ضمن إطار دراسة الحضارة الإسلامية أو التاريخ الاقتصادي، ولم تفرد دراسة مستقلة ومتخصصة للحِرَف الصناعية في البصرة والكوفة بشكل تفصيلي، الأمر الذي يمنح هذه الدراسة أهميتها العلمية، إذ تسعى إلى تسليط الضوء على هذا الجانب من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي بصورة أكثر تركيزًا وتحليلًا.

المبحث الأول : النشاط الحرفي والصناعي في البصرة

اشتهرت البصرة منذ القدم بحرف ومهن وصناعات مختلفة، لعدة أسباب منها: موقعها الجغرافي والظروف المناخية وخصوبة أرضه ووفرة مياهه حيث جعلت من خيراته وموقعه بيئة خصبة لازدهار النشاط الحرفي ونشوء الصناعات، وما أن أصبحت مدينتي البصرة والكوفة جزءاً من الدولة الإسلامية في فترة صدر الإسلام والدولة الأموية بعد الفتوحات واتساع رقعتها الجغرافية، أسهم الخلفاء المسلمين وولاتهم بالعمل على تنشيط الحياة الاقتصادية وتطورها، فالصناعات والحرف تشكل جزءاً مهما في حياة المدن، حيث تأثرت الحرف والصناعات فيهما بالبيئة الاقتصادية المحيطة بها، كما وتأثرت الصناعات والحرف بطبيعة ما تنتجه أراضي البصرة والمدن والأقاليم المحيطة بها، حيث كان النشاط الزراعي هو النشاط الرئيسي فيه، حيث يعد نشاط بدائي لا يرتقي أن يدخل بحرف وصناعات تحويلية لمنتوجات النشاط الزراعي، ظهرت وتطورت نتيجة لذلك حرف وصناعات تعتمد بشكل رئيسي على المواد الخام المستمدة من القطاع الزراعي.مثل: صناعة النسيج وصناعة والسكر وعسل التمر وانتشار المطاحن كما واكبت الصناعة حركة التطور العمراني من هاتين المدينتين، فظهرت وتطورت صناعة مستلزمات البناء واتقان هذه الحرفة ، إضافة إلى تأثر الصناعة بالأزمات السياسية والعسكرية التي رافقت هذه الفترة (كج جي : 2002، ص 86)

ويقدم ابن مالك تلخيص في شرح التسهيل قائلا: وقصد الحرف بفعالة كالنجارة والخياطة والنساجة والحياكة والصناعة والحراثة والفلاحة والكتابة (إبراهيم : 2005 ، ص 513) ، والمراد بشبه الحرف الولايات كالإمارة والعرافة والوزارة والنقابة، وكون فعال لما فيه تأب والصراف (ابن مالك : 1990، ص 469)

إن التطور في الحياة الاقتصادية الذي أصاب مدينة البصرة في النشاط الزراعي بشقيه التنظيمي والإصلاحي لم يتوقف عند الزراعة فقط، وإنما كان أهل الأمصار الجديدة مثل: البصرة الذي يغلب عليهم طابع البداوة والزراعة وجزء كبير منهم كانوا من المقاتلين، إلا أن النشاط الحرفي كان في خضم التطور ضمن عجلة الحياة الاقتصادية في البصرة ، فموقعها الجغرافي جعل منها قبلة ومركزا مهما لكثير من الحرف والصناعات واشتهرت البصرة بعدد من الحرف اليدوية والصناعية والمعمارية ، فكانت حرف ومهن تدعم النشاط الأهم وهو النشاط الزراعي الذي كان يعد من أهم الأنشطة في تلك الفترة، وتطورت هذه الحرف مع تطور الحياة الاقتصادية.

النشاط الحرفي في البصرة

المطلب الأول : حرفة البناء

شهدت حرفة البناء في البصرة تطورًا ملحوظًا مع تأسيس المدينة، إذ ارتبط هذا التطور بعملية التمدن وظهور العمران . فمع الحاجة الملحّة للبناء والإعمار، بدأت هذه الحرفة تحقق شهرة واسعة في المنطق،ويذكر البلاذري أن أرض البصرة كانت خصبة وقريبة من الموارد المائية والمراعي ومصادر الحطب، مما دفع إلى استيطان الناس فيها .وقد تم بناء المساكن حينها باستخدام القصب، فيما قام عتبة ببناء مسجد من القصب أيضًا في عام 14هـ .ويُروى أنه أشرف بنفسه على تصميم المسجد، بينما تشير روايات أخرى إلى أن محجر بن الأدرع البهزي هو من تولى تخطيطه.(ابن الأثير : 2018، ص 840) ويقال اختطه نافع بن الحارث بن كلدة (الأصبهاني : 1998، ص 678) عندما بنى منزله وعتبة دار الإمارة دون المسجد في الرحبة، التي تسمى اليوم رحبة بني هاشم وكانت تُعرف سابقًا بالدهناء، شُيدت فيها السجن والديوان .كان الناس عندما يخرجون للغزو يزيلون القصب المستخدم في البناء ويجمعونه، ثم يعيدون وضعه عند عودتهم من الغزو، لتستمر الأمور على هذا النحو مدةً طويلةً، ولاحقًا بدأ الناس بتخطيط الأرض وبناء منازلهم، وتولى أبو موسى الأشعري بناء المسجد ودار الإمارة مستخدمًا الأحجار والطين، وسقفها بالعشب وأضاف إلى المسجد .وعندما كان الإمام يأتي للصلاة بالناس كان يعبر بينهم إلى جهة القبلة عبر ممر معين .ذات يوم خرج عبد الله بن عامر من دار الإمارة متوجهًا نحو القبلة مرتديًا جبة خز سوداء، مما دفع الأعراب للتعليق قائلين إن الأمير يبدو مرتديًا جلد دب! (ابن منظور: 2016 ، ص 163)

وتشير رواية البلاذري إلى أن مدينة البصرة تم تخطيطها وبناؤها بأيدي سكانها وأهلها، مما يعكس مهارتهم العالية وبراعتهم في فنون البناء .وعلى الرغم من الاختلافات التي وردت في الرواية حول الجهة التي شيدت المسجد، فإن هذا التنوع يعكس العدد الكبير ممن امتهنوا هذه الحرفة آنذاك. وقد استخدم السكان في بناء منازلهم مواد مثل القصب والبردي في البداية، ثم انتقلوا لاحقًا إلى استخدام الآجر والجص.(البلاذري : 1992 ، ص 373) يكمل البلاذري في وصفه لحرفة البناء في البصرة وكيف شهدت تطورًا خلال تلك الفترة، قائلاً :حدثني أبو محمد الثوري عن الأصمعي أنه قال :عندما نزل عتبة بن غزوان في منطقة الخريبة، وُلد هناك عبد الرحمن بن أبي بكرة، وكان أول مولود في البصرة، فقام والده بنحر جزور احتفالاً بهذه المناسبة. (ابن الأثير أبو السعادات : 2018، ص 490) أصبح أهل البصرة ممتنين مما نالوه من توسعة المسجد حينها، إلى أن جاء معاوية بن أبي سفيان وعيّن زيادًا واليًا على البصرة فقام زياد بإضافة توسعات كبيرة للمسجد، مستخدمًا الطوب والجص في البناء، وسقف المسجد بأخشاب الساج. كما قال: "لا ينبغي للإمام أن يتجاوز الناس"، لذا نقل مقر الإمارة من منطقة الدهناء إلى جهة قبلة المسجد ، وبذلك صار الإمام يخرج مباشرة من مقر الإمارة إلى المسجد عبر الباب الموجود في حائط القبلة .عندما أنهى زياد بن أبيه إنشاء المسجد ومقر الإمارة، اعتاد التنقل بين أرجاء البناء متفحّصًا ما تم إنجازه .وكان يصطحب معه وجهاء أهل البصرة ليسألهم عن جودة البناء قائلًا: "هل ترون أي عيب فيه؟" فيردّون: "ما رأينا بناءً أكثر إتقانًا من هذا" ؛ لكنه كان يجيب: "بل، هذه الأعمدة"... (الفاسي : 2003، ص 309) التي تحمل على كل واحدة منها أربعة عقود، ولو كانت أكثر سماكة من بقية الأعمدة.

قال الوليد بن هشام بن قحذم إنه عندما قام زياد بن أبيه ببناء المسجد، جعل رواقه الأمامي يضم خمس سواري.(التميمي : 2003، ص 118) تجلى تقدير الشعراء في وصف المسجد الذي بني لذكر الله، مبرزين أنه شُيّد من الحجارة بدلاً من الطين، وهو تعبير عن متانة البناء وعظمته يتعجب أحد الشعراء قائلاً لو لم يكن هناك تعاون من قبل الناس في عملية البناء، لظننت أن هذا الصرح قد شُيّد بفعل الشياطين ومن التفاصيل اللافتة أن بناء منارته جاء بالتزامن مع نقل دار الإمارة إلى جهة قبلة المسجد، وكان البناء الأول لهذه المنارة والمرافق المجاورة يتم باستخدام اللبن والطين، حتى جاءت ولاية صالح بن عبد الرحمن السجستاني، مولى بني تميم، عندما تولى مسؤولية خراج العراق في عهد سليمان بن عبد الملك .حينها استُخدم الآجر والجص لتحسين البناء وعلى مر الزمن، أضاف عبيد الله بن زياد بن أبيه المزيد للتطوير أما بالنسبة لمسجد الكوفة، فيُذكر أن أحد القائمين دعا الله أن يرزقه فرصة للجهاد، فاستجاب لدعوته. كما تمنى بناء مسجد الجماعة في المصرين، فتحققت أمنيته .وأخيرًا، طلب من الله أن يجعله خلفًا لزياد بن أبيه، وكان له ما أراد. تجسد هذه الأحداث روحاً من التفاني والإيمان العميق، تجذّرت في تاريخ عظيم وبناء شامخ يمثل رمزية دينية وثقافية عبر العصور. (البلاذري : 1992 ، ص 338)

إن هذه الروايات تبين لنا مدى تطور حرفة البناء من القصب والبردي بداية اختطاط بيوت البصرة ثم الأجر والجص ثم من الحجارة والسقف من الساج، ومنارة المسجد تحديداً بنيت من الحجر، حتى أبدوا استغرابهم ودهشتهم من حرفة البناء كيف بنيت ولولا تعاون الناس لقلنا كما كانت من أعمال الشياطين

المطلب الثاني: حرفة النقش بالحجر

شهدت حرفة البناء تطوراً ملحوظاً، فأصبحت تتميز بدقة أعلى من ذي قبل، حيث تحولت إلى فن النقش بالحجر، الذي يُعتبر من أكثر الحرف صعوبة وإتقاناً .يبدو أن مدينة البصرة استلهمت هذه المهارة من المناطق المجاورة، خصوصاً من بلاد فارس التي اشتهرت بإبداعها في النقش على الحجر، وبرز ذلك جلياً في بناء قصورهم التي لا تزال شاهدة على براعتهم .ويُروى عن الحموي أن أرض المسجد كانت مغطاة بالتربة، فكان المصلون ينفضون أيديهم من التراب عند انتهاء الصلاة .عندما لاحظ زياد بن أبيه هذا السلوك، خشي أن يُعتقد لاحقاً بأنه سنة دينية .لذلك أمر بجمع الحصى وفرشها في أرض المسجد الجامع، وكلف مجموعة بالإشراف على عملية جمع الحصى وتوزيعها .إلا أن هؤلاء الموكلين بالغوا في التدقيق على الناس وأطلقوا مطالب صارمة تتعلق بانتقاء الحصى بنفس الحجم واللون، بل وصل الأمر إلى استغلال الوضع وطلب الرشاوى. حينها قال زياد مقولته الشهيرة: "يا حبذا الإمارة ولو على الحجارة"، والتي باتت تُذكر مثلاً بين الناس. (الحموي : 2008 ، ص 434)

يواصل الحموي قوله: بأن الحجارة والحصى الملونة أُدخلت إلى أرض المسجد وزُينت بالنقوش والزخارف، حيث جاء الأمر بإدخال هذه الزخارف والنقوش .كما طُلب نقش "الأمارة "على تلك الحجارة .ويضيف الحموي أن الحجاج لما بلغه أن زيادًا بنى دار الأمارة ورغب في إزالة أثر زياد بن أبيه منها، قال" :سأبنيها مجددًا بالطوب"، فهدم البناء. إلا أن البعض قال له" :إنما هدفك إزالة ذكر زياد بن أبيه، فما الداعي إلى مضاعفة تكاليف البناء إن كان ذلك لن يقضي على ذكراه؟". فأمره سليمان بإعادة البناء كما كان، فشُيدت باستخدام الجص والطوب على أساسها القديم ولكن بارتفاع أكبر .وعندما رُكبت الأبواب مرة أخرى أُصيب بعض الأجزاء الأصلية بقصر في القياس.(الحموي : 2008 ، ص 436)

يتضح من ذلك أن الفكرة التي تدور حول إعادة الترميم وتغيير بعض المعالم كانت تهدف لتعزيز مكانة اسم زياد وترسيخه بشكل أكبر. فقد رد سليمان على هذه الرغبة بتأكيد أن القيام بأعمال ترميم دقيقة ومتقنة سيضيف لعمر هذا البناء استمرارية ويزيد من تأكيد الاسم المرتبط به. ولذلك، عيّن صالح بن عبد الرحمن مسؤولاً عن خراج العراق، فقام صالح بنقل تفاصيل ما قام به الحجاج في دار الإمارة .وأصدر تعليماته بإعادة بناء الدار باستخدام الأجر والجص، مع الحفاظ على أساسها ورفع ارتفاعها، وعندما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة وعين عدى بن أرطاة الفزاري والياً على البصرة، رغب الأخير في إضافة غرف جديدة فوق البناء القائم.(البلاذري : 1992 ، ص 340)

وقد تطورت هذه الحرفة في النقش والبناء، لبناء من عدة أدوار ذوي طوابق متعددة بالأجر والجص، أن هذا التطور الملحوظ في حرفة النقش على الحجر يوضح حقيقة مفادها أن هذه الحرفة ليست وليدة اللحظة وإنما تطورت وتأثرت بالأقاليم وثقافات الحضارات المجاورة.

المطلب الثالث : حرفة الحمامات

اشتهرت البصرة أيضا بحرفة الحمامات ، فكانت تدر دخلًا كبيرًا على من يعمل بها، حتى وإن كانت هذه الحرفة دخيلة على المجتمعات العربية والإسلامية، إلا أنها تطورت وازدهرت في البصرة، فهذه الحرفة تعكس اهتمام أهل البصرة بالجانب الصحي ومدى انتشاره بينهم، ويذكر البلاذري مسترسلا بأقواله عن حرف البصرة في هذه الفترة كان أول حمام أُنشئ في البصرة هو حمام عبد الله بن عثمان بن أبي العاص الثقفي، وكان يقع في موضع بستان سفيان بن معاوية في منطقة الخريبة بجوار قصر عيسى بن جعفر .أما الحمام الثاني فكان حمام فيل، مولى زياد، والثالث حمام مسلم بن أبي بكرة في بلالاباذ، والذي لاحقًا انتقل ملكه إلى عمرو بن مسلم الباهلي .ولفترة طويلة ظلت البصرة مقتصرة على هذه الحمامات فقط. (البلاذري : 1992 ، ص 343)

في البداية، لم تكن الحمامات في البصرة سوى ثلاث فقط، كما أورد البلاذري في رواياته، ومع مرور الزمن وتطور هذه الحرفة، ازداد عدد الحمامات بشكل ملحوظ حتى تجاوز أربعة عشر حمامًا، هذا النمو يعكس تأثير التوسع الكبير في هذه المهنة، إضافة إلى المنافسة المتزايدة بين العاملين فيها .روى البلاذري أن أبا بكرة قال لابنه مسلم" :يا بني، ما دمت لا تتولى عملًا معينًا ولا أراك مقصرًا عن إخوتك من حيث السعي لكسب المنفعة، فما السر؟"، فردّ مسلم عليه قائلاً: "إن كتمت الأمر فأخبرك". ولما وعده بالكتمان، قال له: "أربح من حمامي هذا كل يوم ألف درهم إضافة إلى كمية كبيرة من الطعام" بمرور الوقت، مرض مسلم وأوصى بأموره إلى أخيه عبد الرحمن بن أبي بكرة وكشف له عن دخل الحمام .إلا أن عبد الرحمن أفشى هذا السر وسعى للحصول على إذن من الوالي لبناء حمام جديد. نظرًا لأن بناء الحمامات في البصرة كان يتطلب موافقة السلطات، حصل عبد الرحمن على إذن من عدة ولاة وشخصيات بارزة منهم عبيد الله بن أبي بكرة، الحكم بن أبي العاصي، سياه الأسواري، الحصين بن أبي الحر العنبري، وربطة بنت زياد، ولبابة بنت أوفي الجرشي التي بَنَت حمامين اثنين، أحدهما في منطقة أصحاب البقاء والآخر في بني سعد، وكذلك المنجاب بن راشد الضبي .ولكن عندما تعافى مسلم من مرضه وجد أن دخل حمامه قد تقلص بسبب تصرفات عبد الرحمن. الأمر أدى إلى خلاف بينهما، إذ أصبح مسلم يلعن أخاه عبد الرحمن ويقول: "ما قطع الله رحمه"، معبرًا عن استيائه وغضبه تجاه تصرفه الذي أثر بشكل كبير على مكاسبه. (البلاذري : 1992 ، ص 345)

تبين هذه الرواية حرفة الحمامين ومهنتهم في حمامات البصرة حتى أن مسلم قال لأبيه أنه يغتل من حمامه ألف درهم في اليوم، حتى أنه طلب من أبيه الكتمان، حتى لا ينافسه أحد بحرفته التي كانت تدر عليه خيرًا، ويبدو أن مهنة العمل في الحمامات لم تقتصر على الرجال فقط، فقد كان للنساء نصيب من هذه الحرفة والعمل في الحمامات، فلربطة حمام ولبابة (البلاذري : 1992 ، ص 346) حمامين بعد استئذانهم؛ لأن إقامة الحمامات لم تكن مسموحة إلا بإذن الخليفة (السلطان) (ابن سعد : 1990 ، ص 124)

ويوجد في البصرة حمامًا يعرف بحمام الأمراء حيث جاء أنه من المظاهر الحضارية في رحبة بني هاشم (أحمد مختار، 2008، ص 869) حمام الأمراء(ابن الفقيه: 1996 ، ص 174)

إلا إن الحسد قد أدرك هذه الحرفة بين ممتهنيها، وذلك نتيجة لما تدره من أموال ونفع على من يعملون فيها.

يذكر البلاذري أن الحسد دبّ بينهما، فقال أنس :كافئا أبا الأسود .فردّ :أحضر ما لديك، فقال:

لَعَمْرُ أَبِيكَ مَا حَمَّامُ كِسْرَى ... عَلَى الثُّلُثَيْنِ من حَمَّامِ فِيلِ

وكلامه يدل على أن مهنة الحمَّامات هي عادات دخيلة وليس من سنة الرسول ﷺ ، ومن الحمامات أيضا حمام أفراذادان (الجاحظ : 1990 ، ص 261) ، وذكر الجاحظ وحمام أفراذادان في قنطرة قرة (ابن الأثير : 2018، ص 805)

المطلب الرابع : حرفة استصلاح البطائح وتنشيفها (النباطين)

تميزت هذه الحرفة بفئة محددة من الأشخاص تُعرف باسم "النبط"، وكان نشاطهم الأساسي يتمثل في استصلاح الأراضي المغمورة بالمياه في البطائح وتجفيفها لجعلها صالحة للزراعةكان هؤلاء الأشخاص يحصلون على أجورهم مقابل العمل الذي يقومون به على هيئة جزء من الأراضي التي يستصلحونها عندما تولى معاوية بن أبي سفيان الحكم، قام بتكليف عبد الله بن دراج، مولاه، بالإشراف على خراج العراق نجح عبد الله في استخراج أراضٍ جديدة من البطائح باستخدام تقنيات مثل قطع القصب والتغلب على المياه عبر المسنيات، وبلغت إيرادات هذه الأراضي حوالي خمسة ملايين درهم،ولاحقًا، برز حسان النبطي، وهو مولى بني ضبة وصاحب "حوض حسان "المعروف في البصرة، ونُسبت إليه منارة حسان الواقعة في البطائح .تولى حسان استصلاح أراضٍ خلال فترة حكم الحجاج بن يوسف الثقفي في عهد الوليد بن عبد الملك، وكذلك خلال خلافة هشام بن عبد الملك، حيث استخرج مساحات شاسعة من أراضي البطائح وحوّلها إلى أراضٍ قابلة للاستغلال الزراعي والإنتاجي (البلاذري : 1992 ، ص 358) ، تحولت هذه الحرفة فيما بعد من حرفة عادية إلى أحد أدوات الإصلاح الزراعي الذي طال أرض البصرة والبطائح خاصة.

المطلب الخامس : حرفة صرامين (الزبيدي : 2001 ، ص 56) **التمور**

تنبع أهمية هذه الحرفة من دورها الأساسي في حماية التمور من هجمات الغربان في ذلك الوقت، ولا تزال تُستخدم حتى اليوم كوسيلة فعالة لمواجهة خطر الطيور المهاجرة تُعد هذه الطريقة جزءاً مهماً من جهود الحفاظ على محصول التمور، الذي لطالما شكل عماد الاقتصاد في البصرة، قديماً وحديثاً ولهذا كان لا بد من انتشار هذه الحرفة لضمان حماية هذا المنتج الحيوي وقد أشار الحموي عن الجاحظ إلى ثلاث ظواهر مدهشة تميز البصرة عن غيرها من المدن، حيث ذكر الظاهرة الثالثة وهي كثرة الغربان المهاجرة في فصل الخريف التي تغطي نخيل وأشجار البصرة لدرجة أنها تسبب اختفاء كل غصن تحت حشودها.(الزبيدي : 2001 ، ص 64) بكثرة ما أصابها من الأضرار، لم تبقَ كربة قاسية إلا وكادت أن تتحطم لما تعرضت له من ثقل المصائب. ومع ذلك، لم

يُشهد طوال الدهر غراب واحد يسقط إلا على نخلة خالية تمامًا من ثمرها، حيث لم يتبقَ عليها عذق واحد .وكانت مناقير الغربان أشبه بالمعاول، فيما تمر الأعذاق في تلك الظروف بحالة من التفكك والضعف .ولو أن الله تعالى لم يُمسكها برعايته ولطفه، لكانت كل عذق منها ينهار بمجرد نقرة واحدة، فلا يبقى منها إلا القليل .ورغم ذلك، تظل النخلة في انتظار وقت الحصاد، حتى يكتمل جمع ما تبقى من ثمارها عنقودًا تلو الآخر، رأيتها وقد اسودّت تمامًا .ثم انساب الجمع بين جذوعها، لا يتركون حبة واحدة خلفهم.(الزبيدي : 2001 ، ص 146) إلا استخرجتها (الحموي : 2008 ص 440) ، ولا يقتصر عملهم على صرم التمور وحمايتها من الحر والطيور المهاجرة وإنما امتازوا بتكريب النخيل وهي إزالة الأدغال عن النخلة وهذا ما يزيد من وفرة إنتاج النخيل.

المطلب السادس : حرفة صيد السمك واستخراج اللؤلؤ

إن موقع البصرة الممتد بجوار النهر إلى البحر جعل منها موقعا مهما لصيد الأسماك واستخراج اللؤلؤ، على مدار الزمن ومنذ القدم حتى يومنا هذا، وبشرح بسيط عن موقع البصرة النهري والبحري، حيث يلتقي في مدينة البصرة نهري دجلة والفرات بنهر واحد يسمى شط العرب في منطقة القرنة وهي أحد أقضية البصرة، فالبصرة هي المدينة الوحيدة في العراق التي تقع على النهر والبحر، وكانت ولا زالت حرفة صيد الأسماك متوارثة آلاف السنين، حيث تشكل رافد تجاري مهم للمدينة وأهلها، ويوجد من الأسماك السمك النهري والسمك البحري بأنواعه واللؤلؤ الذي يتركز في هذه المنطقة من الخليج، الذي كان يستخدم في صناعة الحلي، وهذه الحرفة جمعت بين الهواية والحاجة والصناعة والتجارة معاً.

يقول الجاحظ : بحرنا هذا قد امتاز وتفوّق على جميع البحار الأخرى، فقد جعله الله مقترنًا ببحر الهند وممتلئًا بالخيرات التي لا تتوفر في غيره من البحار .وربما تنتقص من ملوحة مائه أو تستخف بها، ولكنك تغفل عن أن هذا البحر هو الذي تنشأ فيه الجواهر الكريمة مثل اللؤلؤ، الذي قد تبلغ قيمة الواحدة منه خمسين ألف دينار، إضافة إلى العنبر الذي تعرف قيمته العظيمة . فكيف يمكن التقليل من شأن بحر يولّد هذه الثروات النفيسة؟ وإذا أخذنا أية قيمة أخرى عظيمة –كنوز أو خصائص مميزة – وألقينا بها في زاوية من هذا البحر، فإنها ستتلاشى وسط عظمته حتى نكاد لا ندرك وجودها .أضف إلى ذلك أن هذه الخيرات هي لنا وحدنا، ولا تصل إليكم منها إلا عبرنا، وعبر ما نجود به عليكم من فضل غنانا. (الجاحظ : 1990 ، ص 147) وهذه الرواية تبين مدى فائدة بحر البصرة لساكنيها، وخاصة ان الجاحظ قد امتاز بمدح البصرة في أماكن كثيرة، وما ينقل عن رجالاتها تفاخرهم بمدينة البصرة وخيراتها، وبعيدًا عن رواية الجاحظ وتفاخره بالبصرة فالحق يقال أن البصرة لغاية الآن هي سلة العراق الاقتصادية بأكثر من 90% من وارداته الاقتصادية.

المبحث الثاني : أشهر الصناعات في البصرة :

كانت الصناعة في البصرة تتمتع بشهرة واسعة، حيث تأثرت بمجموعة متنوعة من الحرف والمهن، مما ساهم في تنوع أنشطتها الصناعية .وقد كانت هذه الصناعة مرتبطة بشكل كبير بباقي الفعاليات الاقتصادية، لا سيما النشاط الزراعي، الذي أمدها بالمواد الأولية لتحويلها إلى منتجات صناعية تسهم في تطوير الحياة الاقتصادية .ويذكر المقدسي في هذا السياق: "وقال عبد الرحمن بن أخي الأصمعي إنه زار الجاحظ وسأله عن البلدان فقال له :الأمصار عشرة، المروءة ببغداد، والفصاحة بالكوفة، والصنعة

بالبصرة."(المقدسي : 1999 ، ص 33) ، ولعل ما ذكره المقدسي من أوجه المقارنات التي تحصل دائما بين مدينتي البصرة والكوفة بأسواقهما ومدارسهما النحوية وإلى غيره الكثير من المقارنات التي عرفت عبر التاريخ.

وقال البلاذري: كان خالد بن صفوان واليًا على البصرة في عهد عبد الملك بن مروان، وكان يستقبل وفوداً من جميع الأمصار .أثناء ذلك، أنشأ مسلمة مصانع في المنطقة، فطلب من عبد الملك السماح له بأخذ الوفود معه ليشاهدوا تلك المصانع، ووافق له على ذلك .عندما رأى مسلمة المصانع، أُعجب بها بشدة، ثم التفت إلى وفد أهل مكة وسألهم" :هل لديكم مثل هذه المصانع؟"، فأجابوا" :لا، ولكن لدينا بيت الله الحرام، المستقبل للعالمين "بعد ذلك توجه إلى وفد المدينة وسألهم السؤال نفسه، فأجابوا" :لا، ولكن لدينا قبر نبي الله المرسل ."ثم التفت إلى وفد الكوفة وسألهم عن بلادهم، فقالوا" :ليست لدينا مثل تلك المصانع، لكننا نفتخر بتلاوة كتاب الله الكريم في كوفا ."وأخيرًا، سأل وفد أهل البصرة عن الأمر ذاته عندها تقدم خالد بن صفوان متحدثًا وقال" :أيها الأمير، لقد اعترف هؤلاء بما تمتاز به بلادهم من خير وخصوصية .ولو كان هناك من يعرف بلادهم أكثر، لأجابك بما يعكس دواخلها "فرد عليه الأمير قائلاً: "هل لديك ما ينفرد به بلدك عما قالوه في بلادهم؟ "فأجاب خالد" :نعم أيها الأمير الكريم .إن أردت أصفها لك، فهي بلاد يُقدم فيها القانص صباحًا فيصطاد الأجود من الشبوط والقيم والطبي والظليم . ونحن أكثر الناس استمتاعًا بالعاج والساج والخز والديباج، ونركب البراذين فخرًا واعتزازًا". (ابن منظور: 2016 ، ص 51) هملاجاً (ابن منظور: 2016 ، ص 350) وخريدة مغناج تزهو بجمال بيوتها كأنها الذهب ومعجزات أنهارها التي تبدأ بالرطب، تتوسطها عناقيد العنب، وتنتهي بقصب السكر .أما الرطب، فهو نتاج نخيل مباركة، يحتل مكانة في أرضنا كما يحتل الزيتون أرضكم، كلاهما يعانق الفروع في مواسمه الزاهية .النخل عندنا من الثابتات في الطين التي تمنح الخير في القحط، تُلقَّح بالفحل لتنتج أسفاطًا ضخمة وقِربًا معبأة كما لو أنها أُغلقت بحزم متينة .تمر هذه الثمار بمراحل ساحرة :أولاً تخرج كأنها قضبان فضية تزينها لآلئ بيضاء، ثم تتحول إلى قضبان ذهبية مرصعة بالزبرجد الأخضر، حتى تُصبح ياقوتًا أحمر وأصفر يسرّ العين .وفي النهاية تغدو عسلاً مصفى لا تدنو منه الذباب، محفوظاً بعيدًا عن التربة، ليُزال بعناية دون أن يُهدَر .أما نهرهم العجيب، فهو يتدفق باندفاعٍ ورخاء، يجري بغزارة ليغسل الأرض ويبعث فيها الحياة من جديد.

ويتضح من هذه الرواية أن خالد ابن صفوان يصف حال البصرة ونخلها وعجب النهر فيها بحركة المد والجزر وأنهم يأخذون حاجتهم منه وهم نيام على فرشهم بدون حجاب، وكيف حال نخل البصرة وتمورها ورطبها وكيف يصنعون عسل التمر منها (الدبس)، وقدم إليها الكثير من الصناع المهرة من مختلف الأمصار، وبقدوم الصناع والحرفيين كثرة الحرف والصناعات، ومنها صناعة الحلي فأشتهر أهل البصرة بصناعة الحلي التي كانت قائمة على استخراج الحلي من البحر كونها مطلة على البحر (الخليج)، واشتهرت مدينة البصرة أيضا بإتقان وصناعة الخزف التي نقلوها إلى سامراء، وهذا ما ذكره اليعقوبي عندما أراد المعتصم أن يبني مدينة سرى من رأى (سامراء) حيث قال: أحضر المعتصم من كل مدينة الأشخاص المهرة في مختلف المهن والحرف، سواءً في مجالات العمارة والزراعة وزراعة النخيل، أو في الغرس، وهندسة المياه وقياسها واستخراجها، وكذلك في العلوم، كما استقدم من البصرة الحرفيين المختصين بصناعة الزجاج والخزف والحصر.(اليعقوبي : 2002 ، ص 109)

ويذكر الحموي نهر يسمى الجوبرة حيث قال: وفي كتاب البصرة لأبي يحيى الساجي: نهر الجوبرة (الحموي : 2008، ص 317) من الأنهار القديمة في البصرة، كان نهر الإجانة يتصل بنهر دجلة، حيث كانت مياهه تتجمع عند فوهة الجوبرة لتشكل مستنقعًا واسعًا أشبه ببحيرة .اعتاد أهل البصرة الاقتراب منه أحيانًا لغسل ثيابهم، وكان يحتوي على أجاجين وأنقرة وأوانٍ خزفية وأدوات مستخدمة في مهنة القصار. لهذا السبب، أطلق عليه اسم نهر الإجانة.(ابن منظور: 2016 ، ص 112) ، (ابن عبد الحق : 1958 ، ص 354) ، وهذا نهر سمي بالبصرة بالإجانة لكثرة الخزف والأجاجين فيه وهو دليل على صنعة أهل البصرة واتقانهم للخزف وصنع الإجانة، ولغاية الآن تطلق هذه المفردة الاجانة أو الانجانة في العراق ويتفق عليها أكثر العراقيون بلهجة واحدة وهي الاناء الذي يعجن فيه الدقيق يدويًا، كما كان يصنع في البصرة والأبلة المراكب والزوارق الخشبية التي تجوب مياه البصرة والأبلة وبين أنهارها ومجاريها في مناطق البصرة، بين مبانيها وقراها، تمتد مساحات شاسعة من الأجام والبطائح المليئة بالمياه .تسير فوقها القوارب والسفن المزودة بالمدافع نتيجة القاع الضحل وتراكم الترسبات في مجاريها .وفي مواسم الشتاء، تشتد الأمطار فتفيض مياه نهري دجلة والفرات، وتنساب سيولها إلى هذه الأنهار، مما يؤدي إلى حفر بعض المناطق وردم أخرى.(الإدريسي : 1989 ، ص 385)

صناعة المنسوجات

ركز زياد بن أبيه اهتمامه على صناعة المنتجات النسيجية، حيث كان أول من أدخل صناعة المنسوجات الكتانية إلى مدينة البصرة .وقد شهدت هذه الصناعة توسعًا كبيرًا هناك، مما جعل البصرة تشتهر بإنتاج أفخر أنواع الخز.(ياسرالحمداني : 2008، ص 1450) والبز (ابو الفضل الميداني النيسابوري : 2021، ص 78) ، وذكر المقدسي: " أما البطائح، فهي أرض يسكنها النبط الذين لا يتميزون ببلاغة اللسان ولا بحكمة العقل .ومع ذلك، فهي مركز مزدهر للتجارة .ألم تسمع عن خز البصرة وبزّها وما تحويه من طرائف ومزايا؟ إنها موطن اللآلئ والجواهر الثمينة، ميناء البحر، ونقطة التقاء البر والبحر .وفيها تُصنع الراسخات التي تبهر العين والروح.(المقدسي : 1999 ، ص 33) والزنجفر (الزبيدي : 2001، ص 458) والمرداسنج (الزبيدي :2001، ص 170) ومن بين ذلك، يتم حمل التمور إلى المناطق البعيدة، إلى جانب الحناء .كما أنهم يمتلكون الحرير والبنفسج والزهر، وفي الأبلة تُصنع الملابس الكتانية الفاخرة بتقنية مماثلة لصناعة القصب. (المقدسي : 1991 ، ص 128)

يتضح مدى تأثير وتطور النشاط الصناعي في البصرة بالمقارنة مع المناطق المحيطة بها، وقد قال ابن الفقيه :إن البصري وحميري، ومن وصل إلى فرغانة القصوى والسوس، يُعتبرون من أكثر الناس سعيًا واجتهادًا في البحث عن الرزق (الحموي : 2008، ص 281) الأقصى، فلا بد أن يرى فيها بصريا، أو حميريا على أن أهل أصبهان والخوز معروفون بذلك، ويجد في كل بلد منهما صفا قائماً (ابن الفقيه : 1996 ، ص 109) تشير بعض المصادر إلى أن هذه الفترة شهدت تطورًا في صناعات أخرى كانت تشكل جزءًا ضروريًا من متطلبات الحياة الاجتماعية، مثل صناعة العمائم واللحف والفوط كما ازدهرت صناعة الزيوت والشموع والصابون المصنوع من زيت بذور السمسم والزيتون .وتؤكد روايات تاريخية عدة وجود ظاهرة التخصص في البصرة، حيث كان الحرفيون وأصحاب كل مهنة يعملون معًا في مكان محدد، مما أدى إلى تكوين أسواق فرعية صغيرة داخل السوق الكبير. (جواد علي : 2001م ، ص 228)

ويذكر أن البصرة قد وصلت في هذه الفترة إلى مستوى عالي من الرخاء حتى أصبحت المساكن لا تبنى إلا من خشب الساج، وتفنن كذلك أهل البصرة في صنع أبواب البيوت وجعلوا سقوفها من جذوع النخيل (سعدون بن حسين : 2006م ، ص136)

لعل هذه الثقافة قد امتدت للزمن الحاضر فتعرف بيوت البصرة القديمة المصنوعة أبوابها وسقوفها ونافذاتها من الخشب (جواد علي : 2001م ، ص 239) أو المشربية وتبنى المشربية من الخشب المنقوش والمزخرف والمبطن بالزجاج الملون، وتعدّ المشربية كذلك إحدى عناصر العمارة التقليدية الصحراوية في البلاد العربية الحارة.

وذكر الاصفهاني قائلاً: أحرق عبد الرحمن بن أم الحكم دار ابن الزبير، مما دفع ابن الزبير إلى تقديم شكوى إلى معاوية . عبر له عن الظلم الذي تعرض له بسبب هذا الفعل، مدعيًا أن الدار قد كلفت مبلغ مائة ألف درهم لبنائها وتجهيزها .استغرب معاوية من هذا الادعاء، معتبرًا أنه لا يعلم بوجود دار بالكوفة أنفق عليها مثل هذا المبلغ. طلب للتحقق شاهدًا على صحة كلام ابن الزبير، فأشار الأخير إلى المنذر بن الجارود الذي كان حاضرًا .عندما سأله معاوية عما يعرفه بهذا الخصوص، أجاب المنذر بأنه لم يُعر اهتمامًا لتكاليف بناء الدار أو قيمتها، لكنه أشار إلى واقعة سابقة حين كان يعزم مغادرة الكوفة، وطلب منه ابن الزبير شراء خشب الساج بمبلغ عشرين ألف درهم لاحتياجاته.(الأصفهاني : 2016، ص 253) من البصرة (الأصفهاني : 2016، ص 255) ، والبيت كان في الكوفة لكن شراء الساج كان من البصرة وهذه دلالة على شهرة البصرة بصناعة الساج، وذكر السمعاني كلمة "الساجي "تُنسب إلى "الساج"، وهو نوع من الخشب يُجلب من البحر إلى مدينة البصرة، ويُستخدم في تصنيع مختلف الأشياء. وقد اشتهر بعض الأشخاص قديمًا وحديثًا بالانتساب إلى بيع هذا الخشب أو العمل به .من بين هؤلاء أبو يعلى زكريا بن يحيى بن خلاد المساجي البصري. (السمعاني : 1962م ، ص 10)

المبحث الثالث : النشاط الحرفي والصناعي في الكوفة

لا تختلف الحرف والصناعة في الكوفة كثيرًا عن مدينة البصرة؛ وذلك لعدة أسباب منها : الموقع الجغرافي كونهما يقعان في إقليم واحد وهو إقليم العراق، بالإضافة إلى التقارب الزمني في فترة تأسيس وتمصير المدينتين، وأنهما على مسار واحد من الوسط إلى الجنوب الشرقي، فيجعل من هذا المسار والمحيط الإقليمي المحيط بالمدينتين تشابه الحرف والصناعات لدرجة كبيرة ، ومن هذه الحرف والصناعات :

المطلب الاول : حرفة البناء والاختطاط :

نالت حرفة البناء في الكوفة نصيبا مهما من تطور هذا النشاط فبدأت هذه الحرفة بداية بسيطة ثم تطورت مع مرور الوقت، فبيوت الكوفة عند تأسيسها كانت خياما، وهذا ما يناسب حياة المقاتلين فيها، ثم تطور بناء البيوت فيها من القصب، لكن سرعان ما احترقت هذه البيوت أو الأكواخ التي كانت تسمى الأخصاص، وحول هذا يذكر الطبري قائلا: احترقت ثمانون عريشاً بالكامل، ولم يُلقَ فيها سنبلة واحدة في شهر شوال، مما جعل الناس يتداولون الحديث عن تلك الحادثة لفترة طويلة. فقام سعد بإرسال مجموعة من قومه إلى عمر بن الخطاب لطلب الإذن ببناء المنازل بالطوب .وعندما نقلوا إليه تفاصيل الحريق وتأثيره عليهم، قال لهم: قوموا بذلك، لكن ليقتصر كل واحد منكم على بناء ثلاثة بيوت فقط، واحرصوا على عدم المبالغة في ارتفاع البناء.(الطبري: 1960، ص44)

يتبين أن البيوت في الكوفة كان يدخل في بنائها القصب والبردي وكانت تسمى أخصاص قال: الأخصاص بيوت عندنا من قصب (ابن حجر العسقلاني : 1998 ، ص 150) ، فتطورت هذه الحرفة لتكون اختطاطاً وهندسة معمارية، فبدأ اختطاط الكوفة وهي خطط لقبائل العرب (إسحاق بن الحسين : 1988 ، ص 38) ، وخصصت لكل قبيلة خطة، أي منها أراضي محددة تسمى باسم القبيلة، واحتفظت هذه الخطط بأسماء قبائلها لعدة قرون، وظهر البناء في الكوفة بشكل أكثر تطورًا ودقة، حيث يذكر البلاذري: ... كان العرب في ذلك الوقت يُشَبَّهون بالإبل في صلابتها وحاجتها إلى إدارة حكيمة تضمن استقرارها وإصلاح شؤونها. ولهذا، كان من الضروري اختيار موقع ملائم لهم كي يستقروا فيه بسهولة ودون تعقيدات ناتجة عن العوائق الطبيعية كالبحار .فتم اختيار موضع جيد لهذا الغرض، وتم تحديده بشكل دقيق .أُسندت مهمة تخطيط الأماكن إلى أنا الهياج الأسدي، وعندما وصل إلى المكان الذي قرر أن يكون مسجدها، قام باستخدام أسهم لتحديد الجهات الأساسية. بدأ بتحديد اتجاه القبلة، فقام رجل بإطلاق سهم نحو جهة القبلة وأُعلِم على نقطة سقوطه .ثم تكرر العمل باتجاه الشمال، والجنوب، والشرقي)الصبا(، وتم وضع علامات عند كل نقطة بعد تحديد الأماكن المحورية، تم تخطيط المسجد ودار الإمارة في المنطقة العالية من الموقع وحولهما . وفيما يخص توزيع الأراضي بين القبائل المختلفة، أُجريت قرعة باستخدام الأسهم بين قبائل نزار وأهل اليمن، وُضع اتفاق يقضي بأن الجهة اليسرى، وهي الأفضل، تُمنح لمن يظهر سهمه أولاً. وعند إجراء القرعة، خرج سهم أهل اليمن أولاً، مما جعل خططهم تقع في الجهة الشرقية، بينما استقرت خطط نزار في الجهة الغربية، بناءً على العلامات التي حُددت سابقاً. (البلاذري : 1992 ، ص 270) وكان هذا الإختطاط بمثابة عمل هندسي وأساس متين للبناء فلم يكن بناءها واختطاطها من فراغ بل تم اختيار المكان والاتجاهات وهبوب الرياح، متفقاً مع متطلبات مدينة جديدة مهيأة أن تكون معلم حضاري وإسلامي واقتصادي.

ازدهرت هذه الحرفة في الكوفة لاحقًا لتشمل مباني أوسع وأجزاء أكبر من المدينة .وفي هذا الإطار، يشير ابن كثير إلى أن أول ما أُنشئ فيها كان المسجد، حيث قاموا بتحديد حدود البناء عبر رمي السهم من وسط المسجد نحو الجهات الأربع، وفي الموقع الذي سقط فيه السهم بدأ الناس ببناء منازلهم .كما أقيم قصر مقابل محراب المسجد ليكون مقرًا للإمارة وبيتًا للإدارة.(ابن كثير : 1997 ، ص 34)

كان المسجد أهم بناء في الكوفة، وبناء المساجد أصبحت سنة متبعة من قبل بناة المدن، حيث يتصدر بنائها أولويات خطط المدينة، ويذكر البلاذري: ثُمَّ أن المغيرة بن شعبة وسعه وبناه زياد بن أبيه فاحكمه وبنى دار الأمارة ، وكان زياد بن أبيه يقول: أنفقت على كل أسطوانة (البلاذري : 1992 ، ص 272) يتكون مسجد الكوفة من مئة وثماني عشرة سارية .وقد قام عمرو بن حريث المخزومي ببناء جزء فيه، وكان زياد بن أبيه يعتمد عليه لتولي شؤون الكوفة عندما يتوجه إلى البصرة .مع مرور الوقت، بدأ العمال بزيادة البناء في المسجد، مما أدى إلى تضييق ساحاته وممراته .لاحقًا، قام المغيرة بتوسعة المسجد وإعادة بنائه، وتبعه زياد الذي أضاف إليه أيضًا. أما بالنسبة إلى إلقاء الحصى في المسجد، فكان له سبب محدد مرتبط بعملية التحسين والتجديد. (الفاسي : 2003، ص 309)

إن تطور حرفة البناء والاختطاط في الكوفة منذ بناء الخيام إلى تطورها، وبناءها بالقصب والبردي إلى اختطاط المدينة بشكل معماري وبناءها بالأجر والجص، في فترات متعاقبة بسيطة ما هو إلا شاهدًا على تطور هذه الحرفة وبيان مدى أهميتها للناس في تلك الفترة.

المطلب الثاني : حرفة الحمامات

رسمت الحمامات في الكوفة مظهر حضاري آخر، كما هو الحال في مدينة البصرة، كما كانت الحمامات ومهنتها موروثة عن الساسانين والرومان، ويؤكد ذلك أن مهنة الحمامات هي موروث غير عربي لكنها اشتهرت ببلاد العرب حديث أبو داود وابن ماجه عن ابن عمر – أن رسول الله ﷺ قال: "إنكم ستفتح لكم أرض العجم، وستجدون فيها بيوتا يقال لها الحمامات، فلا يدخلنها الرجال إلا بإزار ، وامنعوها النساء إلا مريضة أو نفساء (أبو داوود: 2014، ص 39) وكانت هذه الحمامات تلبي حاجات الناس خاصة في الوضوء والاغتسال .

ومرت حمَّامات الكوفة بمراحل تطورها حالها حال أغلب الحرف والمهن، ويذكر البلاذري حول هذا الموضوع: أبو الحسن علي بن محمد وأبو مسعود رويا أن حمام أعين مُنسب إلى أعين مولى سعد بن أبي وقاص .يُذكر أن أعين هو الذي أرسله الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن الجارود، كما نقل أن هذا الحمام كان قبل ذلك لرجل من النُسّاك يُقال له جابر، أخو حيان، الذي ذُكر في شعر الأعشى، وكان صاحب مسناة جابر في الحيرة .يُقال إن جابر باع الحمام من ورثته .وذكر ابن الكلبي أن بيعة بني مازن في الحيرة كانت لقوم من الأزد ينتمون إلى بني عمرو بن مازن، وهم من غسان كما أشار إلى أن حمام عمر نُسب إلى عمر بن سعد بن أبي وقاص، وعن شهار سوج بحيلة في الكوفة، قيل إنه نُسب إلى بني بحلة، وهم من نسل مالك. (البلاذري : 1992 ، ص 276)

المطلب الثالث : حرفة الخط والنسخ

كان للخط الكوفي والخطاطون بصورة عامة نصيب من حرف ومهن الكوفة حيث كانت هذه الحرفة تجمع بين إتقان التركيب وجمال الصورة، ومهارة الأداء، وكذلك دقة الصنعة اليدوية التي يتمتع بها الخطاطون البارعون في الكوفة، حتى وإن كان أصل الخط الكوفي ليس بكوفي الأصل حسب ما تورده الروايات ونسب إلى الكوفة لظهوره لأول مرة بها في الإسلام (جواد على : 2001 ، ص 172)

وفي الحقيقة، أُطلق على هذا الخط الكوفي هذا الاسم بسبب اهتمام مدينة الكوفة به، وليس لأنه نشأ فيها فعليًا.، إلا أنهم لما وصل إليهم هذا الخط وأصبحت مهنتهم، فإنهم اتقنوها وكانت مصدر رزق وشهرة لهذه المدينة. فكان كثير من الخطاطين يكتبون المصاحف بأجر، ثم زادت نسخ المصاحف بأجر في هذه الفترة، وأصبحت هناك مراكز تعمل فيها مجموعة من الكتبة والخطاطون المتميزون بالخط الواضح، لنسخ القرآن الكريم للناس بأجر، ومما يزيد في ترجيح ذلك أن الحجاج بن يوسف الثقفي عندما أمر بحرق أو إتلاف المصاحف عند المسلمين التي لم تكن تتطابق مع المصاحف الأئمة المعتمدة التي كانوا يجدونها في المساجد الجامعة في الكوفة والبصرة والمدن الكبيرة، وتعويض كل واحد منهم بستين درهما ليتمكنوا من نسخ مصاحف جديدة لهم)

وأهم الخطاطين في هذا العصر خالد بن أبي الهياج ذكر محمد بن إسحاق أن خالد بن أبي الهياج كان أول من كتب المصاحف في العصر الأول، وقد اشتهر بجمال خطه .أشار إلى أنه رأى مصحفاً منسوخاً بخطه .وكان سعد قد عينه لكتابة المصاحف، بالإضافة إلى الشعر والأخبار، لصالح الخليفة الوليد بن عبد الملك .ويُذكر أن خالد هو من كتب النقوش الموجودة في قبلة مسجد النبي ﷺ بالذهب من: (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) (سورة الشمس : آية 1) إلى نهاية السورة، ويُذكر أن عمر بن عبد العزيز طلب أن يُكتب له مصحف على هذا النحو .فتم إعداد مصحف له بدقة وعناية .وعندما تسلّمه عمر، أخذ يقلب صفحاته مُعجبًا بجماله، إلا أنه وجد ثمنه مرتفعًا، فقام بإعادته .أما مالك بن دينار، وهو مولى أسامة بن لؤي بن غالب ويُكنى بأبي يحيى، فقد عُرف بكتابة المصاحف مقابل أجر، وتوفي سنة 130هجرية.(صالح عبد العزيز حميد : 1971 ، ص 219) ومالك ابن دينار كان يكتب المصحف بأجر في البصرة.

أول من اشتهر بتطوير الكتابة في عصر بني أمية كان قطبة، الذي قام بابتكار الأقلام الأربعة واستنبط بعضها من بعض . وكان قطبة يُعتبر حينها الأبرع والأكثر إتقانًا في الكتابة باللغة العربية على وجه الأرض. (ابن النديم : 1997، ص 17)

المبحث الرابع : النشاط الصناعى فى الكوفة :

اشتهرت الكوفة بالصناعة ومهنة الحدادين، والحدادة أو القين أحد المهن والحرف الصناعية المشهورة بالكوفة فقد لاقت نشاطا وتطورا سريعا بهذه الفترة نظرا للحاجة إليها.

كان الهالك أول من عمل في الحديد، وكان يتعرض للسخرية بسبب ذلك. فدار حديث بين سماك والأخطل، حيث قال سماك للأخطل" :ويحك !كم تبذل جهدًا لتُثني عليّ فإذا بك تنتقص مني بدلًا من ذلك."" (ابن النديم : 1997، ص 18)

ويعرف الحداد بالقين كذلك عند الجاهليين وهو الذي يعد للزراع الأدوات التي تستعمل في حرث الأرض، مثل: المحراث والمنجل والأدوات... ولذلك قيل لبني أسد: القيون... وعرف القين الذي يقوم بطبع السيوف وصقلها بـ الطباع والصقل (البلاذري : 1992 ، ص 278) ، وتشتهر الكوفة حتى عصرنا الحالي بالحدادة والصناعة في العراق في مهن بغاية التعقيد كنظيرتها من الشمال الموصل والأخرى في الشام حلب، واشتهرت الكوفة أيضا بمهنة الدهان وصنعته بدليل حمل الدهانين لأعمار مدينة سامراء التي شيدها الخليفة العباسي المعتصم، حيث يذكر اليعقوبي تم جلب أشخاص من الكوفة متخصصين في صناعة الأدهان، وكذلك من مختلف المناطق الأخرى، حيث جُمع أهل كل مهنة وحرفة وأُسكنوا مع عائلاتهم في تلك الأماكن .تم تخصيص أراضٍ لهم فيها، كما تم إنشاء أسواق خاصة بأصحاب المهن داخل المدينة لتنشيط الحركة الاقتصادية والخدمية.(جواد على : 2001 ، ص 242)

المطلب الخامس : صناعة المنسوجات

اشتهرت الكوفة كذلك بالنسيج وصناعة الثياب حيث ذكر الجاحظ وخير الوشي (ابن الأثير : 1938، ص 56) في الثوب السابري والكوفي (اليعقوبي : 2002 ، ص 65) ، وعرفت الكوفة بصناعة العمائم وبالكوفة عمائم الخز والبنفسج في غاية الجودة (الجاحظ : 1994، ص 19) ، ومن الصناعات الأخرى التي وجدت في الكوفة صنع الخيام، وهي: على عدة أنواع

عندهم، فالخيمة المصنوعة من الصوف تسمى خباء، والخيمة المصنوعة من الشعر تسمى بالفسطاط والخيمة المصنوعة من الوبر تسمى بالبجاد، والخيمة المصنوعة من القطن بالسرادق والخيمة المصنوعة من الجلد تسمى الطراف، وقد ذكر الشيباني برواية حول أحد أنواع هذه الخيام حيث يقول: "باب إجازة الفسطاط والخيمة والأوتاد والجُزب (المقدسي : 1991، ص 128) والبيوت ومتاع مكة وإذا استأجر الرجل فسطاطا يخرج به إلى مكة ذاهبًا وجائيًا ويحج ويخرج من الكوفة. صناعة الصاغة ظهرت في الكوفة الصياغة وهي صناعة الذهب والفضة وقد تأثرت بهذه الصنعة من مدينة الحيرة قبل تمصير الكوفة، وبعد بناء مدينة الكوفة لاقت هذه الصناعة رواجًا شديدًا وإقبالا كبيرا، وكانت أدوات الزينة للنساء أهم هذه الصناعة، فكان يتم صناعة الأكاليل والأساور والخلاخيل،(الزبيدي :2001، ص 113) والعقود والخواتم والقلادات، وكان لهذه الصناعة سوقا خاصة في الكوفة قرب المسجد الجامع يسمى بسوق الصاغة (ابن منظور: 2016 ، ص 221)

ويبدو أن الحرف والصناعة في مدينتي البصرة والكوفة شهدتا تطورا ملحوظا في الحياة الاقتصادية فواكبتا عجلة التطور الاقتصادي والحركة العمرانية التي شهدتها المدينتين، وإن هذه الفترة المراد دراستها في هذا البحث، هذا، كانت الفيصل بين بدائية الحياة الاقتصادية وتطورها في مهن وحرف وصناعات مهمة في حياتهم، رغم كل الظروف التي مرت بها المنطقة في ذلك الوقت.

ويلاحظ أيضا أن تطور المهن والحرف والصناعات في البصرة خلال فترة وجيزة وكذلك في الكوفة. ولعل تقصير المدنيتين كان عاملا أساسيًا لظهور مهن وحرف وصناعات تحاكي تمصير المدينتين، ويبدو كذلك أن بالرغم من وجود بعض التفاوت في النشاط الحرفي والصناعي بين البصرة والكوفة، إلا أنه بالمجمل العام لهذا النشاط ترى تقارب وتشابه كثير في الحرف والصناعات لأسباب ذكرت سابقا منها: الموقع الجغرافي والبيئة المحيطة اقليما، بالإضافة إلى أن هذه الفترة لم تكن عهد ازدهار واضح كما حدث في القرون التي تلتها. (الزبيدي : 1965 ، ص 205)

الخاتمة:

خلصت هذه الدراسة إلى تحليل الحِرَف الصناعية وأنواعها في مدينتي البصرة والكوفة، بوصفهما من أهم المراكز الحضرية في العراق الإسلامي خلال العصور الإسلامية الأولى. وقد أظهرت الدراسة أن النشاط الحِرَفي لم يكن مجرد نشاط اقتصادي محدود، بل شكّل أحد المكونات الأساسية للحياة الاقتصادية والاجتماعية في هاتين المدينتين، وأسهم بصورة مباشرة في دعم الأسواق المحلية وتعزيز حركة التبادل التجاري.

وقد بيّنت الدراسة أن البصرة والكوفة شهدتا تنوعًا ملحوظًا في الصناعات والحِرَف، مثل صناعة النسيج، والفخار، والجلود، والمعادن، وصناعة السفن، وغيرها من الصناعات التي ارتبطت بطبيعة البيئة المحلية وتوافر المواد الخام. ويكشف هذا التنوع عن مستوى متقدم من الخبرة المهنية والتنظيم الحِرَفي الذي اتسم به المجتمع الحضري في تلك الفترة كما أسهم الموقع الجغرافي المتميز للمدينتين واتصالهما بشبكات التجارة البرية والبحرية في ازدهار النشاط الصناعي واتساع نطاقه.

ومن ناحية أخرى، أظهرت الدراسة أن الحِرَف الصناعية كان لها دور واضح في تشكيل البناء الاجتماعي، إذ أسهمت في ظهور طبقة واسعة من الحِرَفيين والصنّاع الذين شكّلوا عنصرًا مهمًا في النشاط الاقتصادي داخل المجتمع. كما ساعد انتقال الخبرات

المهنية بين الأجيال على استمرار هذه الصناعات وتطورها عبر الزمن، مما جعلها جزءًا من التراث الحضاري الذي عُرفت به المدينتان.

وعلى هذا الأساس، تؤكد الدراسة أن الحِرَف الصناعية كانت من العوامل المؤثرة في ازدهار الحياة الاقتصادية في البصرة والكوفة، وأسهمت في ترسيخ مكانتهما بوصفهما مركزين مهمين للإنتاج والتجارة في العراق الإسلامي. كما تكشف هذه الدراسة عن أهمية البحث في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية للحياة الحضرية، لما يقدمه ذلك من فهم أعمق لطبيعة المجتمع الإسلامي وتطوره الحضاري.

النتائج

أسفرت الدراسة عن مجموعة من النتائج المهمة، من أبرزها ما يأتي:

1- احتلت الحِرَف الصناعية مكانة بارزة في البنية الاقتصادية لمدينتي البصرة والكوفة، وأسهمت في دعم النشاط التجاري وتوفير احتياجات السكان.

2- اتسم النشاط الصناعي في المدينتين بالتنوع، حيث شمل صناعات النسيج والفخار والجلود والحدادة وصناعة السفن وغيرها من الصناعات الحِرَفية.

3- كان للموقع الجغرافي المتميز للمدينتين، واتصالهما بطرق التجارة البرية والبحرية، أثر واضح في ازدهار الصناعات والحِرَف.

4- أسهمت الأسواق في تنظيم النشاط الحِرَفي وتوزيع المنتجات الصناعية داخل المجتمع.

5- شكّلت الحِرَف والصناعات التقليدية مصدرًا مهمًا للرزق، وأسهمت في تكوين طبقة مهنية من الحِرَفيين داخل المجتمع الحضري.

6- ارتبط ازدهار الصناعات في كثير من الأحيان بحالة الاستقرار السياسي والاقتصادي، في حين تأثرت بعض الحِرَف بفترات الاضطراب والتحولات الاقتصادية.

7- كشفت الدراسة أن تنوع الصناعات يعكس درجة من التقدم الحضاري والتنظيم الاقتصادي في المجتمع الإسلامي آنذاك.

التوصيات:

استنادًا إلى النتائج التي أظهرتها الدراسة، يمكن اقتراح مجموعة من التوصيات التي قد تسهم في تطوير الدراسات التاريخية في هذا المجال، ومن أهمها:

1- ضرورة توجيه مزيد من الدراسات الأكاديمية نحو موضوع الحِرَف والصناعات في المدن الإسلامية، لما يمثله من أهمية في فهم التاريخ الاقتصادي والاجتماعي.

2- تشجيع الدراسات المقارنة بين المدن الإسلامية المختلفة للكشف عن طبيعة النشاط الصناعي وتطوره عبر العصور.

3- الاهتمام بجمع وتحقيق المصادر التاريخية والجغرافية التي تناولت النشاط الاقتصادي والحِرَفي في الحضارة الإسلامية.

4- إبراز أهمية الصناعات التقليدية بوصفها جزءًا من التراث الحضاري والثقافي للمجتمعات الإسلامية.

5- دعم المبادرات العلمية والثقافية التي تهدف إلى توثيق الحِرَف والصناعات التقليدية وإحياء الاهتمام بها.

6- الاستفادة من الدراسات التاريخية في إبراز قيمة التراث الصناعي والحِرَفِي بوصفه أحد مظاهر الإبداع الحضاري في التاريخ الإسلامي.

المصادر والمراجع:

1) ابن الأثير: مجد الدين أبو السعادات،(1969) جامع الأصول، دار صادر ، بيروت.

2) ابن الفقيه : أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني ،(1996) ، البلدان، مكتبة عالم الكتب ، بيروت.

3) ابن النديم: أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي ،،(1997م)، الفهرست تح إبراهيم رمضان ،ط ،2 ، دار المعرفة، بيروت.

4) ابن حجر العسقلاني: (1998م) المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، 19 مج، تج: سعد بن ناصر بن عبدالعزيز الشثري، دار العاصمة، دار الغيث السعودية، ج . 17.

5) ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع الزهري ،،(1990م)، الطبقات الكبرى، 8 مج، تح محمد عبد القادر عطاء الكتب العلمية، بيروت ج 7.

6) ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء عماد الدين ،(1997م)، البداية والنهاية، 21 مج، تح عبدالله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، السعودية .

7) ابن مالك : محمد بن عبدالله ابن مالك الطائي الجياني ، (1990م)، شرح تسهيل الفوائد، مج 4 تح عبد الرحمن السيد محمد بدوي المختون، دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ج 3.

8) ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور ،(2016) لسان العرب، دار صادر ، بيروت .

9) أبو الأسود أبو الأسود الديلي، ويقال الدؤلي البصري ايمه ظالم بن عمرو بن سفيان، ويقال: عمرو بن عثمان أو عثمان بن عمرو ،خليل محمود محمد، وآخرون، موسوعة أقوال الإمام أحمد بن حنبل في رجال الحديث وعلله ،عالم الكتب،(د. م)،(1997م)، ج 4 .

10) أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم ، ،(2001م) مجمع الأمثال 2 مج تح محمد محيي الدين عبد الحميد دار المعرفة ،لبنان، (د.ت)، ج 2،

11) الفاسي، محمد بن أحمد بن علي، تقي الدين، أبو الطيب المكي ،(2003م) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، 2 مج، دار الكتب العلمية، بيروت ج 2.

12) الرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر ،(1986م) مختار الصحاح مكتبة لبنان بيروت.

13) الإدريسي: محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني الطالبي (1989م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق 2 مج، عالم الكتب، بيروت ج ،1.

14) الاصبهانى : أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران ،(1998م) معرفة الصحابة 7 مج، تح: عادل يوسف الفراري، دار الوطن الرياض.

15) الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد الأصفهاني ، (2016) ، الأغاني، تحقيق د. إحسان عباس ود. إبراهيم السعافين والأستاذ بكر عباس. ، دار صادر . بيروت ج 7.

16) البلاذري : احمد بن يحيى بن جابر، ،(1992) ،فتوح البلدان، تحقيق ابراهيم بيضون ، دار اقرأ ، بيروت.

17) التميمي، أبو عبد الرحمن عبدالله بن عبد الرحمن بن صالح بن محمد بن حمد بن إبراهيم البسام،(2003) توضيح الأحكام في بلوغ المرام، 7 مج مكتبة الأسدي، مكة المكرمة، ط ،5، ج 2.

18) الجاحظ : (1994م)، التبصرة بالتجارة في وصف ما يستظرف في البلدان من الأمتعة الرفيعة والأعلاق النفيسة والجواهر الثمينة تح: حسن حسني عبد الوهاب التونسي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3.

19) الجاحظ : ابو عثمان عمرو بن بحر البصرى ، (1990م) رسائل الجاحظ، تح :عبد السلام محمد ،هارون دار الجيل بيروت، ص 261.

20) الحمداني، ياسر بن أحمد بن محمود بن أحمد بن أبي الحمد الكويس ، (2006) ، حياة التابعين، دار المعرفة للطباعة والنشر ، القاهرة .

21) الحموي، شهاب الدين ابو عبدالله الحموى ،(2008) معجم البلدان، ج2، تحقيق محمد عبدالرحمن ، دار احياء التراث العربى ، بيروت .

22) الزبيدي: محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى الزبيدي (1965م) ، تاج العروس من جواهر القاموس، دار المعرفة للطباعة والنشر ، القاهرة.

23) السمعاني: أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي المروزي ،الأنساب 13 مج، تح عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، الناشر مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد(1962م)، ج 7.

24) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (1966م)، شرح شواهد المغني، دار أقر ، القاهرة .

25) الأصبهاني : أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران ،(1998م)، معرفة الصحابة 7 مج، تح: عادل يوسف الفراري، دار الوطن الرياض .

26) الطبري: محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابوالفضل ابراهيم ،ج 5، دار المعارف، القاهرة (د .ت).

27) المقدسي : شمس الدين ابو عبد الله محمد ،(1991) احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، ط 3 ، مكتبة مدبولى ، القاهرة .

28) المنجم إسحاق بن الصين ،(1988م)، آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان عالم الكتب، تح فهمي ،سعيد، بيروت.

29) اليعقوبي : احمد بن اسحاق ابو يعقوب،(2002) ، البلدان، دار الكتب العلمية ، بيروت.

30) جواد علي ،(2001م) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 20 مج، دار الساقي، بيروت، ط 4 ، ج13.

31) سعدون : بن حسين ، (2006م) البصرة ذات الوشاحين (التاريخ والسياسة والثقافة) مكتبة مدبولي، القاهرة .

32) صالح عبد العزيز حميد :(1971م)، تاريخ الخط العربي عبر العصور المتعاقبة، ، دار الكتب العلمية، بيروت.

33) كج جي : صباح اسطفيان (2002م)، الصناعة في تاريخ وادي الرافدين (د.د) ،بغداد.

جامعة بنغازي
كلية التربية – المرج
ISSN 2518-5845
المجلة الليبية العالمية

University of Benghazi
Faculty of Education Al Marj

Global Libyan Journal

العدد الثالث والسبعون /أبريل 2026م

تجليّات التراث الصوفي وأثرها في تشكيل الحدث الروائي
عند أحمد إبراهيم الفقيه شخصيّة الوليّ الصالح أنموذجًا

المصري منصور فضل الله المصري
قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الأبيار ، جامعة بنغازي، ليبيا
almasrimansor@yahoo.com

Manifestations of Sufi Heritage and Their Impact on the Formation of the Novelistic Event in the Works of Ahmad Ibrahim al-Faqih:The Character of the Righteous Saint as a Model

AL-Masri Mansour Fadlallah Al-Masri
Department of Arabic Language, Faculty of Arts and Sciences, Al-Abyar . University of Benghazi

الملخص:

لقد كان للتصوّف أثر بارز في تشكيل الرواية التجريبيّة العربيّة، خاصة عند جيل السبعينيّات، الذين دفعتهم نكبة سنة (1967م) إلى خلق عوالم غرائبيّة وعجائبيّة في رواياتهم (رحال، 2014–2015، 145)، حيث تجلّى هذا الأثر في نصوصهم الأدبيّة، التي صدروا فيها عن شعور دينيٍّ كان سائدًا في أغلب البلاد الإسلاميّة والعربيّة، تمثّل في الاعتقاد المبالغ فيه في كرامات الأولياء، وقدراتهم الخارقة، سواءً أكانوا أحياءً، أم أمواتًا، وهي كرامات تتفوّق– في بعض الأحيان– على معجزات الأنبياء أنفسهم، وهو شعور رسّخه ما انطبع في الذاكرة الشعبيّة عن أولئك الأولياء، من زهدهم، وتقواهم، وورعهم، وصلاحهم، واشتغالهم بالعبادات، وعمّقه ما عُرف عنهم من عزلة، وتفرّغ للذكر، والتبتّل في أماكن نائية، لا يعرف الناس كيف يأكل الوليّ فيها، أو يشرب، وعزّزته الأميّة، والجهل، اللذان كانا سائدين، بسبب حقب الاستعمار المتعاقبة، حيث كان الاعتقاد السائد عند عوامّ النّاس أنّ هؤلاء الأولياء لهم القدرة على النفع والضرّ، فالوليّ في القرية، أو البلدة التي يعيش فيها، أو يقع فيها ضريحه، هو الواسطة بين الناس وربّهم، وهو صاحب الشفاعة، والمنقذ لهم في الدنيا والآخرة، فببركاته تُشفى أمراضهم، وتفرج كرباتهم، وبتوسّلاته تمطر السماء إذا أمحلت، وتنجب النساء إذا عقمت.

تسعى هذه الدراسة إلى تتبّع تجليّات التراث الصوفيّ في مجموعة مختارة من الأعمال الروائيّة للكاتب الليبيّ الراحل أحمد إبراهيم الفقيه؛ لبيان مدى تأثّره بذلك التراث، عبر توظيفه لشخصيّة الوليّ الصالح، والوقوف على مدى تأثير هذه الشخصيّة في سيرورة الحدث الروائيّ الذي وظّفت فيه.

الكلمات المفتاحية:(التراث الصوفيّ – شخصيّة الوليّ –كرامات الأولياء – أحمد إبراهيم الفقيه – الحدث الروائيّ)

abstract:

Sufism has exerted a significant influence on the formation of the Arabic experimental novel, particularly among the generation of the 1970s, who, in the aftermath of the 1967 defeat, were impelled to construct strange and fantastical fictional worlds. This influence is evident in their literary texts, which are grounded in a religious sensibility that prevailed across much of the Islamic and Arab world. Such sensibility was manifested in an excessive belief in the miracles (karāmāt) attributed to saints (awliyāʾ) and in their supernatural capacities—whether living or deceased—capacities that were at times perceived as surpassing even the miracles of the prophets. This outlook was consolidated by representations of these saints embedded in popular memory, emphasizing their asceticism, piety, scrupulous devotion, moral rectitude, and commitment to religious worship. It was further reinforced by their reputed seclusion, dedication to the remembrance of God (dhikr), and ascetic retreat in remote locations where the practical conditions of their subsistence remained unknown to the public. Moreover, this perception was strengthened by the widespread illiteracy and ignorance that prevailed as a consequence of successive periods of colonial rule, during which a common popular conviction held that such saints possessed the power to confer benefit or inflict harm. Within this framework, the saint residing in a village or town—or whose shrine was located there—functions as an mediator between the community and the divine, serving as an intercessor and savior in both worldly life and the hereafter: through his blessings illnesses are cured and afflictions alleviated; through his intercession rain descends in times of drought, and barren women are enabled to conceive.

This study seeks to trace the manifestations of Sufi heritage in a selected corpus of novels by the late Libyan writer Ahmad Ibrahim al-Faqih, with the aim of elucidating the extent to which his narrative practice is shaped by that heritage through the deployment of the character of the righteous saint (walī ṣāliḥ), and of examining the impact of this character on the development of the novelistic action in which it is embedded.

Keywords:(Sufi heritage – the personality of the saint – the miracles of the saints – Ahmed Ibrahim al-Faqih – the narrative event)

المقدّمة:

لم يكن التراث الصوفيّ الإسلاميّ موضوعًا دينيًّا وروحيًّا مجرّدًا، بل شكّل عبر العصور مصدرًا غنيّا للإبداع الأدبيّ والفنّي العربيّ، فقد مثّل رافدًا حضاريًا وثقافيًا غنيًا، ترك بصماته الواضحة في مختلف جوانب الحياة العربيّة والإسلاميّة، ومنها الأدب، حيث استثمره الشعراء والكتّاب والفنّانون عبر العصور الإسلاميّة، وقد شهدت الرواية العربيّة المعاصرة انفتاحًا ملحوظًا على هذا التراث، مستلهمةً منه شخصيّاتها وأحداثها ورموزها، وموظّفةً إيّاه في بناء عوالمها السرديّة.

لقد شكّل تمثّل التجربة الصوفيّة في الأدب الروائيّ العربيّ الحديث مظهرًا من مظاهر حداثة الرواية العربيّة، حيث انجذب كثير من الروائيّين العرب إلى هذا الموروث، يغترفون من معينه، ويوظّفونه لأغراض فنّية، أو فكريّة واعتقاديّة، حيث يحضر المعجم الصوفيّ، من خلال استلهام المفاهيم الصوفيّة، ومحاولة تحميلها دلالات ومضامين جديدة، ليتجاوز حضور هذا التراث مجرّد الخلفيّة الرمزيّة الداعمة للصنعة الروائيّة، ليصبح عنصرًا فاعلاً، يصوغ مسارات السرد، ويحدّد مواقف الشخصيّات، متخذًا دورًا مركزيًّا في بناء الحبكة.

يعدّ الراحل أحمد إبراهيم الفقيه، واحدًا من أبرز الروائيّين العرب الذين تمثّلوا هذا التراث، حيث حضرت التجربة الصوفيّة في أدبه الروائيّ بصور متنوّعة، حتّى لا يكاد يخلو عمل من أعماله الروائيّة من توظيف هذا الموروث الزاخر، ومن صور هذا الحضور توظيفه لشخصيّة الوليّ الصالح، المفعمة بالبركات، التي تمثّل أعلى درجات صفاء النّفس، ونقاء الروح، حيث تُجسِّدُ القيم الروحيّة، والمبادئ الأخلاقيّة، التي ترسم طريق التصوّف، عبر إبرازها بوصفها شخصيّة مساعدة لأبطال رواياته، من خلال الكرامات القائمة على المكاشفات والخوارق، التي تجري على أيدي هؤلاء الصالحين، التي لعبت غالبًا دور النبوءة، التي تقود الأحداث.

وفي هذا السياق، تبرز شخصيّة الوليّ الصالح في أعمال الفقيه الروائيّة، باعتبارها أنموذجًا فاعلاً ومؤثّرًا، لما تحمله من أبعاد روحيّة واجتماعيّة وفكريّة، تتجاوز حدود الواقع الماديّ، وتتغلغل في نسيج السرد الروائيّ؛ لتشكيل الحدث، وتوجيه مساراته.

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن تجليّات التراث الصوفيّ في بعض نصوص الفقيه الروائيّة، محاولة إبراز أثر شخصيّة الوليّ الصالح في بناء الحدث الروائيّ وتطوّره، وستتّخذ الدراسة نماذج مختارة مجالًا تطبيقيًا، لما تتميّز به أعماله من حضور لافت للعناصر الصوفيّة والشخصيّات الروحيّة.

إشكاليّة الدراسة:

تنطلق هذه الدراسة من إشكاليّة رئيسة، تتمثّل في الاستفهام عن كيفيّة تجلّي عناصر التراث الصوفيّ، في روايات أحمد إبراهيم الفقيه، من خلال شخصيّة الوليّ الصّالح، وأثرها في تشكيل الحدث الروائيّ وبنائه الفنّيّ، ويتفرّع عن هذه الإشكاليّة الأسئلة الفرعيّة الآتية:

- ما ملامح التراث الصوفيّ الموظَّفة في بناء شخصيّة الوليّ الصالح؟
- هل تُقدَّم هذه الشخصيّة بوصفها فاعلاً سرديًّا، أم مجرّد رمزٍ ثقافيٍّ وروحيٍّ؟
- كيف يؤثّر حضور الوليّ الصالح في تطوّر الحدث، ومسارات الشخصيّات الأخرى؟
- إلى أيّ مدىً يتحوّل التراث الصوفيّ من خلفيّة ثقافيّة، إلى آليّة بنائيّة داخل النصّ الروائيّ؟

أهميّة الدراسة:

تكتسب هذه الدراسة أهميّتها من عدة جوانب:

أولاً: الأهميّة العلميّة:

تسهم الدّراسة في إثراء المكتبة النقديّة العربيّة بدراسة متخصّصة، تتناول العلاقة بين التّراث الصّوفيّ والرواية، مع التركيز على جانب مهمٍ، وهو شخصيّة الوليّ الصّالح.

ثانيًا: الأهميّة التطبيقيّة:

تقدّم الدّراسة أنموذجًا تحليليًّا لتناول تجليّات التّراث الصوفيّ في أعمال روائيّة محدّدة، ممّا يفتح آفاقًا لدراسات أخرى في هذا المجال.

ثالثًا: الأهميّة الثقافيّة:

تسلّط الدّراسة الضوء على قيمة التّراث الصوفيّ باعتباره رافدًا إبداعيًّا للأدب، وتبرز دوره في تشكيل الوعيّ الثقافيّ والجماليّ.

أهداف الدراسة:

تروم في هذه الدراسة البحث في كيفيّة توظيف الفقيه للتراث الصوفيّ في أعماله الروائيّة، من خلال معالجته لشخصيّة الوليّ الصالح، للوقوف على بيان مدى أثر التراث الصوفيّ في تشكيّل تصوّره لتلك الشخصيّة، وطريقة توظيفه لها في نصوصه، ومن ثمّ الوقوف على تأثير هذه الشخصيّة في سيرورة الأحداث الروائيّة في النصوص التي وظّفت فيها؛ بغية تعميق فهمنا للعلاقة بين الأدب وبين هذا التراث، كما تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- تحديد أبرز تجليّات التراث الصوفيّ في روايات الفقيه.
- تحليل بناء شخصيّة الوليّ الصّالح في الروايات المختارة، والكشف عن أبعادها الفنّيّة والدلاليّة.
- تبيان أثر شخصيّة الوليّ الصّالح في تشكيل الحدث الروائيّ وتطوّره.
- الكشف عن الدلالات الرمزيّة والفكريّة التي يضيفها التوظيف الصوفيّ لشخصيّة الوليّ الصّالح إلى الرواية.
- الإسهام في إثراء الدراسات السرديّة التي تتناول التداخل بين التراث والتخييل الروائيّ.

فرضيّات البحث:

يقوم البحث على جملة من الفرضيّات النظريّة، أهمّها:

- أنّ شخصية الوليّ الصالح ليست عنصرًا زخرفيًّا، بل تُؤدّي دورًا بنيويًّا في تشكيل الحدث الروائي.
- أنّ التّراث الصّوفيّ يُعاد إنتاجه سرديًّا بما يخدم الرؤية الفنيّة للروائيّ.
- أنّ حضور الوليّ الصّالح يُسهم في إعادة توجيه الزمن الروائيّ والعلاقة السببيّة للأحداث.

الدراسات السابقة:

توجد العديد من الدّراسات التي تناولت التّراث الصوفيّ في الرواية العربيّة بشكل عامٍ، وكذلك دراسات عن تحليل شخصيّة الوليّ الصالح، ومع ذلك، فإنّ هذه الدراسة تتميّز بتركيزها على أثر شخصيّة الوليّ الصّالح– تحديدًا– في تشكيل الحدث الروائيّ عند روائيٍّ معيّن، ممّا يمثّل إضافة نوعيّة في هذا المجال، ومن أبرز هذه الدراسات ما يأتي:

1. دراسة آسية متلف، (التجريب الصوفي في الرواية العربية المعاصرة أبعاده وتجلياته)، مجلة التعليمية، جامعة جيلالي اليابس، الجزائر، العدد العاشر، المجلد الرابع، مارس (2017)؛ وقد تناولت الباحثة حضور الخطاب الصوفي في الرواية العربية المعاصرة، مبيّنةً علاقته بالتجريب السردي وآليات توظيفه الجمالي، كما عرضت بعض مظاهر هذا الحضور، من خلال تحليل رواية (الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزّكي) للروائي (الطاهر وطار)، مع إبراز تقنيات مثل: (الرمز، والتناص، واللغة الصوفية، والحلم)؛ وقد أسهمت الدراسة في توضيح الأبعاد الفكرية والجمالية للتجريب الصوفي في السرد الروائي، غير أنّها مالت إلى الطرح النظري العام، والتوسع المفاهيمي، على حساب التحليل التطبيقي المتعمق لبنية النص السردية، فضلًا عن اقتصارها على أنموذج روائي واحد، وهو ما حدّ من إمكان توسيع المقارنة وتعميق النتائج النقدية.

2. دراسة مولاي مخطار، (التجريب الصوفي في الرواية العربية المعاصرة: ابن عربي في رواية الموت الصغير)، الملتقى الدولي: الرواية العربية الصوفية المعاصرة بين سردية التراث وتقنيات الحداثة، كليّة الآداب والفنون جامعة الشلف، الجزائر (2023)، حيث تناولت الدراسة رواية (موت صغير) للروائي (محمد حسن علوان)، منقّبة في حضور التجربة الصوفيّة في الخطاب الروائيّ، من خلال توظيف سيرة المتصوّف (محيي الدين بن عربي)، مبيّنةً دور المفاهيم والمصطلحات الصوفيّة في تشكيل الرؤية السرديّة للنص، وقد أسهمت الدراسة في إبراز علاقة الرواية المعاصرة بالتراث الصوفيّ، غير أنّ طغيان الجانب النظريّ، إلى جانب الاقتصار على أنموذج روائيّ واحد، حدَّ من تعميق التحليل السرديّ، وتوسيع أفق المقارنة.

3. دراسة هشام فاروق رسلان، (تجليات الصوفية في رواية نقطة النور لبهاء نور)، مجلة أهل الصفة لدراسات التصوف وعلوم التراث، المجلد الثاني، العدد الثاني، (جمادى الآخرة 1447هـ، ديسمبر 2025)، حيث سعت الدراسة إلى الكشف عن حضور التراث الصوفيّ في الرواية العربيّة، من خلال تحليل رواية (نقطة النور) للروائي (بهاء طاهر)، وذلك برصد تجليّات التصوّف في عتبات الرواية مثل: (العنوان والإهداء والاستهلال والتنويه)، ثمّ تتبّع مظاهر هذا الحضور في بنية النصّ، عبر دراسة الشخصيّات، والأحداث، والفضاءات، اعتمادًا على المنهج الوصفيّ التحليليّ، وقد أسهمت الدراسة في إبراز بعض الدلالات النفسيّة المرتبطة

بهذه التجليّات، غير أنّ اقتصارها على رواية واحدة، إلى جانب التوسّع النسبيّ في التمهيد النظريّ، حدّ من إمكان توسيع المقارنة، وتعميق التحليل التأويليّ، ومع ذلك، تظلّ الدراسة إسهامًا مهمًّا في إبراز حضور المرجعيّة الصوفيّة في الخطاب الروائيّ العربيّ.

يتّضح من خلال استعراض الدراسات السابقة أنّها اهتمّت ببحث حضور الخطاب الصوفي في الرواية العربية المعاصرة، وكشفت عن بعض مظاهر توظيف هذا التراث، وتقنياته اللغويّة والدلاليّة داخل المتن الروائيّ، وغالبًا ما انصرفت إلى تحليل نماذج روائيّة مفردة، أو إلى تناول التجربة الصوفيّة بوصفها مكوّنًا دلاليًا، أو جماليًا في النصّ السرديّ، أمّا الدراسة الحالية فتسعى إلى مقاربة الموضوع من زاوية مختلفة، إذ تتجه إلى تتبّع تجليات التراث الصوفيّ في عدد من روايات روائيّ واحد، مع التركيز على توظيف شخصيّة الوليّ الصالح، ودورها في تشكيل الحدث الروائيّ، وتوجيه مساراته الدلاليّة، ومن ثَمّ فإنّ هذه الدراسة لا تكتفي برصد حضور المرجعيّة الصوفيّة في الخطاب الروائيّ، بل تحاول الكشف عن وظيفتها السرديّة في بناء الحدث، وتشكيل الرؤية الفنيّة للنصّ، بما يتيح قراءة أكثر عمقًا لآليات استثمار التراث الصوفيّ داخل التجربة الروائيّة المدروسة.

مادّة البحث وحدوده:

تتكوّن مادّة البحث، وترتسم حدوده في الآتي:

- المتون الروائيّة: وهي مجموعة من الروايات المختارة للروائيّ محلّ الدّراسة.
- الحدود الموضوعيّة: وهي شخصيّة الوليّ الصّالح بوصفها فاعلًا في تشكيل الحدث.
- الحدود المنهجيّة: تقوم على التّركيز على الوظيفة السرديّة، وليس التتبّع التاريخيّ للتّراث الصوفيّ.

منهج البحث:

ستعتمد الدراسة المنهج الوصفيّ التحليليّ، الذي يقوم على وصف الظواهر الأدبيّة وتحليلها وتفسيرها، لرصد تجلّيات التراث الصوفيّ في النصوص المختارة، كما ستستفيد من أدوات المنهج البنيويّ في تحليل بنية الشخصيّة الروائيّة وعلاقتها بالحدث، وأنماط التحوّل، ومن المنهج الموضوعاتيّ في تتبّع تجليّات التّراث الصوفيّ وموضوعاته في الروايات المختارة، مع الاستئناس بالمنهج الثقافيّ التأويليّ عند الحاجة لتفسير الدلالات الرمزيّة للتوظيف.

المبحث الأوّل:

مفهوم التّراث الصوفيّ وتمثيلاته:

التراث بمعناه العام مصطلح يطلق عمومًا على "المبادلة التناوليّة بين الأجيال المتلاحقة ولكن دون أن يُشترط لمعناه العمق التاريخي" (رمضان، 2002، 12)، وهو بهذا المعنى مصطلح واسع الدلالة، يشمل كلّ ما يتعلّق بالفنون، والعادات، والتقاليد، والأفكار، والمعتقدات، والمعارف، والسلوك بوجه عام، والموضوعات المرتبطة بالفنون الماديّة المتمثّلة في المحسوسات المخلّفة عن الأجيال الماضية، أو أيّ عناصر ماديّة حياتيّة أخرى، ولا يختلف المعنى الاصطلاحي للتراث كثيرًا عن المعنى اللغويّ، إذ يدلّ على انتقال شيءٍ ما عبر الزمن، ويعرّف التراث اصطلاحًا بأنّه: "كلّ ما وصل إلينا من الماضي داخل الحضارة السائدة" (عبدالله د.ت)،

ويلاحظ أنّ كلمة تراث تطلق ويُراد بها الوصف اللاحق بها، فيقال على سبيل المثال: تراث عربي، أو تراث إسلاميّ، أو تراث إنسانيّ.

وإذا كان التراث يمثّل وعاء للهويّة والخصوصيّة الحضاريّة للأمّة، فإنّ التراث الصوفيّ يمتاز بكونه تراثًا مركّبًا، يحتوي عناصر ماديّة وأخرى معنويّة، شكّلت معًا الوجدان الصوفيّ علميًّا وتنظيميًّا وعمرانيًّا، من خلال ما اختصّ به من جوانب سلوكيّة، وروحيّة، وما أبدعه أهله من طرائق كانت بمثابة مدارس، عُنيت بتربية النّفوس وتزكيتها، واتخذت لها أماكن مخصوصة، عرفت باسم الزوايا، أو التكايا، وقد كان لهذا التراث حضورٌ قويٌّ في الثّقافة، والذاكرة المدوّنة والشفويّة، بحيث تبّنته النّخب، وسائر الجمهور، ومن ثمّ فالتراث الصوفي يشمل "كل ما دونه الصوفية بخصوص علومهم شعرا ونثرا، سواء ما تعلق منها بالسير والسلوك، والأحوال والمقامات، أو ما اشتمل على أنظار في الوجود والمعرفة، أو ما اتصل بقضايا المحبة، أو ما كان تسجيلا لمناقب طبقاتهم، أو أوراد و أدعية طرقهم" (غازي 2014)، ومن أبرز تمثّلات هذا التراث التي دأب الأدباء على توظيفها بشكل مستفيض، شخصيّة الوليّ الصّالح، ومفهوم التجلّي الإلهيّ.

الوليّ الصّالح:

الوليّ في اللغة هو القريب، والمحبُّ والناصر، ومن أسمائه عزّ وجل الوليُّ (ابن منظور، 1999، 15/400-401)، والولي عند عامّة المسلمين هو كلّ مسلم تطهّرت روحه عن أدران الدنيا، وتعلّق قلبه بربّه، وأخلص سريرته له، فكان عند الله مكرمًا، وهو عند الصوفيّة وصف خاصٌّ بمن وصل بعد المجاهدة والمكابدة إلى مرحلة من القرب الإلهيّ، جعلته يختصّ بحفظ الله له، وتمكينه من الخوارق، ممّا لا يجري إلاّ على يديه، وقد تطوّر مفهوم الوليّ في الفكر الصوفيّ متأثرًا بمعتقدات الشيعة في أئمتهم المعصومين، حتّى صار للولاية شروطها الخاصّة، وللأولياء صفاتهم المميّزة، ومن أبرز صفات الوليّ الصوفي (عفيفي، 2020، 251-265):

1. الفناء في الله؛ فالوليّ الصوفيّ، لا يرى لنفسه وجودًا أمام وجود الله.
2. العلم اللدنّي؛ فالوليّ عند الصوفيّة، هو من وصل إلى مرحلة من الفناء في الله، جعلته يتلقّى العلم مباشرة عن ربّه، بلا واسطة، من خلال الإلهام والكشف.
3. الكرامة؛ فالوليّ عند الصوفيّة، تأتي على يديه الخوارق، وهي الدليل الماديُّ على ولايته.
4. الحفظ؛ فالوليّ عند الصوفيّة محفوظ من الوقوع في الزلل، أو ارتكاب المعاصي.

ووفق هذه الصفات، وظّف كثير من الأدباء شخصيّة الوليّ الصالح في أعمالهم الأدبيّة، بوصفها شخصيّة، تضفي على النصّ الأدبيّ بعدًا عجائبيًّا، بما تمنحه للسرد من روحانيّة مشبعة بالخيال الصوفيّ، وهي غالبًا شخصيّة مرشدة وموجّهة، تكسر أفق انتظار القارئ، من خلال الكرامة الحسيّة، التي تتجلّى في الخوارق التي تجري على يديها، ما يشدّ انتباه القارئ، ويشبع نهمته إلى التمرّد على الواقع. (عبدالرشيد، 2017-2018، 270-272).

التجلّي الصوفي:

التجلّي في اللغة يحمل معنى وضوح الأمر، وجلاؤه، والإظهار؛ والتجلّي نقيض التخفّي، وجلاء الشيء بمعنى كشفه، وتجلّى الشيءُ؛ أي تكشّف (ابن منظور، 1999، 2/343).

يعدّ التجلّي عند الصوفيّة من الموضوعات التي تتخلل التجربة الروحيّة، وهي تلك الفيوضات التي تنثال على قلب الصوفيّ، ولا تستوعبها اللغة الطبيعيّة، ويعلل الصُوفيّون ذلك بأنَّ مشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار، لا يمكن العبارة عنها على التحقيق؛ بل تُعلم بالمنازلات والمواجيد، وهي معارف تجسّد حالة الصوفيّ الشعوريّة الوجدانيّة في مقام نهائيّ، بعد عبوره لأحوال ومقامات؛ على أنَّ ما يميّز مفهوم الصوفيّة للتجلّي هو قولهم: "أنَّ الوجود هو تمظهر الصفات والأسماء الإلهية". (السعدي، 2024، 264-266).

فالتجلّي عند المتصوّفة هو "رفع حجبة البشرية" (الكلاباذي، 2003، 266)، ومعنى رفع حجبة البشريّة أن يقيم الله المتصوّف تحت موارد ما يبدو من الغيب؛ لأنّ البشريّة لا تستطيع مقاومة أحوال الغيب، فلا بدّ من أن يصاحب التجلّي استتار الأشياء الماديّة عن المتصوّف فلا يراها، والخلاصة أنّ التجلّي عندهم هو ما ينكشف لقلب الصوفيّ من أنوار الغيب.

المبحث الثاني:

أثر التكوين الصوفي في المخيال السردي عند أحمد إبراهيم الفقيه

ينقل سعيد بنكراد عن فيليب هامون قوله: "إذا أخذنا بعين الاعتبار بعض الصفات الدالة على الوظائف الاجتماعية (العامل- الفلاح- الشرطي- الطبيب...) لاحظنا أنّ الشخصيات المحدّدة من خلال هذه الصفات تملك- بشكل قبلي- حمولة دلالية محتملة، إنها تحيل على معنى ممتلئ وثابت داخل نص الثقافة، كما تحيل على أدوار وبرامج واستعمالات مسكوكة... إنّ انضوائها داخل ملفوظ ما، يجعل منها نقطة إرساء مرجعية تحيل على النص الكبير للإيديولوجيا" (بنكراد 2003، 108).

يُعدّ التكوين الروحي والثقافي لأي كاتب من العوامل المؤثرة في تشكيل مخيلته الإبداعية، إذ تتداخل التجارب الحياتية مع المرجعيات الفكرية والروحية؛ لتنتج رؤية خاصة للعالم، تتجلّى في العمل الأدبي، ومن بين المرجعيّات التي تركت أثرًا واضحًا في الأدب العربيّ الحديث المرجعية الصوفية، بما تحمله من نزوع تأمليّ، ورؤية رمزية للوجود، واهتمام بالبعد الباطني للإنسان، وفي هذا السياق يمكن النظر إلى بعض ملامح التجربة السردية عند أحمد إبراهيم الفقيه بوصفها متأثرة بدرجات متفاوتة بمناخ روحيٍّ قريب من الحسّ الصوفيّ، وهو ما يظهر في طبيعة المخيال الذي تتأسّس عليه عوالمه الروائية، وفي حضور مفاهيم مثل الرحلة، والبحث عن الحقيقة، والمدينة المثالية، والصراع الداخلي للذات.

ممّا لا يحتاج الباحث إلى كدّ الذهن فيه، أن يلاحظ أن العديد من أحداث روايات الفقيه، تجري في بيئة ثقافيّة مرجعيّة، تؤمن بمعجزات الأولياء الصالحين، ورجال الله القادرين على تغيير حياة الناس، وشفاء أمراضهم بمجرّد تلاوة الأوراد والتعاويذ، وتعجّ تلك الروايات بشخصيّات الدراويش الهائمين، الذين يتجوّلون في عوالم الأسياد الخفيّين، حيث تؤدّي شخصيّات الأولياء دورها الدينيّ في معظم رواياته؛ لتعكس الشخصيّة الحقيقيّة للوليّ في الفكر الصوفيّ، الذي يتمتّع بذات السّمات والخصائص النفسيّة، التي يتمتّع بها الأولياء الصوفيّون، والذي يعتنق ذات الآراء الفكريّة التي يعتنقونها، وتجري على يديه الخوارق التي تجري على أيديهم، حيث يظهر الوليّ الصالح، في صورة الشيخ التقيّ، الذي تنقّت روحه من الشوائب الدنيويّة، والذي كرّس حياته كلّها لربّه، والذي وصل إلى درجة من الاتّحاد، جعلته بطلًا خارقًا، مؤيّدًا بالآيات الربّانيّة، بما يمتلكه من قدرة على إجراء المعجزات، وخوارق العادات،

ويشمل ذلك تجاوز حدود الزّمان والمكان، ونقل النّاس إلى عوالم أخرى، وإنقاذ حياتهم من الهلاك، بل إنّه قادر على تجلّي الغيب، ومعرفة ما يدور في أذهان الآخرين، والتنبؤ بما سيحدث لهم في المستقبل، (الفقيه 1991، 20) (2008، 47).

ولعلّ هذا الزحام الظاهر في توظيف الفقيه لهذه الشخصيّة في نصوصه الروائيّة، والتزامه بوصفها بذات الصفات التي هي عليها في البيئة الليبيّة الشعبيّة، المؤمنة بأولئك الرجال، هو ما جعل الناقد (فاروق منيب)، في مقال بعنوان (البحر لا ماء فيه) نُشر بصحيفة القاهرة المصريّة، يصف الفقيه بأنّه: "قاصّ عربيّ جديد، يعدنا بالكثير، لو اعتنى بميزاته الفنيّة، وطوّر تجاربه في الحياة، وابتعد في سرده عن بقايا أسلوب المبالغة، والتهويل، والشطحات، والرومانسية المفتعلة" (1966).

والحقّ أنّ منيب قد جانب الصواب في حكمه هذا، فهو يصف خيارات الفقيه الفنيّة بأنّها تحليق مبالغ فيه في عالم الخيال، وشطحات ورومانسية مصطنعة، ما جعله يحكم بأنّها عيب فنّي، يجب على الفقيه التخلّص منه؛ وكان الانصاف يقتضي أن ينظر منيب إلى هذه الظاهرة من خلال الواقع، ومن خلال جذورها الدينيّة العميقة، فقد حفل الفقيه بما حفل به الأدباء العرب عبر العصور، واستخدم ما استخدموه في إطار خياليّ؛ ذلك أنّ المبالغة والتهويل، ليست بالضرورة عيبًا فنيًّا في السرد القصصيّ التخييليّ، خاصّة ذلك النوع من الأعمال السرديّة التي توظّف الخطاب الصوفيّ؛ لأنّ طبيعة هذا الخطاب ذاته، أنّه خطاب قائم على الشطحات، التي تتجاوز العقل والمنطق؛ لذلك يحتاج السارد الذي يتبنّاه إلى لغة متطرّفة عاطفيًّا، لتلائم طبيعته الروحيّة، وهكذا تغدو المبالغة والتهويل وسيلة فنيّة، وميزة تخييليّة، ومنطق جوهريّ في تلك النصوص، التي توظّف ذلك الخطاب ضمن السياق العجائبيّ.

يتضح ممّا سبق أنّ التكوين الروحيّ للفقيه، الذي تشكّل في بيئة قريبة من الحسّ الصوفيّ، قد أسهم في إغناء المخيال السردي عنده، فانعكس في نزوعه التأمليّ، وفي توظيف الرموز الصوفيّة، وفي حضور شخصيّة الولي، بوصفها شخصيّة مساعدة، إضافة إلى التوتر بين المثال والواقع في صورة المدينة، وتعميق البعد النفسيّ للشخصيّات، ولا يُقصد باستحضار هذا البعد ردّ تجربة الفقيه إلى مصدر واحد، بل الكشف عن أحد الروافد التي أسهمت في تشكيل عالمه السردي.

المبحث الثالث:

الوليّ الصالح في التجربة الروائيّة للفقيه:

لقد تنوّعت شخصيّة الوليُّ الصالح باعتبارها شخصيّة ذات كرامات في أعمال الفقيه الروائيّة، وهي في العموم تقدّم باعتبارها شخصيّة قد حازت من التجليّات الإلهيّة ما كُشف لها به حجب الغيب، وصارت قادرة على إحداث أثر في مسار الأحداث، ومن أبرز هذه التجليّات:

الولي طبيب للأبدان والأرواح:

يظهر الولي الصالح في بعض الأعمال الروائيّة للفقيه بوصفه طبيبًا روحيًّا، يقوم بعلاج الأجساد والأرواح، بواسطة الأوراد والتعازيم والأدعية والرقى والتمائم، مع ما يقدّمه من نصائح وإرشادات تساعد المرضى على تجاوز مشاكلهم الروحيّة، وأمراضهم البدنيّة، فهو طبيبٌ روحيٌّ، يقصده الناس حيًّا ليتبرّكوا بدعائه لهم، أو ميّتاً ليتبرّكوا بمقامه الطاهر، ومن نماذج هذه الشخصيّة، ما عرضه الفقيه في روايته (هذه تخوم مملكتي)، الجزء الثاني من ثلاثيّته الشهيرة، حيث ينهض الشيخ (الصادق أبو الخيرات) بمهمّة

علاج البطل من أمراضه النفسيّة، التي كادت تودي به إلى الانتحار، وقد مهّد السارد لظهور هذه الشخصيّة على مسرح أحداث الرواية بما قدّمه على لسان البطل (خليل الإمام)، الذي وصف الشيخ بأنّه فقيه صاحب كرامات، يكتب الأحجبة، ويطرد الجنّ، ويعالج النساء العقيمات، وهي مواصفات وليٍّ صوفيٍّ بامتياز (الفقيه 2008، 18-19).

وبالفعل يضطلع الشيخ بمهمّة علاج البطل عبر رحلة في عالم ألف ليلة وليلة، تنطلق من مقام الشيخ، وتسير بهدايته، يلتقي البطل فيها بأناس من عوالم أخرى، ويرى مناظر، ويعيش أحداثًا، يعود بعدها إلى عالم الواقع وقد شُفي من كلّ ما كان يعانيه من وساوس وهموم، وهو مقتنع تمامًا أنّ شفاءه ما كان ليتمّ لولا تدخّل الشيخ الصالح.

ومثاله ما قام به الشيخ (مولاي الصافي)، القادم من بلاد المغرب الأقصى، الذي عالج امرأة من قبيلة المقاطيع، كانت تعاني من المرض؛ بسبب تلبّس الجنّي بها، ويصف الراوي ما وقع في جلسة المعالجة، من قراءة للأوراد والتعازيم، ومن ضرب للمرأة بقصد إيذاء الجنّ، الذي استسلم أخيرًا للشيخ، وراح يقصّ على الشيخ والحاضرين قصصًا عن بلدان وممالك، ويذكر أسماء ملوك ما كان لامرأة بدويّة عاشت حياتها كلّها في قلب الصحراء أن تعرف عنها شيئًا (الفقيه، 2008، 129-130)، ونظيره ما قام به الوليّ الصالح (سيدي البلبال)، الذي عالج مرض زوجة المارشال بالبو(الفقيه، 2008، 47).

كما يظهر الوليّ الصالح طبيبًا يُذهب الأذى عن الناس بمجرّد أن يمسح بيده على المبتلى، فيذهب ما به من بأس، كما فعل ذلك الولي الصالح من بلدة (القنطارة) الذي خرج يبحث عن أرض نائية، لا يصل إليها بشر، لينقطع فيها للعبادة والتأمّل، ووجد بقعة خالية إلاّ من حمامة، ألِفهَا ذلك الشيخ وألفته، فصار يناجيها بأوراده وتسابيحه، فإذا بالحمامة، تتحوّل إلى امرأة ذات حسن وجمال، بفعل كرامات ذلك الوليّ الصالح، الذي شفاها من السحر الأسود، الذي مسخها إلى حمامة، لتصبح فيما بعد زوجة له (الفقيه، 2000، 93-94).

الولي الصالح منقذ من الكوارث والأزمات:

ينبري الوليّ الصالح بوصفه شخصيّة ذات كرامات وخوارق، لينقذ الأفراد والجماعات من الكوارث والأزمات، حين يتدخّل في أحلك اللحظات لمواجهة الخطر الداهم، فمن خلال قدراته الخارقة، يتحكّم في مجريات الأحداث، ويقدّم العون في الوقت المناسب، فبدعائه تحلّ البركة، وتحدث المعجزة، وتنبت الزروع من جديد بعد حصادها، حتّى يشبع الجياع (الفقيه، 2000، 37).

وعندما يتوه المسافرون في الصحراء القاحلة، ويقاربون على الهلاك بسبب العطش، تتجلّى كرامته في هداية القافلة إلى نبع الماء(الفقيه، 2008، 244-245).

وعندما تصبح القبيلة بلا مأوى، تهيم في الهيماء، ينبرى الوليّ الصالح ليهيئ لهم المكان للسكنى، فترضخ هوامُ الأرض ووحوشها لأوامره، وتخلي له المكان؛ ليتّخذه ومن معه سكنًا ووطنًا(الفقيه، 2008، 217-218).

والوليّ الصالح هو الحامي، الذي يذبّ ببركاته عن أهل قريته، فإذا رفعها عنهم نُكبوا بكلّ ما يسوؤهم، وهو المنتقم، الذي إذا غضب على الناس، حلّ عليهم سخطه ومقته، ووقعت لعنته على من خالفه، فلا رادّ لعقوبته إلاّ بأمره وعفوه(الفقيه، 2008، 23-24).

الولي مرشد روحي:

لعلّ من أبرز الأدوار التي تُناط بشخصيّة الوليّ الصالح في روايات الفقيه عمومًا، هو دور المرشد للشخصيّات، حيث يلجأ النّاس إلى الأولياء الصالحين، أو يتطوّع أولئك الأولياء بأنفسهم لإسداء النّصح، وتقديم الإرشاد، الذي يمكّن الشخصيّات من اتخاذ القرارات الصائبة، وتجاوز الأزمات، وتخطّي العقبات، ومن صور هذا الإرشاد والتوجيه، في رواية (حقول الرماد)، ما قام به الشيخ (نصرالدين) إمام مسجد قرية عين الغزال، وعالمها المبجّل، الرجل المشهود له بالكرامات والمكاشفات، الذي تجلّت إحدى كراماته في سؤاله لعامر اليتيم عن ابنته جميلة، ونصيحته المبطّنة له، بالتحذير بأنّ جميلة أمانة في عنقه، عليه أن يحافظ عليها (الفقيه، 1999، 45)، وهو تحذير أوّله السارد بأنّه دليلٌ على أنّ الشيخ قد كُشف له حجاب الغيب، فعلم أنّ مكروهًا ما سيقع في المستقبل لتلك المرأة, فبصيرة الأولياء مكّنته من التنبؤ بالخطر قبل وقوعه (الفقيه، 1999، 46).

وربّما تعدّى الإرشاد حدود النصح، ليتحوّل الوليّ إلى دليل يرشد الشخصيّة في رحلتها في عوالم الغيب، ومثاله ما قام به الوليّ الصالح الشيخ (الصادق أبو الخيرات)، صاحب القدرات الخارقة، فقد قام بنقل البطل خليل الإمام في رحلة خياليّة إلى عوالم عجائبيّة، وصفها السارد بأنّها أقرب إلى عوالم ألف ليلة وليلة، حيث تحرّر البطل فيها من قيود الزمان، الذي هو العصر الحديث، والمكان الذي هو مدينة طرابلس، وارتحل بهداية الولي الصالح وإرشاده في رحلة استغرقت سنة كاملة، التقي فيها البطل بعوالم غريبة، وتعرّف على شخصيّات، كالتي تحكي عنها الليالي، وعاش طقوسًا وساهم في صناعة أحداث (الفقيه، 1991).

وقد يتجاوز الوليّ الصالح حتّى دور الدليل، ليشارك بنفسه في رحلة البطل، حين يقود الوليّ الصالح الرحلة بنفسه، كما فعل الشيخ مولاي الصافي، الذي اصطحب معه البطل عثمان الحبشي في رحلة إلى مدينة الجن أسفل مدينة قرزة المهجورة (الفقيه، 2008، 158-163).

الوليّ الصالح رمز للحبّ والحكمة:

لمّا كانت شخصيّة الوليّ الصالح شخصيّة دينيّة، تنبع من روح الدين، وتجسّد تسامحه، كان الغالب إظهارها بوصفها رمزًا للخير، وأنموذجًا للحبّ الصافي، ومثالاً للحكمة، حيث يقدّم الوليّ الصالح بقوله وبفعله دروسًا قيّمة عن الخير، وعن الحياة، وعن القيم الأخلاقيّة، ما ينعكس إيجابًا في تشكيل مواقف الشخصيّات، وسيرورة الأحداث الروائيّة، ومن الشخصيّات التي اجتمع فيها الحبّ والحكمة الصوفية، شخصيّة الشيخ (الصادق أبو الخيرات)، في رواية (هذه تخوم مملكتي)، حيث انبرى الشيخ في أقصى درجات يأس البطل، وأشدّ مراحل مرضه؛ ليأخذ بيده في رحلة علاجيّة بدأت من ضريح ذلك الشيخ، وانتهت إليه، ليعود البطل وقد شفي ممّا كان يعانيه من مرض نفسيّ، كاد يقوده إلى الجنون (الفقيه، 1991، 26)، ومثاله صنيع الشيخ (نصر الدين)، إمام مسجد قرية عين الغزال، الذي كان دائمًا يوصي عامر اليتيم بالمحافظة على ابنته جميلة، وينصحه بأنّها أمانة في عنقه، عليه أن يحافظ عليها (الفقيه، 1999، 45)، ونظيره ما كانت تكنّه قبيلة المقاطيع للولي الصالح (الشيخ صالح)، من حبّ، فهو الذي قام بجمع شراذم تلك القبيلة في ذلك المكان من الصحراء، الذي تحيط به الجبال العالية من كلّ جانب، وليس به إلاّ منفذٌ صغير، ونبعٌ للمياه يتفجّر بين تلك الصخور، وهو مكان هجرته القبائل الأخرى خوفًا ممّا فيه من غيلان، وتنّين ينفث النار، ما أثار رعب تلك القبائل، حتّى جاء هذا الرجل المبارك، ورفع يديه مبتهلا إلى الله، أن يخلي ذلك المكان له ولمن معه من أبناء تلك القبيلة؛

فاستجاب الله دعاءه، وخرجت تلك الكائنات بعيدًا عن تلك المنطقة، التي اتخذها ومن معه من المقاطيع موطنًا لهم (الفقيه، 2008، 217-218).

الولي الصالح المعلم الحكيم المطلع على الغيب:

يلعب الولي الصالح دور المعلم الحكيم، حيث تتجلّى كرامته في تعليم الشخصيّات دروسًا قيّمة عن الحياة، وعن القيم الأخلاقيّة، أو كيف يتصرّفون في المواقف التي ستقع لهم في المستقبل؛ هذا الدور الذي ينعكس إيجابًا في تشكيل الشخصيّات الروائيّة المصاحبة له، حيث تغيير مواقفها من الحياة؛ مثاله ما أخبر به الوليّ الصّالح (سيدي البلبال) مرافقه (عثمان الحبشي)، بأنّ (المارشال بالبو) سوف يلقى حتفه على يد جنوده الطليان، وليس على يد الليبيّين، ما جعل بطل الرواية- المؤمن بكرامات الشيخ، والمقتنع بصدق نبوءاته- يطمئنّ على سلامة المارشال من أنْ يصيبه أيُّ مكروهٍ أثناء مرافقته له، وهو يسير متخفيًّا في زيّ التاجر المغربيّ، أثناء جولته في المدينة القديمة (الفقيه، 2008، 164).

ومثاله تلك البشارة التي نقلتها (نوريّة) لعثمان الحبشي في سجنه عن المرأة الصالحة من أهل الفلاح، التي أنبأتها بأنّه سوف يخرج من سجنه قريبًا، وينطلق وراء الحدود، وأنّه سوف يعود من سفره هذا منتصرًا، ليتمكّن من استرجاع ما ضاع منه، هذه المكاشفة التي قادت الأجزاء التالية للراوية حتّى آخرها (الفقيه، 2008، 166)، وهي المكاشفة التي كان لها دور بارز في رسم مسار الأحداث الروائيّة فيما بعد، فقد هيّأت للأحداث اللاحقة، التي تمثّلت في سفر البطل إلى الحبشة، وخوضه الحرب هناك، ثم عودته بلقب الحبشي، وتحوّله إلى رجلٍ وطنيٍ، يكره الاستعمار، ويكافح لاسترجاع وطنيّته، وكرامته التي سُلبت منه.

كما إنّ الوليّ الصالح المطلع على الغيب، يكون قادرًا على معرفة من يطرق باب بيته، قبل أن يفتح له، فقد كان الشيخ (سيدي البلبال)، قادرًا على معرفة من يزوره قبل أن يفتح له الباب، فعندما مرضت زوجة المارشال (بالبو)، أرسلت بطل الرواية (عثمان الحبشي)؛ لإحضار الشيخ، فوجد البطل الشيخ في انتظاره مرتديًا جلبابه، وطاقيّته الأبيضين، شاكرًا له صنيعه؛ لأنّه جاء في وقته تمامًا، ما أثار دهشة البطل، الذي كان على يقين تامّ بأنّ زوجة المارشال، لم ترسل للشيخ خبرًا مسبقًا باحتياجها إليه، والشيخ لا يملك هاتفًا يهاتفها به، إلاّ هاتف الغيب، الذي يزوّده بتلك المعارف، والمعلومات، وهي خوارق لا يستطيعها إلاّ من كانت لديه تلك المعرفة المكتسبة عن طريق العلم اللدني (الفقيه، 2008، 222).

وفي العموم فقد لعبت شخصيّة الوليّ الصالح، بقدراتها الخارقة للطبيعة، دورًا بارزًا في خلق العوالم السحريّة التي أنشأها هؤلاء الرجال المباركون، بما ضمن للكاتب جذب انتباه القرّاء إلى رواياته، من خلال خلق أحداث غريبة وساحرة، بالاعتماد على القدرات الخارقة للطبيعة لهؤلاء الأولياء الصالحين .

النتائج:

يهدي استقراء النصوص الروائيّة التي وظف فيها الفقيه شخصيّة الوليّ الصالح إلى استنتاج أنّه كان مهتمًّا بتوظيف هذه الشخصيّة، متبنّيًا أسلوبًا سرديًّا متأثرًا بشكل كبير بالتراث الصوفيّ، ما يدلّ على إيمان عميق بمعجزات أولئك الصالحين، وتأثّرٍ كبير بموروثات شعبيّة، ترتبط أساسًا بالتقاليد الصوفيّة، وقد تجلّى هذا الاستخدام في صور متعدّدة، أمّا سردًا مباشرًا، أو حدثًا مفاجئًا

يقلب موازين السرد، أو معجزة تتخطّى حدود الزمان والمكان الطبيعيّين، حيث تتحرّك الشخصيّات ضمن عوالم متخيّلة، أو تشارك في أحداث خارقة للطبيعة، تساهم فيها بشكل فعال.

وفي ضوء ما سبق يتجلّى تأثير شخصيّة الوليّ الصالح في تشكّل الأحداث الروائيّة بفعل الكرامة، بوصفها محرّكًا بنيويًّا للسرد، حيث يظهر هذا التأثير في تحريك السرد، أو تعطيله، فالولي الذي تجلّت له حجب الغيب، صار قادرًا من خلال كراماته على تغيير مسار القصّة من خلال مستويات أربعة هي:

1. مستوى التحفيز:

حيث يضطلع الوليّ بدور المحفّز، الذي يدفع البطل في اتجاه الخروج من حالة اليأس، ففي رواية (هذه تخوم مملكتي)، كان السرد متجهًا نحو النهاية، عندما قرّر البطل الانتحار، ولكنّ تدخّل الشيخ (الصادق أبو الخيرات)، أعاد تحريك السرد عبر الرحلة العلاجيّة، التي استغرقت سنة كاملة، فاتحًا آفاقًا قصصيّة جديدة، لم تكن ممكنة في الواقع الطبيعيّ.

2. التعطيل الزمني والمكاني:

لأنّ الوليّ الصالح، يمتلك القدرة على تعطيل قوانين الطبيعة والواقع لصالح عوالمه العجائبيّة، فهو قادر على أخذ البطل في رحلة عجائبيّة إلى عوالم ما وراء الطبيعة، كما حصل مع (عثمان الحبشي)، الذي دخل مع الوليّ الصالح (مولاي الصافي) إلى مدينة الجنّ، حيث تمّ تعطيل السرد الواقعيّ التقليديّ، ليحلّ محله سرد عجائبيّ، تتحرّر فيه الشخصيّة من قيود العصر الحديث، وتدخل مع دليلها الروحيّ في فضاءات ألف ليلة وليلة.

3. خلق أحداث موازية:

لم يكن الوليّ في روايات الفقيه مجرّد شخصيّة عابرة، بل هو في الحقيقة صانع أحداث، فهو الذي يهيئ مكان السكنى للقبيلة؛ لأنّ كراماته هي التي أخرجت الوحوش من الكهوف، فصارت الصحراء أمنة لقبيلة المقاطيع، وهو الذي يشفي المسحور؛ ممّا يعني أنّ وجود الوليّ يخلق العقدة، كما يساهم في حلّها ضمن نسيج الرواية.

ولمّا كانت الكرامة في نصوص الفقيه بهذه الأهميّة الفنيّة، والقدرة على خلق التحوّلات الحاسمة في مسار السرد، فإنّها تحوّلت إلى خارطة طريق للسرد، فعندما تنبأ الولي الصالح (سيدي البلبال)، بموت (المارشال بالبو)، وعندما تنبأت المرأة الصالحة بخروج (عثمان الحبشي)، من سجنه، انتقلت الرواية من حالة الحيرة إلى حالة الاستشراف، وهكذا قادت النبوءات الأجزاء اللاحقة للاثني عشرية، ورسمت مسار الأحداث اللاحقة، التي تمثّلت في سفر (عثمان الحبشيّ) إلى الحبشة، وخوضه الحرب، والعودة باللقب.

4. الكرامة منقذ من التأزم السردي.

عندما يصل السرد إلى طريق مسدود، عبر حدوث كارثة، تتمثّل في عطش مهلك في الصحراء، أو تيه متلف للقبيلة، أو مرض يكاد يفتك بالبطل، تتدخّل الكرامة لتقلب موازين القوى، فبفضل الكرامة، تحوّلت الحمامة إلى امرأة، وانفجر الماء في الصحراء، ما ينقل الرواية من مشهد المأساة، إلى مشهد النجاة والخلاص.

ولا تقتصر الكرامة على إحداث التحوّل الماديّ فحسب، بل هي قادرة كذلك على إحداث تحوّل نفسيّ في بنية الشخصيّة، فبطل الثلاثيّة (خليل الإمام)، لم يشفَ جسديًّا فحسب، بل تحوّل فكريًّا ونفسيًّا بفضل كرامات الولي الصالح، ما غيّر مواقفه من الحياة والواقع.

وهكذا فإنّ الوليّ الصالح في أدب الفقيه هو ضابط الإيقاع، الذي يتحكّم في إيقاع السرد، والضامن لعدم خروج الأحداث عن النسق؛ فبكراماته يسرّع الروائيّ الأحداث، أو يبدلها، وبهدي بصيرته يمهّد للأحداث القادمة، ما جعل النصّ الروائيّ، يخرج من إطاره الواقعيّ الضيّق، إلى فضاء الواقعيّة السحريّة، المستمدّة من التراث الصوفيّ، وهو ما يؤكّد ما ذهبت إليه الدراسة قبلاً، من أنّ وصف هذا التوظيف بأنّه شطحات رومانسيّة مفتعلة فيه تجنٍّ كبير على التخييل الأدبيّ.

والخلاصة، إنّه من الواضح أنّ الفقيه، في توظيفه لشخصيّة الوليّ الصالح، يتماهى مع الفكر الصوفيّ، ويتوافق مع الاعتقاد الشعبيّ في قدرات الأولياء الخارقة للطبيعة، دون انتقاد، أو محاورة لتلك المعتقدات، بل يقدّمها باعتبارها حقائق مسلّمًا بها ضمن نسيجه الروائيّ، وقد حقّقت له هذه التقنية الغاية التي كان يرومها، من خلال اسباغ صفة العجائبيّة على عوالمه الروائيّة، وخلق متعة القراءة، التي تتحقّق من خلال كسر رتابة الواقع، وتنشيط الخيال، وتجاوز المألوف، وإثارة الفضول، وهكذا لم تكن شخصيّة الوليّ مجرّد شخصيّة عابرة في أحداثه الروائيّة، بل هي مرآة تجعل القارئ يبتعد عن الواقع، لا لينفصل عنه، بل ليفهمه بشكل أعمق.

المراجع:

1. بنكراد، سعيد، (2003)، *سيميولوجية الشخصيات السردية رواية الشراع والعاصفة لحنا مينا نموذجا*، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع.
2. رمضان، علاء الدين، (رجب 1423- سبتمبر 2002)، *المأثورات الشعبية*، مجلة الشورى، (ع407).
3. السعدي، أمين أحمد عبد الله، (2024)، *التجلي الإلهي في المفهوم الصوفي أقسامه وآثاره*، مجلة الدراسات العقدية، المملكة السعودية، (ع33).
4. عبدالرشيد، هميسي، (2017-2018)، *حضور التصوّف في الخطاب الروائي العربي المعاصر بعض الروايات العربية أنموذجا*، [أطروحة دكتوراة]، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر.
5. عبدالله، يوسف محمد، *الحفاظ على الموروث الثقافي والحضاري وسبل تنميته*، الجمهورية اليمنية، المركز القومي للمعلومات، متاح على الرابط الإلكتروني:
https://yemennic.com/sectors/detail.php?ID=32319
6. عبدالواحد، رحال،(2014-2015م)، *التجريب في النصّ الروائي الجزائري*، [أطروحة دكتوراة]، جامعة العربي بن مهيدي، أمّ البواقي، الجمهورية الجزائرية.
7. عفيفي، أبو العلاء، (2020)، *التصوف الثورة الروحيّة في الإسلام*، مؤسسة هنداوي.

8. غازي، عبدالصمد، *التراث الصوفي وسؤال التحقيق والتحقق*، دراسة، موقع الرابطة المحمديّة للعلماء، المملكة المغربية، تاريخ النشر: (2014/8/11)، تاريخ الدخول: (2026/2/7)، الرابط: https://www.arrabita.ma

9. الفقيه، أحمد إبراهيم، (1991)، *الثلاثية، (هذه تخوم مملكتي)*، رياض الريس للكتب والنشر, (ط1).

10. الفقيه، أحمد إبراهيم، (1999)، *حقول الرماد*, *دار الشروق*, القاهرة، (ط1).

11. الفقيه، أحمد إبراهيم، (2000)، *فئران بلا جحور*, دار الهلال.

12. الفقيه، أحمد إبر اهيم، (2008)، *خرائط الروح، (أفراح أثمة)*، رياض الريس للكتب والنشر, (ط1).

13. الفقيه، أحمد إبراهيم، (2008)، *خرائط الروح, (عارية تركض الروح)*، رياض الريس للكتب والنشر, (ط1).

14. الفقيه، أحمد إبراهيم، (2008)، *خرائط الروح، (هكذا غنّت الجنّيات)*، رياض الريس للكتب والنشر, (ط1).

15. الكلاباذي، أبي بكر محمد بن إسحاق البخاري، (1434)، *التعرف لمذهب أهل التصوف*، (تقديم، ابن الصديق، عبدالمنعم بن عبدالعزيز)، (تحقيق، الطيب، محمد عبداللطيف)، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط1).

16. ابن منظور، (1999)، *لسان العرب*، (تحقيق، عبدالوهاب، أمين محمد، والعبيدي، محمد الصادق)، (ج15)، (ط3)، دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت.

منيب، فاروق، (1966)، *(البحر لا ماء فيه)*، مقال، صحيفة الجمهورية، القاهرة.

University of Benghazi
Faculty of Education Al Marj

جامعة بنغازي
كلية التربية – المرج

ISSN 2518-5845

المجلة الليبية العالمية

Global Libyan Journal

العدد الثالث والسبعون /أبريل 2026م

التداخل اللغوي وأثره في تعليم اللغة العربية لدى الناطقين بغيرها

أحمد غربا

قسم الفنون وتعليم العلوم الاجتماعية جامعة كاشير الفيدرالية ، نيجيريا

Ahmadgarba315@gmail.com

IMPACT OF LINGUISTICS INTERFERENCE ON TEACHING ARABIC LANGUAGE TO NON-NATIVE SPEAKERS

Ahmad Garba

Department of Arts and Social Science Education.
Federal University of Kashere, Nigeria

الملخص:

تؤثر اللغة الأولى على تعلم اللغة العربية بوصفها لغةً ثانيةً، ويعتمد هذا التأثير بشكل رئيسي على عوامل سياقية، مثل بيئة الفصل، وهذا يدل على أن اللغة الأولى تُصبح مفيدة لتعلم اللغة الأجنبية عندما تعمل هذه العوامل لصالح اللغتين، وتشير العديد من النتائج الواردة في الأدبيات إلى أن اللغة الأولى تلعب دورًا مؤثرًا في تعلم اللغة العربية، ويمكن أن يكون الإقناع إيجابيًا أو سلبيًا، وذلك حسب مستوى التعرض للغة الثاني، وقد اعتمدت هذه الدراسة منهجاً وصفيًا لدراسة أثر اللغة الأولى على تعليم وتعلم اللغة العربية لغةً ثانيةً من خلال منظور التداخل اللغوي، استخدم الباحث الملاحظة والمقابلة أدواتٍ لجمع البيانات، كما استخدم تحليل المحتوى النوعي منهجاً لتحليل البيانات، وتشير النتائج إلى أن اللغة الأم للمتعلمين تعيق تعلمهم للغة العربية لغةً ثانيةً أو لغةً أجنبيةً، وتعرقل نجاحهم الأكاديمي؛ لذايُنصح بشدة بالتعليم ثنائي اللغة الطرحي لتوسيع نطاق اللغة العربية لدى المتعلمين.

الكلمات المفتاحية: تداخل لغوي، لغة ثانية، لغة عربية، لغة أجنبية.

Abstract:

The first language influences the learning of Arabic as a second language. This influence is primarily dependent on contextual factors, such as the classroom environment. This suggests that the first language becomes beneficial for foreign language learning when these factors work in favor of both languages. Numerous findings in the literature indicate that the first language plays a significant role in Arabic language learning. This influence can be positive or negative, depending on the level of exposure to the second language. This study employed a qualitative descriptive design to investigate the impact of the first language on the teaching and learning of Arabic as a second language from a language interference perspective. The researchers used non-participatory observations and interviews as data collection tools and qualitative content analysis as the data analysis methodology. The results indicate that learners' native language hinders their learning of Arabic as a second or foreign language and impedes their academic success. Therefore, bilingual education is strongly recommended to broaden learners' Arabic language proficiency.

Keywords: language interference, second language, Arabic language, foreign language.

المقدمة:

تُعد اللغة العربية وسيلة تواصل عالمي، لغة التدريس والتعلم في العديد من الدول، بما في ذلك نيجيريا، وفي نيجيريا، يُعدّ إتقان اللغة العربية شرطًا أساسيًا للنجاح التعليمي والتقدم الاجتماعي والاقتصادي في بعض المجالات؛ ولهذا السبب، ينقسم الباحثون حول فائدة معرفة اللغة الأولى في تعلم اللغة الثانية أو الأجنبي، يرى البعض أن معرفة اللغة الأولى لا تُفيد في تعلم اللغة الثانية، بل تُسبب تشتتًا وارتباكًا، مما يُؤدي إلى ضعف في اكتساب اللغة الثانية؛ ومن ثم، يُقرّ باحثون آخرون بأهمية اللغة الأم في تعلم اللغة الثانية، ويرى الباحث أن النقل الإيجابي للمعرفة باللغة الأولى يُصبح مفيدًا لتعلم اللغة العربية كلغة ثانية، خاصةً عند التعرض المكثف للغة الثاني، ومع ذلك يُقرّ هؤلاء الباحثون بأن التعرض المحدود للغة الثانية يُؤدي إلى النقل السلبي للمعرفة باللغة الأولى، مما يُؤدي إلى التداخل. ومع ذلك، فإنهم يؤكدون على فكرة أن اللغة الأولى تلعب دورًا أساسيًا في اكتساب وتعلم اللغة العربية كلغة ثانية. (درخشان وكريم2015م، ص 12)، ويحدد مستوى التعرض للغة نتيجة تأثير معرفة اللغة الأم. وقد شرح حياة (1998م، ص 34) فكرة الصلة بين اللغتين الأولى والثانية، مسلطًا الضوء على أوجه التشابه والاختلاف الأساسية بين اللغتين الأولى والثانية. وتجلى للباحث في هذا السياق، أن مستوى الاختلافات بين اللغتين يدل على مستوى التحديات التي يجب مواجهتها في عملية تعلم اللغة الثانية. وفي الوقت نفسه، فإن عدد أوجه التشابه في كل من اللغتين الأولى والثانية يدل على البساطة، إن لم يكن السهولة، في عملية تعلم اللغة الثانية، بمعنى آخر عندما يختلف هيكل اللغتين الأولى والثانية، ستكون هناك فرص أكبر للمتعلمين لمواجهة صعوبات، إن لم يكن نقلًا سلبيًا للمعرفة، مما يؤدي إلى التداخل .يُعدّ تداخل اللغة الأم عاملاً أساسياً يؤثر سلباً على تعلم المتعلمين للغة الثانية،وأما عند لشوكوي (2016م، ص 89) يواجه معظم الطلاب النيجيريين تحديات في عملية تعلم اللغة العربية. لذلك، يجب أن يتعرض المتعلمون بشكل مكثف للغة الثانية لتنمية مهاراتهم اللغوية بشكل هادف،و من ثم تهدف هذه الدراسة إلى دراسة دروس اللغة العربية مع التركيز على التفاعلات بين المعلمين والمتعلمين وكيفية استخدام اللغة لتحديد تداخل اللغة الأولى.

مفهوم التداخل اللغوي:

وقد عرفه هداية والديب بأنه تشويش تعلم اللغة الثانية الناتج عن نقل المتعلم لعادات وأنماط لغته الأم إلى اللغة الهدف، أو تقريب عادات وأنماط اللغة الهدف إلى ما يشابهها في لغته الأم، أو تجنب بعض أنماط اللغة الهدف بسبب صعوبتها واختلافها أو عدم وجودها في لغة الأم، (هداية والديب 2013م، ص 26). ويقول توردالييفيتش (2022م، ص 45) إن مصطلح "التداخل" هو التغيير في النظام اللغوي للغة، الناتج عن التفاعل بين تلك اللغة وجوانب لغوية أخرى، كما يُلاحظ لدى الأفراد ثنائيي اللغة. المتحدثون ثنائيو اللغة هم الأفراد الذين يستخدمون لغتين بإتقان، بينما يمتلك المتحدثون متعددو اللغات القدرة على استخدام العديد من اللغات بطلاقة بالتبادل. يشير التداخل إلى الأوقات التي ينحرف فيها المتحدثون ثنائيو اللغة عن المعايير اللغوية للغة معينة بسبب معرفتهم بالعديد من اللغات، الناتجة عن التفاعل اللغوي. تُظهر ظاهرة التداخل المعروفة غالبًا باسم نقل اللغة أوجه تشابه مع النظريات السلوكية لاكتساب اللغة الثانية (L2) من المسلّم به عمومًا أن نقل اللغة، الناتج عن تأثير اللغة الأولى (L1) لدى المتعلم أمر شائع. لقد أثّر استخدام اللغة الأم على ميل المتحدث إلى التفاعل باستخدام لغات ثانية أو ثالثة في البيئة التعليمية. ومن التحديات السائدة في اكتساب لغة أجنبية التداخل اللغوي. ويمكن أن يحدث التداخل عبر مجالات لغوية مختلفة، بما في ذلك علم الأصوات، وعلم الصرف، وعلم النحو، وعلم الدلالة، وعلم التداولية، والمعجم. (لينون 2008م، ص 90). وقد ذكر ديرخشان وكريم (2015م، ص 15) أن التداخل يشير إلى العوائق التي تنشأ عن الميل إلى الاعتماد على اللغة

الأم أو اللغة الأولى أثناء اكتساب الكفاءة في لغة ثانية أو مكتسبة، ونتيجة لذلك هناك انتقال للجوانب السلبية من اللغة الأم أو اللغة الأولى إلى اللغة الهدف، وقد كان مدى التداخل واضحًا بما يكفي لدفع بعض الأفراد إلى اعتبار اكتساب اللغة الثانية متمحورًا في المقام الأول حول التخفيف من تأثير اللغة الأصلية، غالبًا ما يستغل الأفراد خبراتهم اللغوية السابقة لتعزيز عملية اكتساب لغة جديدة.

ووفقًا للخرشة(2016م، ص16) ينشأ التداخل نتيجةً لنقل اللغة المنطوقة أو الأنماط اللهجية من لغة المصدر إلى لغة الهدف، مما يؤدي إلى حدوث خطأ. ويُعتبر التداخل عرضًا كلاميًا يظهر حصريًا لدى الأفراد ثنائيي اللغة، ويُنظر إليه على أنه خروج عن القاعد،وتُعرف عملية دمج أنماط اللغة من لغة إلى لغة أخرى بالتداخل. ويشير التداخل إلى التحديات التي تنشأ أثناء اكتساب لغة ثانية، لا سيما فيما يتعلق بالأصوات أو التراكيب اللغوية، وذلك بسبب تأثير العادات الراسخة سابقًا من لغة الفرد الأولى(معين 2017م، ص 31) في مجتمع يتميز بثنائية اللغة أو تعددها، يحدث التداخل اللغوي بشكل متكرر عندما تتسلل جوانب من إحدى اللغتين إلى الأخرى، مما يؤدي إلى انحراف عن المعايير اللغوية المعمول بها. علاوة على ذلك، يمكن أن يظهر التداخل على مستويات لغوية مختلفة، بما في ذلك علم الأصوات، وعلم الصرف، والمعجم، والنحو، وبناءً على التعريف المذكور، استنتاج الباحث أن التداخل يشير إلى خطأ أو انحراف في استخدام المواد اللغوية بين لغتين، سواءً كان ذلك شفهيًا أو كتابيًا.

الفرق بين التداخل والتدخل:

التداخل: هو ممارسة لغتين لغة الأم و لغة الهدف أثناء الكلام على وتيرة واحدة وعلى جميع المستويات :الصوتية، الصرفية، النحوية، الدلالية. فيعرفه محمد علي خولي بأنه: تأثير متبادل بين لغتين بمعنى أنه يسير في اتجاهين: لغة الأم تتدخل في لغة الهدف ولغة الهدف تتداخل في لغة الأم، أما التدخل فهو: اتجاه الفرد إلى استعمال لفظة من لغة الأم وإدخالها في لغة الهدف بشرط وجود اللغتين في عقل المتكلم بإنتاج أحدهما إما نطقا أو كتابة، فكلما كان النظامان متساويان يقل التدخل أي أن الأداء اللغوي في اللغة الأم يعادل الأداء في اللغة الهدف بسبب تساويهما في القوة والضعف وكلما اختل التوازن بينهما ظهر التدخل.

أنواع التداخل اللغوي:

أشر ماهيندرا ومارانتيكا (2020م، ص 48) يمكن تصنيف التداخل اللغوي إلى:

1- التداخل الصوتي 2- التداخل الصرفي 3- التداخل النحوي أو التركيبي 4- التداخل المفرداتي أو المعجمي 5-التداخل الدلالي.

أولاً: التداخل الصوتي: ويعد التداخل الصوتي من أكثر التداخلات اللغوية من قبل اللغويين، وهي ثلاثة أنواع:

1- إضافة الأصوات.

2- وحذف الأصوات.

3 - واستبدال الأصوات.

– النوع الأول من الحالات يحدث عندما يُدخل متعلم اللغة الثانية صوتًا أو فونيمًا إضافيًا إلى الصوت الذي يبدو صوتيًا، قد تنشأ هذه المشكلة بسبب قلة التعرض للغة الهدف، بالإضافة إلى عدم الفهم الكافي للغة الهدف والمبادئ الصوتية التي تحكم اللغة الهدف علاوة على ذلك، نطق الكلمات المحلية يتوافق في الغالب مع نطقهم شكل مكتوب، مما يجعل من الصعب التكيف مع العنصر الصوتي الجديد من اللغة التي يجب تعلمها.

– النوع الثاني هو إغفال الصوت ضمن هذه الفئة بالذات، يكون متعلمو اللغة الثانية غالبًا لديهم ميل لاستبعاد بعض الصوتيات التي ينبغي أن تكون وضوحاً، وهو الأكثر شيوعًا في نطق الإدغامات التي لها تم تقليصها لتشمل حروف العلة القصيرة فقط.

– النوع الثالث من التداخل الصوتي هو استبدال الصوت. هذا خاص تتميز الفئة بفعل استبدال الصوت العادي بصوت بديل. وبناء على النظريات الراسخة حول التدخل اللغوي، هذه الدراسة يقدم منظورًا جديدًا من خلال دراسة ظواهر التداخل الصوتي ضمن السياق الفريد متعدد اللغات شمال نيجيريا على عكس الأبحاث السابقة، التي تركز في الغالب على التأثيرات العامة للأول تأثير اللغة على اكتساب اللغة الثانية، يتعمق هذا التحقيق بشكل أعمق في الآليات المحددة للتداخل الصوتي – إضافة الصوت، والصوت الحذف واستبدال الصوت لدى الطلبة المتنقلين بين اللغة العربية ولغاتهم الأصلية.

بالإضافة إلى ذلك الاستكشاف وليس فقط كيفية ظهور هذه التدخلات ولكن أيضًا إمكاناتها الآثار المترتبة على تعليم اللغة العربية في مجتمع متعدد اللغات يهدف هذا البحث إلى تشريح وتحليل التداخل الصوتي ظاهرة بين متعلمي اللغة العربية في نيجيريا، وتستهدف على وجه التحديد الطلاب الناطقين بلغة الهوسا ولغة الفلاتية، وتسعى الدراسة أيضاً إلى التعرف على أنواع وظواهر الأصوات التدخل، فهم تأثير اللغات الأولى للمتعلمين على اللغة العربية، وبالتالي اقتراح استراتيجيات تربوية مستهدفة للتخفيف من هذه المشكلة تأثيرات التداخل، وذلك بالتركيز على إضافة الصوت، والحذف، والاستبدال، هذا تطمح الدراسة إلى إلقاء الضوء على الطرق الدقيقة التي تشكل بها اللغات الأولى اللغة العربية اكتساب اللغة في سياق تعددية اللغة النتائج المتوقعة لهذه الدراسة لها آثار كبيرة على كليهما النظرية والتطبيق في مجال تعليم اللغة، ومن الناحية النظرية، فإنه يهدف إلى إثراء الخطاب الأكاديمي حول ثنائية اللغة والتداخل اللغوي من خلال العرض رؤى جديدة حول كيفية تعامل المتعلمين متعددي اللغات مع تعقيدات اللغة العربية علم الأصوات. ومن الناحية العملية، من المتوقع أن تساعد النتائج في تطوير هذه الدراسة منهجيات تدريس اللغة المبتكرة التي تتوافق مع اللغة تنوع واحتياجات المتعلمين. وفي نهاية المطاف و من خلال معالجة التحديات المحددة التي تواجهها التدخل الصوتي، يسعى هذا البحث إلى تعزيز فعالية برامج تعليم اللغة العربية، وتعزيز الكفاءة اللغوية والثقة بين المتعلمين متعددي اللغات في نيجيريا وسياقات مماثلة في جميع أنحاء العالم.

ثانيا– التداخل الصرفي: يتجلى التداخل الصرفي في انتقال أنماط صرفية من اللغة الأم إلى اللغة المتعلمة، ويشمل ذلك مجالات متعددة، مثل: صيغ الجمع، والتثنية، والتذكير والتأنيث، والتعريف والتنكير، والتصغير، والاشتقاق، وتحويل الأفعال بين الأزمنة الثلاث الماضي والمضارع والأمر، فضلًا عن نظم السوابق واللواحق والزوائد الصرفية. وتظهر آثار هذا النوع من التداخل عندما يوظف المتعلم أنماطًا صرفية مألوفة في لغته الأولى داخل اللغة الهدف، مما يؤدي إلى استعمالات لا تتفق مع قواعدها.، ومن ذلك استعمال صيغ الجمع للدلالة على المفرد في نحو : ذَبَحَ **ميات** كبشٍ، عوضًا عن الصواب: ذبَحَ **مائةَ** كبشٍ.

ثالثا– التداخل النحوي أو التركيبي: يؤدي تأثير نحو اللغة الأم على نحو اللغة الثانية إلى وقوع المتعلم في أخطاء تتعلق بنظم الكلام (تركيب أجزاء الجملة)، ومن أبرز مظاهر ذلك الخلط في توظيف حروف الجر، أو استبدال حرف بآخر، بالإضافة إلى وقوع أخطاء في المطابقة بين الصفة والموصوف، والمعطوف والمعطوف عليه، واسم الإشارة والمشار إليه. كما يمتد هذا التداخل إلى استخدام الضمائر، و استعمال عناصر التخصيص كالتعريف، والاستفهام، والتعجب، والاستثناء، وأسلوب الشرط.

رابعا– التداخل المفرداتي أو المعجمي: يقصد بالتداخل المعجمي انتقال مفردة من اللغة الأم إلى سياق اللغة الهدف أثناء التواصل؛ فتُدرج الكلمة الأجنبية داخل الجملة رغم عدم انتمائها إلى معجم اللغة المستعملة. ويكثر هذا النوع من التداخل في الأسماء والأفعال والصفات والظروف، وكذلك في الضمائر وأدوات التعريف والتكثير وبعض أنواع الحروف. ويُعد التداخل المعجمي من أكثر صور التداخل اللغوي شيوعًا بعد التداخل الصوتي؛ نظرًا لسهولة انتقال المفردات بين اللغات في أثناء الاستعمال اليومي.

خامسا– التداخل الدلالي: يظهر التداخل الدلالي عندما تُنقل المعاني أو العلاقات الدلالية الخاصة باللغة الأم إلى اللغة الثانية، فيفسر المتعلم الكلمات أو التراكيب وفق ما اعتاده في لغته الأصلية. وقد يتمثل ذلك في اختيار لفظ بديل بناءً على تقارب دلالي

غير صحيح، أو في إسناد معنى مألوف في اللغة الأم إلى كلمة في اللغة الهدف تختلف دلالتها الحقيقية. ومن أمثلة ذلك إعطاء بعض الألفاظ الأجنبية معاني مستمدة من التصورات الدلالية السائدة في العربية أو العكس، مما يؤدي إلى سوء الفهم أو إلى استعمالات غير دقيقة. ويُعد هذا النوع من التداخل من أكثر الأنواع خفاءً؛ إذ قد يستخدم المتكلم الكلمة بصورة تبدو صحيحة شكليًّا، بينما تنطوي على معنى متأثر بلغته الأولى دون أن يشعر بذلك. ويمكن التمثيل لذلك بتركيب (floor First) في اللغة الإنجليزية، فقد تعني عند العربي (الطابق الأول) في اللغة العربية؛ بغير حساب الطابق الأرضي، وفي مثال آخر مفردة (الطبيعة) في اللغة العربية قد يعطيها الأمريكي معنى (nature) التي تستخدمها بعضهم بمعنى القدرة على الإبداع والخلق. وهذا النوع من التدخل صعب الاكتشاف؛ إذ قد يستخدم المتكلم كلمة ما في لغة الهدف معطيا إياها معنى من لغة الأم دون أن يكتشف المستمع هذا التداخل في الدلالة، ولا يتم الاكتشاف إلا إذا استمر الحديث مدة كافية وظهرت مؤشرات تدل على أن المتكلم يعطي الكلمة معنى غير مألوف في لغة الهدف ومنقولًا من لغة الأم. (فوزية عمارة 2021م، ص 1233)

تعلم اللغة الثانية: اللغة الثانية (SL) هي لغة غير أصلية تستخدم على نطاق واسع لأغراض للاتصال، عادة كوسيلة للتعليم أو الحكومة أو الأعمال. اللغة العربية على سبيل المثال، تتمتع بوضع اللغة الثانية في نيجيريا، ولكنها لغة أجنبية في الكاميرون. ويعرّفها ديفيد بأنها "اللغة التي يتم تعلمها بعد تم اكتساب اللغة الأم أو اللغة الأولى، قد يكون من السكان الأصليين أو لغة غير أصلية، قد يُنظر إلى متعلم اللغة الثانية على أنه "بالغ لغوي" بمعنى أنه بالفعل لديه معرفة بعمل اللغة ولقد تعلم استخدام اللغة للتواصل باستخدام النظام العامل في بلده اللغة الأم (L1)". (آلو 2000م، ص 90). تعلم اللغة الثانية هو ما يحدث في الفصول الدراسية عند اتباع دورة منظمة مع المعلم (ديفيد 2000م، ص 19) يمكن تعلم اللغة الثانية من عوامل اجتماعية أو سياسية على سبيل المثال: الاستعمار والتجارة والتجارة يمكن أن تخلق جوا مواتيا لتنمية ثانية لغة، أداء اللغة الثانية هو مستوى الكفاءة في اللغة الثانية اللغة. (بيرتهولد، مانجوبهاي وباتوروفيتش 1997م، ص 67).

اللغويون ووجهات نظرهم حول التداخل اللغوي:

يكشف العلاقة بين اللغتين الأم والثانية (اللغة الأولى) والثانية، ويرى أن إتقان اللغة الأولى قد يكون مفيدًا في إتقان اللغة الثانية. بمعنى آخر، يمكن لمعارف ومهارات اللغة الأولى أن تؤثر إيجابًا على تطوير إتقان اللغة الثانية، ومع ذلك يتحدد انتقال المعرفة الإيجابي بين اللغتين الأولى والثانية بمدى اتساع نطاق التعرض للغة الثانية في التعلم.

وهذا يعني أنه إذا لم تُستغل اللغة الثانية بشكل مكثف، فإن انتقال المعرفة باللغة الأولى يصبح سلبيًا ويؤدي إلى تداخل لغوي. (كومينز 1981م، ص 51)؛ لذا تهدف هذه الدراسة إلى تحديد أثر اللغة الأولى على تعليم وتعلم اللغة الثانية من خلال منظور التداخل اللغوي. ووفقًا لمايكل وجولان (2005م، ص 94)، يحدث التداخل اللغوي بسبب قلة التعرض للغة الثانية في تعلمها. كما تُجادل توريفا (2020م، ص 62) بأن ظهور الأخطاء في التحدث والكتابة يُمكن أن يُشير إلى تداخل اللغة. تحدث هذه الأخطاء عندما تتداخل العناصر النحوية للغة الأولى مع العناصر النحوية للغة الهدف، أي اللغة الثانية، في هذا السياق، وبالتالي، سيستخدم الباحثون هذه النظرية لتحديد أثر اللغة الأولى على تعليم وتعلم اللغة الثانية من خلال منظور تداخل اللغة. وفي هذا الصدد، ستُرشد هذه النظرية الباحث في تحديد مستوى التعرض للغة الثانية من خلال الملاحظة غير المشاركة والمقابلات شبه المنظمة لاستنتاج الظاهرة قيد الدراسة.

اللغة الأولى مصدراً في تعلم اللغة الثانية:

لدى العديد من الباحثين وجهات نظر مختلفة بشأن تداخل اللغة الأولى عند تدريس اللغة العربية لغةً ثانية أو إضافية، ووفقًا لكومينز(1981م، ص 63)، فإن تداخل اللغة الأولى، بطريقتين، مفيد وضار، اعتمادًا على مستوى الدافع والتعرض أثناء تعلم

اللغة الثانية. يُشير هذا إلى أنه إذا كان التعرض للغة الثانية واسع النطاق، فإن نقل معرفة اللغة الأولى يُصبح مفيدًا لتعلم اللغة الثانية؛ ومع ذلك، إذا كان التعرض للغة الثانية محدودًا، فإن نقل المعرفة يؤدي إلى نتائج سلبية تُسبب الارتباك والتداخل. كما يُدرك كولير وتوماس (2007م، ص 35) الجانب المفيد من نقل معرفة اللغة الأولى، حيث يعتقدان أن اللغة الأولى تُشكل مصدرًا في تعليم وتعلم اللغة الثانية. ويواصل المؤلفان القول إن برنامج اللغة المزدوجة مفيد لكل من الناطقين الأصليين وغير الأصليين للغة العربية لاكتساب إتقان اللغة العربية مما يؤدي إلى النجاح الأكاديمي. ويشير ديرخشان وكريم (2015م، ص 18) إلى أن التداخل اللغوي ناتج عن أوجه التشابه والتغيير بين اللغتين الأولى والثانية على سبيل المثال، إذا كان هناك المزيد من أوجه التشابه بين اللغتين، فإن الأخطاء تقل، مما يؤدي إلى نقل إيجابي للمعرفة؛ ومع ذلك، إذا كانت الاختلافات أكبر، فإن الأخطاء تحدث بشكل أكبر وهو ما يُعرف بالتداخل، يُقرّ الباحثون بأن المتعلمين يواجهون بشكل رئيسي نقلًا سلبيًا للمعرفة، يُعرف بالتداخل، نتيجةً لعدة عوامل، مثل محدودية المعرفة اللغوية في كلٍّ من اللغتين الأم والثانية، وعدم إتقان اللغة الثانية، وعوامل سياقية أخرى ذات صلة. بعبارة أخرى، يُقرّ هؤلاء المؤلفون بأن اللغة الأولى لا تُسبب أخطاءً فحسب، بل قد تُسبب تداخلًا في اللغة الثانية، بل قد تكون مفيدة أيضًا، خاصةً عند تلبية احتياجات مُعينة، مثل التعرض المُكثّف للغة الثانية.

من عوامل ظهور التداخل اللغوي لدى الناطقين بغير اللغة العربية:

لم تنشأ التداخل اللغوي في تعليم اللغة العربية مصادفة، بل ظهرت من خلال عدة عوامل تحكمها، وبقيت هذه العوامل محركاً لوتيرة التداخل اللغوي فهي تنحدر أحياناً وترتفع أحياناً أخرى، وذلك بحسب مدى توفر هذه العوامل في المجتمع ومدى دورها في التأثير على اللغة الفصحى بينهم.

1- استخدام اللغة العامية كلغة التدريس: نرى هذا في المدارس في الدول العربية أكثر من غيرها من الدول الإسلامية، وهو أمر يدعو إلى الأسف والأسى، فالشعوب العربية نفسها لا تأخذ اللغة العربية الفصحى على محمل الجد، بل لطخت الفصول الدراسية بشوائب اللغة العامية، والعامل وراء ذلك هو عدم إلمام المعلم باللغة العربية الفصحى، حيث يفضل التدريس باللغة العامية؛ بحجة ضمان نقل المعلومة إلى الطلبة، وهو أمر غير مقبول إطلاقاً، فاللغة العربية الفصحى هي الأصح تعبيراً والأوسع معنى، والأجدر أن تكون لغة التواصل في الفصول الدراسية، بل وفي كل مراحل الحياة. أما الطالب فلعل سبب تسلل اللغة العامية إلى دراسته هو تأثره ببيئته، التي ساد فيها الاعتماد على اللغة العامية، فينقلها إلى صفوف المعاهد والمدارس. ومهما يكن من أمر فإن اكتساب المعرفة لابد أن يتم باللغة العربية الفصحى فهي اللغة الأنسب لذلك وخاصة في المرحلتين الابتدائية والثانوية وهذه المرحلة بالغة الأهمية فهي تعتبر نقطة انطلاق في تنمية المهارات اللغوية لدى الطلبة قبل بدء دراستهم الجامعية.

2- غياب دور الأدب العربي: في ظل هيمنة عصر التكنولوجيا والعولمة الثقافية، تم دفع الأدب العربي إلى هامش القضايا ليصبح قضية جانبية لا يهتم بها أحد ولا يلتفت إليها إلا قلة من الناس، بينما نرى إقبالاً شعبياً في المجالات العلمية كالفيزياء والكيمياء، حيث يحرص الطلاب والعلماء على أن يكونوا رواداً ومبتكرين في هذه العلوم،ولا شك أن إهمال الجانب الأدبي أثر بشكل كبير على اللغة العربية الفصحى لأن الأدب يشكل نواة فاعلة في تطورها ونموها وتوسيع آفاقها ودورها في المجتمع. وعلى هذا الأساس نرى أن القبائل العربية القديمة جعلت من الأدب العربي محوراً مهماً في حضارتها الثقافية، وحرصت على الأدب العربي حتى أنها أنشأت أسواق الشعر، وهي منابر يصعد إليها أفضل شعراء القوم ليتلوا جمال شعرهم على الملأ، ويتنافسوا فيما بينهم لمعرفة من هو الأحق بالحصول على لقب "سيد الشعراء"، وهو اللقب الذي يعد مصدر فخر يسعى إليه البدو والحضر، من عامة الناس ونخبتهم. ولم يقتصر الاهتمام بالأدب العربي والتراث الثقافي العربي على العصر الجاهلي، بل استمر هذا الاهتمام الخاص متوارثاً للأجيال القادمة. ونرى تعزيزاً لدور الأدب العربي في العصور الإسلامية، حيث اتسعت آفاقه لتشمل الجوانب الاجتماعية والفكرية

والاقتصادية والتعليمية، وكان وسيلة أساسية في تعزيز الدعوة الإسلامية وإظهار قيمها النبيلة على المستويين المحلي والعالمي. (الشعبي 2002م، ص 176). وفي العصر الحالي بدأ الناس يعانون من الفقر في الأدب العربي. وذلك لأنهم ينفرون منها كما يزعمون لصالح ما هو أحدث، والوضع أسوأ من ذلك، فقد وثق تقرير لشبكة الجزيرة الإخبارية أن الإنتاج الفكري العربي السنوي يتراوح بين 15 و18 كتاباً، وهو ما يعادل إنتاج دار نشر أميركية واحدة تسمى بينجم راندوم، وهو الواقع المؤسف الذي يجب التغلب عليه من أجل استعادة هيبة الأدب العربي وأمجاده الرفيعة.

3- الغزو الفكري: يقصد به الحرب التي تشنها جهات خارجية دون الاعتماد على الوسائل العسكرية التقليدية بهدف القضاء على الأفكار والمعتقدات التي تهدد مصالحها وضمان فرض أفكارها على عقول وثقافات الشعوب المحتلة ويتم الغزو الفكري في سرية تامة وسرية وغالبا ما يكون متخفياً تحت شعارات مؤسسات إنسانية كالجامعات ووسائل الإعلام والمستشفيات والمدارس والحضانات وغيرها والغرض من هذه الأسماء هو استقطاب أعضاء هذه المؤسسات لغسل أدمغتهم وتشكيل أفكارهم بما يخدم مصالح العدو وخططه الخبيثة.

ولم تسلم اللغة العربية الفصحى من استهداف الغزو الفكري بل كانت هدفا أساسيا لهذا الغزو في المقام الأول. وقد أشار الدكتور الريح حمد النيل الليث في مذكراته (الغزو الفكري) إلى أن اللغة العربية الفصحى تتعرض للتدمير من خلال الغزو الفكري على عدة مراحل منها: الدعوة إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية بحجة عدم كتابة الحركات، والدعوة إلى اللغة العامية وتجنب الفصحى، والزعم بأن الفصحى لغة معقدة وصعبة وأنها غير قادرة على مواكبة العصر، وتشجيع تعلم لغة أجنبية خاصة للأطفال لتحل محل لغتهم الأم. (الليث 2002م، ص8)، وعلى المستوى العلمي تتعرض اللغة العربية الفصحى للتدمير من خلال تسلل المصطلحات الأجنبية، وفي أغلب الأحيان تأتي هذه المصطلحات من مجالات علمية حديثة مثل الفيزياء والعلوم والكيمياء، لتسمى مصطلحات أجنبية ثم تدخل اللغة العربية حرفياً دون تعريب. ولم تكن المعضلة الحقيقية في عدم قدرة اللغة العربية على استيعاب هذه المصطلحات العلمية الحديثة، وإنما في فشل الأمة الإسلامية والعربية في تعريب هذه المصطلحات، "ومن ذلك ما أشار إليه الدكتور عبد الكريم خليفة في قوله: "لقد مرت اللغة العربية بهذه التجربة، وأظهرت حيويتها وقدرتها المتجددة على الاستيعاب، ومن القدماء الذين اهتموا بتسجيل المصطلحات نذكر: الخوارزمي صاحب كتاب مفاتيح العلوم، والجرجاني صاحب كتاب التعريفات، والجواليقي صاحب كتاب المعرب العجمي في لغة العرب... ولكننا للأسف ما زلنا حيث كنا، والسبب في ذلك لا علاقة له بطبيعة اللغة أو قضاياها، وإنما يكمن في السياسة التي تسيطر على العلوم العربية، والتي تبعد اللغة القومية عن المجالات العلمية لأسباب مختلفة". (عبد الكريم 2008م، ص 210).

أثر التداخل اللغوي على تعلم اللغة العربية كلغة ثانية:

يؤثر التداخل اللغوي تأثيرا كبيرا على تعليم اللغة العربية، فمن يتعلم اللغة الفصحى يتعلم اللغة تتصف بالازدواجية، بمعنى أن يكون هناك وجهين: وجه فصيح وآخر عامي قد يكون دخيلا أجنبيا من فرنسية أو إنجليزيا، وقد يكون حسب تواجد اللهجات بالمجتمع، ونجد أحيانا معلم اللغة العربية يميل إلى العامية بهدف إيصال المعلومات أو المادة التعليمية للمتعلم، وهو بذلك يجعله ضعيفا في اللغة العربية، فمشكلة الازدواجية من المشكلات الكبرى التي تؤثر على متعلم اللغة العربية. بيد أنه ألا ينسى أن تعليم اللغة العربية يتطلب أن يكون المحيط الذي يعيش فيه المتعلم عاملا مساعدا على اكتساب اللغة، فالوالدين مثلاً إن لم يكن أحدهما متعلم الابن حتماً تطغى عليه العامية، لأنه يجالسهما لفترة طويلة. ويرى نهاد الموسى أن هذا الوضع يفضي إلى اضطراب لغوي ناتج عن الازدواجية اللغوية؛ إذ تتوزع وظائف التواصل بين الفصحى والعامية، فتُستعمل الأخيرة في المواقف اليومية الشفوية، بينما تبقى الفصحى حبيسة الجانب النظري أو المواقف التعليمية المحدودة. كما أن التلاميذ يتواصلون فيما بينهم باللهجة الدارجة، في

حين يُطلب منهم استخدام الفصحى في السياقات التعليمية، الأمر الذي يخلق فجوة بين الممارسة الفعلية والتعلم النظري؛ ومن ثم تترتب آثار نفسية وتربوية تستحق مزيدًا من الدراسة والعناية. (نهاد الموسى، ص 118).

وتشير دراسات عديدة إلى أن الإفراط في استعمال العامية في العملية التعليمية يعد من أهم العوامل المؤدية إلى الضعف اللغوي؛ فمحدودية الرصيد اللغوي للعامية مقارنةً بالفصحى قد تدفعها إلى التساهل في التعبير، وهذا يؤدي إلى تهاون في التفكير لدى المعلم والمتعلم، وهذا التهاون تنشأ عنه عادات لغوية رديئة، ويبني عليه الكسل العقلي. ولا يدرك كثيرٌ من المعلمين خطورة الاعتماد على العامية في التدريس، فيلجؤون إليها في مراحل مختلفة من التعليم، فنراهم في بيئات تعليمية مختلفة لا يستخدمون الفصحى في قاعات الدرس إما جهلًا بأهميتها أو ازدراءً لها، وقد يكون الدافع لذلك هو سعي المعلم إلى تقريب المعنى للتلميذ بدعوى أن العامية سهلة الفهم أكثر من الفصحى، وهو ما يؤدي في كثير من الأحيان إلى إضعاف حضور الفصحى في البيئات التعليمية. (وليد الطنطاوي، ص45).

إن حديث المعلم بالعربية الفصيحة يساهم في التغلب علة مشكلة التداخل اللغوي الذي بات يهدد تعليمية اللغة العربية، فهي تعين المتعلم على ترسيخ الفصحى في ذهنه، وتساعده على الفهم والاستيعاب، من الأسباب التي تجعل المتعلم يلجأ التداخل اللغوي ضعف الكفاءة اللغوية لديه، فالمعلم أحيانا لايستطيع التعبير عن ما يحتاجه، فيتخذ العامية سبيلا له للوصل إلى ما يريد، بالإضافة إلى ذلك ضعف المناهج والبرامج التعليمية، فالمناهج اليوم تجعل متعلم اللغة العربية يلجأ إلى العامية، أو يقوم بإدخال مصطلحات أجنبية من اللغات الأخرى.

صحيح أن العامية كانت سببا في الضعف اللغوي عند المتعلم، لكن لا ننكر أنها أداة أو وسيلة يلجأ المعلم لاستعمالها كتفسير لبعض الأمور التي يستضعف فهمها عند المتعلمين، وخاصة في السنوات الأولى من المرحلة الابتدائية، فالتداخل اللغوي في آخر المطاف سلاح ذو حدين، يكون إيجابيا إذا سار وفق طرق سليمة وصحيحة، ويكون سلبيا لما تكون الغلبة للغة على حساب لغة أخرى وخاصة اللغة العربية.

الخاتمة:

ومن أهداف هذه الورقة دراسة أثر اللغة الأم على تعليم وتعلم اللغة العربية كلغة ثانية من منظور التداخل اللغوي. تشير النتائج إلى أن اللغة الأم تلعب دورًا رئيسيًا في تعلم اللغة الثانية من حيث تبسيط محتواها الذي يتطلب جهدًا معرفيًا كبيرًا، مما يساعد المتعلمين على فهم محتواها لأغراض وظيفية. ومع ذلك، يؤثر تأثير اللغة الأم أيضًا على كفاءة المتعلمين في اللغة الثانية، حيث أن استخدام اللغة الأم يحرم المتعلمين من فرصة التعرض المكثف لمعارف اللغة الثانية، وقد أدى هذا النقص في التعرض للغة الثانية إلى تحديات نحوية متنوعة في عملية تعلم اللغة العربية. على سبيل المثال، يذكر المتعلمون أنهم يواجهون صعوبات في الإملاء، وعلامات الترقيم، وتكوين الكلمات والجمل، واستخدام الأحرف الكبيرة، بالإضافة إلى أخطاء الزمن. وعليه، يوصي معظم الدارسين من المدارس الثلاث بتدريس المواد العربية من خلال اللغة العربية لأغراض التعرض الكافي للغة الثانية وتعزيز كفاءتها.

المراجع:

- ربيع ، أروى ، 2017م توظيف وسائل الإعلام والتكنولوجية الحديثة في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، العدد2، الأردن.
- الريح حمد النيل الليث. 2002م. الغزو الفكري. د.ط. مكة المكرمة: مركز الصفوة للخدمات العلمية والهندسة.
- عبد الكريم خليفة. 2008م. اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث. د.ط. عمان: دار الفرقان.
- علي الشعبي. 2002م. الإجابية والسلبية في الشعر العربي بين الجاهلية والإسلام. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.
- علي عبد الواحد الوافي. 2009م، علم اللغة، دار النهضة– مصر، ط 4.

- فوزية طيب عمارة 2021م، تأثير التداخل اللغوي على تعليمية اللغة العربية، بحث في وقائع أعمال المؤتمر المنعقد بجامعة محمد الخامس–رباط، بعنوان: اللغة العربية وتحديات العصر وآفاق المستقبل، بتاريخ 10 و11–7– 2021م.
- محمد علي خولي. 2002م، الحياة مع اللغتين، دار الفلاح– الأردن.
- نهاد الموى 2006م، اللغة العربية في العصر الحديث، قيم الثبوت وقوى التحول، دار الشرق، عمان ط1.
- وليد علي الطنطاوي 2005م، بحث في فقه اللغة، قسم اللغة العربية، كلية اللغات، جامعة المدينة العالمية شان–علم، ماليزيا.

- Al-Khresheh, M. H. (2016). A Review Study of Error Analysis Theory. International Journal of Humanities and Social Science Research, 2(7), 66.
- Alo, C.A, (2000). 'Gender differences: vocabulary retention and access to translations for beginning languages learners'. The Modern Language Journal,
- Berthold, V., Mangubhai, R. & Batorowicz, N. (1997). An Introduction to Language. (8th Ed). Beijing: Peking University Press.
- Chokwe, J. 2016. The acquisition of academic writing skills model for English Language Students: from elementary to tertiary education. Journal of Education Studies, 15 (2), 90.
- Cummins, J. (1981). Empirical and theoretical underpinnings of bilingual education. Journal of education, 163(1), 56.
- David, c. (2010). Bilingualism and Biculturism as Individual and Societal Phenomena. Journal of Multilingualism and Multicultural Development. 8(4),123.
- Derakhshan, A., & Karimi, E. (2015). The Interference of First Language and Second Language Acquisition. Theory and Practice in Language Studies, 5(10), 74
- Hayati, M. (1998). A contrastive analysis of English and Persian stress. Papers and Studies in Contrastive Linguistic, 34(1), 93.
- Jack, J.F, John, D. & Weber, M.H.A, (1989). Bilingually and Bilingualism, Cambridge University Press, Cambridge.
- Lennon, P. (2008). Contrastive Analysis, Error Analysis, Interlanguage 1nteferance.
- Mahendra, M. W., & Marantika, I. M. Y. (2020). The Phonological Interference in EFL Reading. ELLITE: Journal of English Language, Literature, and Teaching, 5(1),67.
- Michael, E. B., & Gollan, T. H. (2005). Being and becoming bilingual. Handbook of bilingualism: Psycholinguistic approaches.
- Mu'in, F. (2017). Phonemic interference of local language in spoken English by students of English department of lambung mangkurat university. Journal of Language Teaching and Research, 8(1),145.
- Turaeva, M. (2020). The problem of lexical interference of languages in speech. Mental Enlightenment Scientific-Methodological Journal, 1(2),78.

Turdaliyevich, Z. M. (2022). Actual Problems of Bilingualism in a Multi-Ethnic Environment. International Journal of Language and Culture.

University of Benghazi
Faculty of Education Al Marj

جامعة بنغازي
كلية التربية – المرج

ISSN 2518-5845

المجلة الليبية العالمية

Global Libyan Journal

العدد الثالث والسبعون /أبريل 2026م

مظاهر الإبداع في ديوان (دعني وشأنك) لعصام الفرجاني

الصافي علي أحمد أبو فردة
أستاذ مساعد، كلية التربية، بنغازي
safibufarda@gmail.com

Manifestations of Creativity in the Poetry Collection "Leave Me Alone" by Issam Al-Farjani

Al-Safi Ali Ahmed Abu Farda
Assistant Professor ,Faculty of Education ,Benghazi

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى بيان مظاهر الإبداع في ديوان (دعني وشأنك) للشاعر عصام الفرجاني والكشف عن الصور البيانية المختلفة التي تؤدي إلى معرفة الظواهر الفنية المتعددة التي تكمن في نتاجه الشعري، ومدى تشكلها في نصوصه؛ اعتماداً على المصادر والمراجع الأدبية والفنية والبلاغية النقدية، والتعرف على قدرته في توظيف الصور البيانية في أداء غرضه، ومدى طاقتها في التعبير عن المعاني الكامنة في النفس، من خلال استخدام البحث المنهج الوصفي التحليلي، متناولا مستويات عدة للتحليل : المستوى التصويري والإيقاعي، وقد توصل الباحث إلى أنّ الصورة الفنية جاءت معبرة عن تجربته الشعرية وموافقة المتنوعة، فكان تعبيره صادقاً وعاطفته قوية .وأن الشاعر نوَّع بين الشعر العمودي والشعر الحر، بنسبه 50% ، وتميز شعره العمودي بالاستهلال بالتصريع الذي يعطي جرسا موسيقيا يطرب له المتلقي، وأنَّه نوّع من مصادر موسيقاه الداخلية من جناس وتصريع وغيره ، لإضفاء الطابع الغنائي على شعره.

الكلمات المفتاحية: الإبداع الفني، مستويات التحليل، المستوى التصويري، الإيقاع الداخلي.

Abstract:

This study aims to identify the manifestations of creativity in the poetry collection "Leave Me Alone" by the poet Issam Al-Farjani and to reveal the various rhetorical images that contribute to understanding the multiple artistic phenomena embedded in his poetic production and the extent of their formation within his texts. The study relies on literary, artistic, rhetorical, and critical sources and references, while also examining the poet's ability to employ figurative imagery in achieving his poetic purposes and the effectiveness of such imagery in expressing the meanings concealed within the soul. The research adopts the descriptive-analytical approach, addressing several levels of analysis, particularly the imagistic and rhythmic levels. The researcher concludes that the artistic imagery effectively reflected the poet's diverse poetic experience, making his expression sincere and his emotions powerful. The poet also diversified between classical poetry and free verse in equal proportion (50% each). His classical poetry was distinguished by the use of initial rhyme (tasrīʿ), which creates a musical resonance pleasing to the listener. Furthermore, he varied the sources of his internal musicality through devices such as paronomasia (jinās), tasrīʿ, and other rhetorical techniques, thereby adding a lyrical quality to his poetry.

Keywords: Artistic Creativity; Levels of Analysis; Imagistic Level; Internal Rhythm.

مقدمة:

إنَّ أدينا الحديث يُعدَّ امتداداً لتراثنا العربي الأصيل المليء بالنفاس التي لا تنضب، وقد حظيت الدراسة الفنية والأدبية بعناية النقد والدارسين في عصرنا الحديث، وهذا ديدن الشعراء والأدباء مما جعلهم يمدون الشعر المعاصر بالصور البيانية التي احتلت مكاناً بارزاً في الدراسات الأدبية الحديثة، والأساليب المتنوعة إذ تعتمد على تحليل النص الشعري شرحه ونقده.

فالبحث عن مظاهر الإبداع في نتاج الشعراء، عمل شاق ومجهد، فهو جواهر الشعر وسره، فينال به الشاعر المنزلة الرفيعة والمكانة المتميزة التي تخوله لتخليد منجزه الإبداعي توثيقه.

ومن ثم وقع اختياري على شاعر ليبي من شعراء هذا العصر الذين أبدعوا في صورهم البيانية في شعرهم، هو (عصام الفرجاني)؛ ذلك للكشف عن الصور البيانية المختلفة بالدرس والتحليل ومظاهر الإبداع، نظراً لما حياته منْ تجارب ثرية وظواهر فنية جديرة بالرصد والدراسة.

أسباب اختيار الموضوع:

1. أثناء مطالعتي لعديد الدواوين الشعرية للشعراء الليبيين في هذه الحقبة الزمنية وقعت عيناي على شاعر موهوب لم ينل حظه من الدراسة وهو (عصام الفرجاني) فأخذت أقرأ ديوانه حتى ترسخت قناعتي بأن ثمة دواعي تستوجب بحث هذا الموضوع.
2. ما يتميز به شعر عصام الفرجاني من قوة وجزالة غَلَبَتْ على شعره.
3. وضوح الجانب البلاغي في شعره، فهناك ظواهر بلاغيَّة خصبة تتيح للباحث مجالاً رحباً لتتبعها، واطرادها لتقصي والدراسة.
4. كثرة الصور البيانيَّة في ديوان الشاعر التي تثري مادة البحث؛ مما يجعلها إحدى السمات البارزة في ديوانه.

أهداف الدراسة:

1. تهدف الدراسة إلى محاولة إثبات وعي الأديب الليبي بذاته وقدرته على الإبداع إذا توافرت الظروف التي تشجعه على ذلك.
2. تهدف الدراسة إلى الكشف عن الصور البيانيَّة المختلفة التي تؤدي إلى معرفة الظواهر الفنيَّة المتعددة التي تكمن في نتاجه الشعري، ومدى تشكلها في نصوصه؛ اعتماداً على المصادر والمراجع الأدبية والفنيَّة والبلاغيَّة النقديَّة.
3. التعرف على قدرة الشاعر في توظيف الصور البيانيَّة في أداء غرضه، ومدى طاقتها في التعبير عن المعاني الكامنة في النفس.

4. محاولة الوصول إلى نتائج صائبة ودقيقة في خاتمة الرسالة، بغية الكشف عن الصور البيانيَّة في إبداعه الشعري ومدى تطبيق الأليات الفنيَّة الحديثة عليها وتحليلها في شعره.

تساؤلات الدراسة:

ما مظاهر الإبداع الفني في شعر عصام الفرجاني؟

– كيف وظَّف عصام الفرجاني الصورة الفنيَّة في تجربه الشاعريَّة؟

ما أهم تقنيات الإيقاع الداخلي في إثراء تجربته الشعريَّة؟ –

هيكل البحث:

يتكون هذا البحث من مقدمة ومبحثين على النحو الآتي:

المقدمة وفيها الموضوع وأهميته ومعايير الدراسة.

المبحث الأول: المستوى التصويري وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التشبيه

المطلب الثاني: الاستعارة

المبحث الثاني: الإيقاع الداخلي وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الجناس

المطلب الثاني: التصريع

المطلب الثالث: التَّكرار

الخاتمة ونتائج البحث

منهج الدراسة:

يتبع الباحث في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي في تناول شعر عصام الفرجاني بالدراسة الفنيَّة البلاغيَّة

المبحث الأول

المستوى التَّصويري

المطلب الأول: التَّشبيه:

التَّشبيه لغةً: عرَّفه ابن منظور في لسان العرب بقوله: " الشِّبْهُ والشَّبَهُ والشَّبِيهُ: المِثْلُ، وَالجَمْعُ أَشْباهٌ. وأَشْبَه الشَّيءُ الشَّيءَ: مَاثَلَهُ... وشَبَّهه إياه وشَبَّهَه بِهِ مَثَّلَهُ، والمُشْتَبِهاتُ مِنَ الأُمور: المُشْكِلاتُ. والمُتَشابِهاتُ: المُتَماثِلاتُ. وتَشَبَّهَ فلانٌ بِكَذَا. والتَّشْبِيهُ: التَّمْثِيلُ ". (ابن منظور، 1955، ص 503).

أمَّا صاحب المحيط فيقول: " وتَشابَهَا واشْتَبَها: أَشْبَهَ كُلٌّ منهما الآخَرَ حتى الْتَبَسا وشَبَّهَهُ إيَّاهُ، وبه تَشْبيهاً: مَثَّلَهُ")الفيروزآبادي، 1991، ص 1247(، نشتق من هذين القولين أن التَّشبيه في اللغة معناه التمثيل.

اصطلاحاً:

تعددت تعريفات التشبيه الاصطلاحية من أهمها:

عرفه ابن رشيق القيرواني (ت.456هـ) بقوله: "التشبيه صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو بجهات كثيرة لا من جميع جهاته، لانه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه الا ترى ان قولهم حد كالورد انما أرادوا حمرة أوراق الورد وطراوتها، لا ما سوى ذلك من صفرة وسطة وخضره كمامة". (القيابن رشيق، 1981، ص468).

ويعرفه الخطيب القزويني (ت.743هـ) بقوله: "التشبيه هو الدلالة علة مشاركة امر لآخر في معنى". (القزويني، 2010، ص 164).

وقال علي الجارمي ومصطفى أمين في كتابهما للبلاغة الواضحة البيان والمعاني والبديع: "أن التشبيه هو بيان أن شيء أو أشياء شاركت غيرها في صفة أو أكثر، بادة هي الكاف أو نحوها ملفوظة ملحوظة". (مصطفى أمين، ، 2023 ، ص 20).

"وقد اتفق البلاغيون على أركان التشبيه وهي": (فيود، 1982، ص24).

المشبه: وهو الطرف الأول للتشبيه، وهو الأمر الذي يراد إلحاقه بغيره.

المشبه به: هو الطرف الثاني للتشبيه، هو الأمر الذي يراد إلحاق غيره به.

أداة التشبيه: هي الأداة التي يعرف بها التشبيه مثل الكاف، كأن.

وجه الشبه: يجب عليه ان يكون اظهر واقوى في المشبه به منه في المشبه ويمكن توضيح ذلك في المخطط التالي:

2.1 أدوات التشبيه: "يعتمد التشبيه على مجموعة من الأدوات تكون" إما: (طبانة، 1968، ص 232-233).

1. اسم: (مثل، شبه،...إلخ).

2. فعل: (يماثل، يشابه، يحاكي، يصارع، يشاكل، يضاهي إلخ).

3. حرف: (الكاف، كأن).

3.1 أنواع التشبيه: يورد صاحب البلاغة الواضحة "أنواع التشبيه فيما يأتي": (الجارم، وأمين، ، 2010 ، ص25).

1. التشبيه المرسل: ما ذكرت فيه الأداة، انت حاد النظر كالصقر في المثال ذكرت الأداة التشبيه (الكاف).

2. التشبيه المؤكد: ما حذفت منه الأداة (يغني غناء العصافير) هنا لم تذكر أداة التشبيه، والتقدير هو يغني مثل العصافير.

3. التشبيه المجمل: ما حذف منه وجه التشبيه.

النحو في الكلام كالملح في الطعام، هنا لم يذكر وجه الشبه ولكن المعنى أنّ النحو يصلح الكلام كما يصلح ويحسن الملح الطعام.

4. التشبيه المفصل: ما ذكر فيه وجه الشبه.

(خلق علي كالنسيم رقة) هنا ذكر وجه الشبه وهو الرقة التي تجتمع في خلق علي والنسيم.

5. التشبيه البليغ: ما حذفت منه الأداة ووجه الشبه.

كقولنا:(الحديقة جنة، هنا حذفت الأداة وحذف وجه الشبه لكن يفهم من معنى الجملة ان الحديقة كالجنة في جمالها.

6. التشبيه التمثيل: يسمى التشبيه تمثيلاً إذا كان وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد، وغير تمثيل اذا لم يكن وجه الشبه كذلك.

7. التشبيه الضمني: تشبيه لا يوضع فيه المشبه به في صورة من صور التشبيه المعرفة بل يلمحان في التركيب وهذا النوع يؤتي به ليفيد ان الحكم الذي اسند الى المشبه ممكن.

8. التشبيه المقلوب: هو جعل المشبه مشبها به بادعاء ان وجه الشبه فيه اقوى واظهر، التشبيه المقلوب: يسمى المنعكس هو ما رجع فيه وجه الشبه الى المشبه به، وذلك حين يراد تشبيه الزائد بالناقص ويلحق الأصل بالفرع للبالغة هذا النوع جار على خلاف العادة.

ومن تشبيهات عصام الفرجاني في ديوانه ما يأتي:

يقول في قصيدة مسيح:

"ومهما خانك الأهلون تعفو

كأنك أيها الوطن المسيح"

(الفرجاني، 2023 ،ص26).

فهنا شبّه الوطن بالمسيح باستخدام أداة الشبة (كأنّ) والمشبه هو الوطن في كاف الخطاب في (كأنك) والمشبه به المسيح ووجه الشبه العفو والتسامح المتمثلة في كلمة (تعفو) فهو تشبيه مفصل يبرز المعني ويوضحه.

ويقول في قصيدة عاصفة عين:

"أنت الهوى أبداً والناس قاطبة

إن كنت حاضرة، فالناس قد حضروا

أما علمت بأنّ العمر فاطمة

أمسِي ويومِي غدِي أيامي الأخر

كالأنس صورتها لكنها ملك

لايخدعنّك ما تبدي لك الصور"

)(الفرجاني، مرجع سابق، ص 35-37).

يوظّف الشاعر الصورة في رسم مشاعره وتجسيدها باستخدام التشبيه البليغ في:

العمر فاطمة، أمسي ، يومي، غدي، فكل هذه تشبيهات ذكر فيها المشبه والمشبه به فقط ليكون تشبيها بليغاً لقوة عاطفته وسيطرتها عليه .

ولننظر إلى هذه الصورة المقلوبة (كالأنس صورتها) حيث يشبه صورة محبوبته بالأِنس وكأنها ليست منهم بل هي ملك تشبه الأنس، صورة غاية في المبالغة تصور شدة كلفه بها وولعه.

ويقول في قصيدة مصارحة:

"صارحتها فتلعثمت نظراتها

أرايت بدراً في الدجى يتلعثم؟"

(الفرجاني، مرجع سابق، ص 43).

تشبيه بليغ يصور فيه محبوبته بالبدر قائلاً: أرأيتُ بدراً في الدجى يتلعثم؟ فهي بدر يبدد الظلام وتنيره فكيف تتعلثم؟

ويقول في قصيدة (خلود):

"فكأن قلبي إذ رأها صيدها

وكأن عينيها هم البارود

وتناثرت أشلاء قلبي في الثرى

وتجمعت حول الفؤاد حشود"

(الفرجاني، مرجع سابق، ص 46).

صورة مركبة من الواقع الليبي، البارود والصيد بالسلاح والبارود ، فقلب الشاعر صيد ثمين، وعيني محبوبته بارود يفجر قلبه وتتناثر أشلاؤه في التراب للتجمع حوله حشود الطير، فهذا مشهد تصويري من الطبيعة، مشهد تصويري ممتد صيد وفتك وتناثر أشلاء وتجمع حشود.

ويقول في قصيدة (لماذا؟):

"حلمي يتهاوى

كما يتهاوى قناع الخريف

وأنّي رضخت لعينيك

مثل صبي ضعيف

ومثل فقير

يجابه سخف الحياة

بسوق الرغيف"

(الفرجاني، مرجع سابق، ص 50).

يشبه الشاعر حلمه حين يتهاوى مثل أوراق الخريف الضعيفة، ومثل صبي ضعيف ، ومثل فقير يجابه الحياة كي يحصل على رغيف، هكذا يصور الشاعر رضوخه أمام عيني محبوبته ، فهذا تشبيه متعدد لبيان ضعف حالة الشاعر وقوة تأثير سحر عيون محبوبته.

ويقول في قصيدة (علامَ حزني؟):

"ما عاد يجدي لهم صفح ومغفرة

كالثوب يبلى فما تجدي له الرقع

فالسبع حين يرى رئما يطاردها

وإذ يرى ميتة يأبى ويمتنع"

(الفرجاني، مرجع سابق، ص 67،68).

في البيت تشبيهان: الأول كالثوب يبلى، حيث صور حال من خانوه وتركوه ، فلا ينفع معهم صفح ولا مغفرة كما الثوب الخلق البالي لا تنفع معه الرقع والإصلاح فهو تشبيه تمثيلي صورة بصورة تفيد التجسيد وإبراز المعنى. أما التشبيه الثاني فهو (فالسبع حين يرى ...) فهو تشبيه ضمني يفهم من الكلام فهماً فقد صور الشاعر نفسه بالسبع فهو يطارد الصيد الثمين أما الميتة يأبها ويمتنع عنها وقد صور من تركوه بالميتة فلا قيمة لهم ولا يريدهم .

وقال في قصيدة رحيل شاعر:

"أستودعُ اللهَ لي حسناء عندكم

كأنّها البدر في الأسحار مكتمل

حدائق الشعر قد باتت معلقة

وحسنها بابلي ليس يبتذل

كأنّها نخلة عذراء شامخة

على الفرات بماء النهر تغتسل"

(الفرجاني، مرجع سابق، ص 79).

شبَّه الشاعر محبوبته بالبدر المكتمل نوراً وبهاءً (كأنَّها البدر في الأسحار مكتمل) ثم يواصل تشبيهاته فشعرها كأنها أشجار حدائق معلقة ، (حدائق الشعر قد باتت معلقة) ، فجمالها بابلي متجدد ، فهي نجلة بكر تغتسل من نهر الفرات، فهذي صورة ممتدة يجسد جمال محبوبته في حسنها وطول شعرها ونضارتها وبكارتها.

الطلب الثاني – الاستعارة:

مفهوم الاستعارة:

الاستعارة لغة: "من العارية، أي نقل الشيء من شخص إلى آخر حتى تصبح تلك العارية من خصائص المعار إليه". سعيد الحنصالي، الاستعارة والشعر العربي الحديث، ص21. وفي لسان العرب :" العارية والعارة : ما تداولوه بينهم ، وقد أعارة الشيء، وأعاره منه وعاوره إياه والمعاورة والتعاور: شبه المداولة والتداول في الشيء يكون بين اثنين....وتعور واستعار: طلب العارية واستعاره الشيء واستعار منه : طلب منه أن يعيره إياه".((مطلوب، د.ت، ص136).

أمَّا في الاصطلاح: فالاستعارة فن من الفنون البلاغيَّة بعد أن تطور مفهومها اللغوي، ، وقد أشار (الجاحظ ت 255هـ)،إلى الاستعارة ،غير أنه كان يخلط بينها وبين المجاز المرسل ويظهر هذا جليا في تعريفة لها يقول: "تسمية الشيء باسم غيره إذا قام

مقامه". (الجاحظ،1985، ص153). فهو لم يحدد مفهومها واضحا للاستعارة بل بنى تعريفاً فضفاضا تتداخل فيه الاستعارة بالمجاز ولم يفصل بينهما.

ويقول ابن قتيبة "فالعرب تستعير الكلمة، فتضعها مكان الكلمة إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى، أو مجاوراً لها، او مشاكلا فدفاعه عن المجاز دفاع ضمني عن الاستعارة التي هي موطن حديثنا، وفي قوله تظهر ملامح نشوء مفهوم محدد للاستعارة لكنه ليس بالتحديد الذي يؤسس تعريفا مكتمل التفاصيل، إلا أنه أوضح مميزات الأسلوب الاستعاري، فقد أشار إلى أن الجمال في الاستعارة يكمن في المبالغة، لأن الغرض منها "التوضيح، واستقصاء الصفة، وانطباع الصورة في المخيلة" (الصاوي،1998 ، ص26).

وفي كتابه "البديع" صنف ابن المعتز ن 296 هـ "ألوان البديع وقسّمه خمسة أقسام، كانت الاستعارة أولها، مما يدل على أهميتها عنده، وقد ساق لها الكثير من الشواهد من القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام الصحابة والتابعين أشعار الجاهليين الاسلاميين ثم من كلام المحدثين وأشعارهم وتلك الشواهد كلها في نظره توضح المعنى ، وتكشف عن حسن الصورة وهذا هو الهدف الأسمى لدراسته الاستعارة من وجهة نظره". (أحمد الصاوي: مرجع سابق ص41).

وأشار الميداني أن الاستعارة، "استعمال لفظ ما في غيرها وضع له في اصطلاح به التخاطب العلاقة المشابهة، مع قرينه صارفة عن إرادة المعنى الموضوع له في اصطلاح به التخاطب". الميداني، 1996، ص229.

و"يعرفها أحمد الهاشمي في كتابه : "هي استعمال اللفظ في غير ما وضع له ، لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه، مع قرينة صارفه عن إرادة المعنى الأصلي". (الهاشمي، 2019، ص258).

وقد جاء عبد القاهر الجرجاني بمفاهيم جديدة لتوضيح اشتغال الاستعارة، ووضع أسس قارة لفهم المقصود الاستعاري، مما دفع أحمد الصاوي للإشادة بذلك قائلا: "لا لم تظفر دراسة الاستعارة بمثل ما ظفرت به على يد الجرجاني في كتابيه". (الهاشمي، مرجع سابق، ص258)

فقد عرف عبد القاهر الجرجاني الاستعارة بقوله" اعلم أن (الاستعارة) في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي ، معروف تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلاً غير لازم ،فيكون هناك كالعارية". (الجرجاني، 2006 ، ص30).

نلاحظ أن هذا التعريف الاستعارة جاء مفصلاً لكنه وافق تعريفات سابقيه، والجديد لدى الجرجاني يتجلى في تحديد طبيعتها، حين قال بفكرة الادعاء..... "وفي الفعل والصفة شيء آخر وهو أنك تدعي معنى اللفظ المستعار ، للمستعار له ، فإذا قلت قد (أنا رحجته) و(هذه حجة منيرة) فقد ادعيت للحجة النور". (الجرجاني، مرجع سابق، ص241).

ثم جاء السكاكي (ت 626 هـ) وتبع الامام عبد القاهر في قوله بالادعاء في تعريفه للاستعارة بقول "هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر، مدعيا دخول المشبه في جنس المشبه به، وعلى ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به كما تقول (في الحمام أسد) وأنت تريد به الشجاع، مدعيا أنه من جنس الأسود، فتثبت للشجاع ما يخص المشبه به، وهو اسم جنسه مع

سد طريق التشبيه بإفراده في الذكر، أو كما تقول إذا المنية أنشبت أظفارها" وأنت تريد بالمنية السبع ، بادعاء السبعية لها وإنكار أن تكون شيئا غير سبع ، فتثبت لها ما يخص المشبه به ، وهو الأظفار".(السكاكي، 2011، ص 174).

ثم "قسم الاستعارة وفرعها تفريعات كثيرة، حيث قسمها إلى تصريحيَّة ومكنيَّة، ثم قسم التصريحيَّة إلى تحقيقيَّة وتخييليَّة، ثم قسم كلا من الأخيرتين إلى قطعيه واحتمالية، وفرعهما إلى أصلية وتبعيه وزاد من تفريعاته حين قسمها إلى مرشحة ومجردة، وأفرط في تقسيماته دون أن يذكر أي منهما أبلغ وعلى الرغم من أنه بوب ونظم إلا أنه لم يأت في هذه التفريعات بجديد سوى أنه نقل هذه الاقسام القاهرية نقلا ونسبها إلى نفسه".(شيخون ،1986 ، ص 47-48).

أركان الاستعارة :

"للاستعارة أركان تتلخص فيما يأتي": أبو الشوارب والمصري، 2014، ص 70-71).

* المستعار منه : وهو المشبه به الذي يستعار منه اللفظ الموضوع له ويعطى لغيره.

* المستعار له : وهو المشبه الذي يستعار له اللفظ الموضوع لغيره.

* المستعار : وهو اللفظ الذي تمت استعارته من صاحبه لغيره وبتعبير اخر اللفظ المنقول أي وجه الشبه

شروط الاستعارة :

سر البلاغة في الاستعارة كامن في شروط خمسة وهي:

أ. عند المبالغة في المشبه بوجه الشبه نتناسى التشبيه لادعاء أنه فرد من أفراد الانصاف .

ب. عدم الجمع بين طرفي الاستعارة وإن حدث ذلك فعلى نحو لا يدل على التشبيه.

ج. "تجنب ذكر الأداة في اللفظ ولا في التقدير، فذكر الأداة يفقدها خصوصيتها" (الشوارب، المصري، مرجع سابق ص 70-71.

د. الاستعارة قائمة على التشبيه، لأنها مبنية على ادعاء أن المشبه هو عين المشبه به.

هـ. "تقوم على الابداع الخيال فبواسطتها يستطيع التصرف في فنون القول" (بالطاهر، 2016، ص 262).

ومن مواضع الاستعارة في ديوان (دعني وشأنك) على النحو الآتي:

يقول في قصيدة(أنفة) :

"ومثلي أن يرى أنفاً خليقٌ

وبالجوزاء يسكنها حقيق

تليق بي المكارم أرتديها

ويلبسها سواي لا تليق" (الفرجاني، مرجع سابق، ص 22).

جاء الاستعارة المكنية في قوله (وبالجوزاء يسكنها) ، (المكارم أرتديها) فقد ذكر المشبه الجوزاء ، والمكارم ، وحذف المشبه به البيت ، الثوب وأتى بصفة من صفاتهما (يسكنها ، أرتديها) على سبيل الاستعارة المكنية وتفيد التجسيد والتجسيم وإبراز المعنى .

ويقول في قصيدة أيا وطنا:

"وشر من عدوك إذ تراءى

خؤون من بنيك يدس سماً

إذا نادته كفّ الغدر لبّى

وإن ناديته أضحى أصماً

وكل يدعي بك طيب وصل

وهم يخفون حب المال جماً

فلا تجزع لخائنة الأيادي

ولا تحزن لما بك قد ألمّا"

(الفرجاني، مرجع سابق، ص 24).

صور الشاعر الغدر بإنسان له كفٌ وقد حذف المشبه به وأتى بصفة من صفاته وهي اليد وأتي بالمشبه وهو الغدر في قوله (نادته كفّ الغدر) وكذلك صفة النداء من صفات الإنسان ، على سبيل الاستعارة المكنية التي تفيد التشخيص ، وأيضاّ قله (خائنة الأيادي) صور الأيادي بإنسان يخون ويغدر على سبيل الاستعارة المكنية أيضا وفيها تشخيص وتوضيح للمعنى.

يقول في قصيدة (لا تسألوها) :

"كم ناعساً عبث الكرى بجفونه

ومتيما أمسى صريع الراح

لا تسألوها حين فارقها الدجى

كم قبلة بثّ الندى لأقاح

بل فاسألوها هذي المدينة كم بكت

وتوسّدت في الليل محض جراح

تغفو المدائن كلها ومدينتي

يقظى تعانق عالم الأشباح"

(الفرجاني، مرجع سابق، ص 38).

يصور الشاعر النوم بإنسان يلعب بجفون الناعس في قوله (عبث الكرى بجفونه) وقد حذف المشبه به وأتى بقرينة تدل عليه وهو الفعل (عبث) على سبيل الاستعارة المكنية، وفي قوله (صريع الراح) صوّر الراح بإنسان يصرع ويقتل فهي استعارة مكنية أيضاً، وأيضا صوّر الليل بإنسان يفارق في قوله (فارقها الدجى) فهي استعارة مكنية ، أما في قوله (كم قبلة بثّ الندى لأقاح) صور الندى بإنسان يقبل الزهور فهي استعارة مركبة وهي مكنية أيضاً ثم يجل المدينة تبكي في قوله (هذي المدينة كم بكت) ثم تتوسد الجراح

وتوسّدت في الليل محض جراح على سبيل الاستعارة المكنية ، وجعل المدائن تغفو ومدينته يقظى وتعانق عالم الأشباح ، فهذه عشر استعارات في مقطوعة واحدة لتدل على براعة الشاعر في التصوير وتوظيف الصورة الاستعارية في إثراء تجربته الفنية .

ويقول في قصيدة(خلود) ص46،48

"أمّا أنا فلقد سباني حسنها

وسرى بأوصال الحياة جمود

فحلفت أنك لن تعود إلى الهوى

فسبت فؤادك حينذاك خلود"

(الفرجاني، مرجع سابق، ص 46 ، 48).

تأتي الاستعارة المكنية (سباني حسنها) لتدل على رضوخ الشاعر لمحبوبته فقد وقع في أسرها فقد صوّر الحسن ببطل يأثر ويسبي وقد حذف المشبه به وأتي بدليل عليه وهو (سباني) على سبيل الاستعارة المكنية.

وكذلك (فسبت فؤادك حينذاك خلود) حيث صور الفؤاد بإنسان وقع في الأسر والسبي للتجسيد وإبراز المعنى.

ويقول في قصيدة(أطلي) :

"وكم سفكت لحاظك من دماء

علمت بها وما لا تعلمينا

وكم ثملت قلوب من لماك

فما تغني خمور الأندرينا"

(الفرجاني، مرجع سابق، ص 49).

تتجلى الاستعارة المكنية في (وكم سفكت لحاظك من دماء) فلحاظ محبوبته سيفٌ بتّار تسفك دماءً كثيرة ، وكذلك (وكم ثملت قلوب من لماك) فقد جعل القلوب ترتوي من لماها وتسكر أكثر من خمور الأندرينا، فينجح الشاعر ي رسم صورة لمحبوبته في قوة لحاظها وحلاوة لماها عن طريق استعارتين مكنيتين.

ويقول في قصيدة (خيانة حروف):

"أراك بدفتري عبثا تطوف

فهل خانتك يا قلمي الحروف

أما استهواك في الساحات نزف

وانت بكل معترك شغوف"

(الفرجاني، مرجع سابق، ص 51).

تتمثل الاستعارة في (أراك بدفتري عبثا تطوف ،فهل خانتك يا قلمي الحروف) فجعل القلم يطوف ، ويسمع النداء ، وجعل الحروف تخون) فكلها استعارات مكنية تفيد التشخيص واستحضار الصورة .

ويقول في قصيدة حسن ومكر:

"أسلمت للأحلام جفنك والكرى

وتركت في أرق النوى مضناكا

إنّي إذا ما الليل أطبق جفنه

أطبقت جفني مرغما لأراكا"

(الفرجاني، مرجع سابق، ص 45).

فالشاعر جعل الليل إنساناً يطبق جفنه وينام فيحذف المشبه به ويأتي بقرينة دالة عليه وهي أطبق جفنه على سبيل الاستعارة المكنية.

نلاحظ فيما سبق استخدام الشاعر للاستعارة وتوظيفه لها لخدمة تجربته الشعرية وإثرائها ولكنه لم يستخدم الاستعارة التصريحية.

المبحث الثاني

الإيقاع الداخلي

المطلب الأول: الجناس

اهتم علماء البلاغة بالجناس اهتماما كبيراً فقد عرّفه معظم البلاغيين والنقاد منذ وضع الأسس البلاغيَّة والنقديَّة ، وقد عرّفه العسكري بقوله "أن يورد المتكلم كلمتين تجانس كلّ واحدة منها صاحبتها في تأليف حروفها" (العسكري، 2008، ص 321) .وسمّاه ابن رشيق المماثلة وعرّفه يقوله "أن تكون اللفظة واحدة باختلاف المعنى" (القيروانى ، مرجع سابق ، 1 / 321) ، وعرفه المحدثون بقولهم : "تشابه الكلمتين في اللفظ ، واختلافهما في المعنى" (علوان ، 1995، ص 279). و"يقسمونه إلى أقسام كثيرة لكنه في الوقت قصه در يتطلب المهارة والبراعة، وقد لا يقدر عليه إلا الأديب الذي وهب حاسة مرهفة في تذوق الموسيقى اللفظية". (أنيس ، 2008 ، ص 45).

لا شك أن الجناس من المحسنات التي اهتم به النقاد والبلاغيون ، وأولوه اهتماما واضحا في كتب النقد والبلاغة ؛ "لأنه يعتمد على أساسين هما اللفظ والمعنى أو ما يعرف (بالدال والمدلول) حيث يتفق الدالان تماماً من حيث الشكل مع الاختلاف في المضمون" (الجبار، 2012، ص 138)، "ويعدّ ميزة من مميزات الشعر خاصة في موسيقى الحشو، إذ لا يمكن التقليل من شأنه ؛

لأنه يكمل موسيقى الشعر مع الوزن والقافية والتصريح...؟ ولذلك تكتمل موسيقى القصيدة ، فنهما مقطعان متفقان في الارتقاع مختلقات في المدلول". (عبد العظيم ، 2009، ص 72).

الجناس "وسيلة إيقاعية مثمرة لما تجتمع فيه ، من قوى التأثير المختلفة على الوزن من طريق الجرس من طريق الإيهام والتورية التي تشابه الحروف ، وعلى الخط من طريق رسم العلامات على أن التفاعل بين هذه الجهات لا يلغي الفرق بين طرف وطرف في الجناس، بل يؤكده ويعمقه عبر درجة قصوى من التفاعل بين الصوت والمعنى حيث لن تجد تجنيسا مقبولا ولا سجعا حسنا عن كون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه". (إدريس ، 2018، ص 102).

باعتباره "من الوسائل الأسلوبية الفاعلة في الخطاب الشعري، وتتجلى فاعليته في اعتماد عنصر المفاجأة حيث يتوقع المتلقي أن يؤدي التماثل الشكلي إلى تماثل دلالي ، وهذا يحدث بشكل غير متوقع أو يقود التماثل إلى التخالف" (عبد المطلب ، مرجع سابق، ص 33).

كما أن الركيزة التي يستند إليها الطرفان المتجانسان، اما اشتراكما في أصل واحد مع اختلاف أحدهما عن الآخر في نفى الاشتقاق، ولما تشابه الأصول مع اختلاف طرف من طرف الناتج الدلالي.

ويعرف ابن الأثير الجناس تعريفا موجزا وذلك في قوله: "وحقيقته أن يكون اللفظ واحدا والمعنى مختلفاً" (ابن الأثير ، مرجع سابق، ص 342). وقد صاغ باحث معاصر هذا المفهوم معرفا الجناس: "استعمال لفظين يرجعان إلى مادتين مختلفتين، أو مادة واحدة تمخضت مع كل دال من الاثنين إلى التعبير عن معنى خاص، متقاربتين أو متحدثين في الأصوات ومختلفتين في المعنى" (الطرابلسي – مرجع سابق، ص 65).

وقد أرجع عبد القاهر الجرجاني فضيلة الجناس إلى نصرة المعنى، "فالجناس المقبول هو الذي يطلبه المعنى ولا نبتغي به بدلا يقع من غير قصد من المتكلم". (الجرجاني، مرجع سابق ، ص 5-7).

ويلاحظ أن عبد القاهر أرجع قيمة الجناس كذلك إلى استجابة المتلقي وهذا واضح في قوله: ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة، كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها، فبهذه السريرة صار التجنيس – وخصوصا المستوفى منه المتفق في الصورة من حلي الشعر، ومذكورا في أقسام البديع.

"اعلم أن من الناس من يقول فيه (التجنيس)، و هو تفعيل من الجنس و التجنيس مصدر جنس لأن فعل مصدره التفعيل، كما يقول : سلم تسليما، وكلم تكليما". (الجارم، وأمين، مرجع سابق، ص 8).

ومنهم من يقول: المجانسة و هي المفاعلة من الجنس أيضا: لأن حدى الكلمتين إذا شابهت الأخرى فقد وقع بينهما مفاعلة في الجنسية، المجانسة والجناس مصدران الجانس، لأن فاعل مصدره الفعال والمفاعلة، كما تقول: قاتلة ومقاتلة وقتالا، وخاصمه مخاصمةً وخصامًا.

وأما الجناس لغة فهو "مصدر جانس الشيئ شاكله واتحد معه في الجنس" (المراغي، 1998، ص 354) " ثم اصطلاحا الجناس هو أن تشابه اللفظان في النطق و يختلفان في المعني، وقال السكاكي: الجناس هو تشابه الكلمتين في اللفظ ومن تعريفات السابقة الأستاذ علي الجندي جمال الجناس إلى ثلاثة أسباب:

1. تناسب الألفاظ في الصورة كلها، أو بعضها، و هو مما يطمئن اليه الذوق و يرتاح له.

2. التجاوب الموسيقى الصادر من تماثلا كاملا أو ناقصا فيطرب الأذن ويونق النفس و يهز أوتار القلوب.

3. التلاعب الأخاذ الذي يلجأ اليه المجنس لاختلاب الأذهان الأفكار. (مطلوب ، مرجع سابق، ص 236)

من الشرح المذكور يمكن أن نخلص ما هو الجناس؟ الجناس لغة هو مصدر جانس الشيء شاكله واتحد معه في الجنس، ثم اصطلاحا هو أن تشابه اللفظان في النطق و يختلفان في المعنى.

أنواع الجناس:

أما أنواع الجناس فينقسم إلى قسمين، هما الجناس التام و الجناس غير التام:

1. الجناس التام، هو "ما اتفق في أمور أربعة هي: نوع الحرف وشكلها وعددها وترتيبها". ا(لمراغي ، مرجع سابق، ص 354).

و الجناس التام ينقسم الى ثلاثة أقسام ، هي: المماثل و المستوفي والمركب.

أ. المماثل، هو ما كان اللفظان فيه من نوع واحد اسمين أو فعلين أو حرفين.

المثال : كقوله تعالى: " و يوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة" .

فالساعة الأولى "يوم القيامة" و الثانية "واحدة الساعات".

ب. المستوفي، "هو ما كان اللفظان فيه من نوعين كاسم وفعل". (المراغي، مرجع سابق، ص 354).

كقول أبي تمام: **" مَا مَاتَ مِنَ كَرمِ الزَّمانِ فإنَّه... يَحيا لدى يَحيى بنِ عبْد اللهِ"**

المراد بكلمة " يحيا " الأولى هو فعل ، والمراد بكلمة "يحيى" ثانية هو اسم .

ج. المركب "هو ما تشابها ركناه، و كان أحد هما كلمة مفردة، و الآخر مركبا من كلمتين فصاعدا" (شرف، 3009، ص 42) وهو ثلاثة أنواع:

الأول: الجناس المقرون، و يسمى المتشابه، و هو ما اتفق لفظا و خطا.

كقول البستي: **"يا مَن تدلُّ بوجنةٍ * وأناملَ عَنْ عَنْدَمِ**

كَفِّي جُعِلَتْ لكَ الفِدَا * ألحاظُ عَينكِ عَنْ دَمِي"

الجناس بين "عندم" و "عن دمى" تشابهن الكلمتين فيه اللفظين و خطئين.

الثاني: المفروق، و "هو ما اتفق ركناه لفظا لا خطا، و خص باسم المفروق لافتراق الركنين في الخط".(شرف، مرجع سابق، ص 42) وهو ثلاثة أنواع :

مثل : "**كنتُ أطمعُ في تجريبِك ، و مطايا الجهلِ تَجْري بك**".

الجناس بين "تجرى بك "مركب من لفظتين ، و بين" تجريبك" لفظة واحدة ، جناس تركيب لفظها لا خط.

الثالث: المرفو، و "هو ما كان أحد ركنيه مستقلا، و الآخر مرفواً من كلمة أخرى، أو يضم له حروف المعاني حتى يعتدل ركنا التجنيس". (شرف، نفس المرجع، ص42.

كقول الحريري: **"ولا تَلهُ عن تذكارِ ذنبكَ وابْكه * بدمعٍ يُضَاهِي المُزنَ حالَ مُصابه**

ومثِّلْ لعينيكِ الحِمامَ ووقعَه * وروعةَ ملْقاه ومطعمَ صَابه"

المراد بكلمة " مصابه " الأولى كلمة مركب من " مصاب + هاء " و المراد بكلمة " مطعم صابه " و ثانها من جزء الكلمة من " م + صاب + الهاء ".

2. الجناس غير التام ، هو ما اختلف فيه اللفظان في واحد من الأمور الأربعة.

أ. الاختلاف في نوع الحروف (المضارع).

اشترط في اختلاف نوع الحروف إلا أن يكون الاختلاف بأكثر من حرف، وذلك على وجهين :

1. أن يكون هو وما يقابله في الطرف الآخر متقاربي المخرج إما في الأول كقول الحريري: " بَيْنِي وَبَيْنَ كُنِي لَيْلٌ دَامس وطريق طامس ، فجانس هنا بين كلمتين "دامس" و "طامس" وهما مختلفان في الحروف إلا أنهما متقاربان في المخرج لأ الدال والطاء مخرجهما اللسان". (شرف ، مرجع سابق، ص 42).

أو في الوسط كقولهم: الْبَرَايَا أَهْدَافُ الْبَلَايَا. والشاهد في المثال "حرف الراء" في اللفظ البرايا "واللام" في اللفظ البلايا كلاهما مختلفان في الحروف مع تقاربهما في المخرج لأنهما خارجان من اللسان وهذا الجناس يسمى جناسا مضارعا.

ب. الاختلاف في هيئة الحروف (المحرف)

وهو على قسمين:

1. الجناس المحرف هو أن يكون الاختلاف في اللفظ في ناحية الحركة أو السكون مثال الإختلاف في الحركة فقط كقول العرب "جنة البرد جنة البرد. والشاهد في البرد والبرد لأنها يجانس جنسا محرفا حيث أن البرد الأول مضموم الباء وأن البرد الثاني مفتوح الباء.

والمثال لاختلاف والسكون كقولهم " الجاهل إم مفرط أو مفرط". شاهد في كلمتي مفرط أو مفرط حيث أنهما يجانسان حرفا لأن المفرط الأول ساكن الفاء والمفرط الثاني مفتوح الفاء.

2. ما كان يتماثل فيه اللفظان في الركن ولكن بينهما اختلاف في الخط كقول الشاعر:

"مِنْ بَحْرِ شِعْرِكَ اغْتَرِفْ * وَبِفَضْلِ عِلْمِكَ اعْتَرِفْ"

فالتصحيف هنا في كلمتي " اغترف" و "أعترف" لأنه يتماثل أحدهما الآخر بإبدال على صورة المبدل منه ليكون النقط فارقا بينهما في لقايره وهذا الجناس يسمى جناسا مصحفا.

ج. الاختلاف في عدد الحروف

سمي ناقصا سكون على وجهين:

1. ما كان بزيادة حرف واحد إما في الأول يسمى مردوفا. كقوله تعالى: "والتفت السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذْ المَسَاقُ" (سورة القيامة 29)، هذا المردوف في كلمتي الساق والمساق لزيادة حرف الميم في أول اللفظ وأما في الوسط اللفظ يسمى مكتنفا كقولهم " جدى جهدي" هنا جناس مكتنف لزيادة حرف الهاء في وسط اللفظ وإما في الآخر يسمى مطرفا كقول أبي تمام:

"يمدُّونَ منْ أيدٍ عَواصٍ عَواصمٍ * تَصُولُ بِأَسْيافٍ قَواضٍ قواضبِ"

(الهاشمي، مرجع سابق ، ص 400).

هنا جناس مطرف في كلمتي "قواض" و "قواضب" الزيادة حرف الباء في آخر اللفظ.

2. ما كان بزيادة أكثر من الحروف يسمى مذيلا كقول الخنساء :**"إنَّ البُكَاءَ هُو الشِّفا * مِنَ الجَوى بيْن الجَوانِحِ"**

(الصعيدي، د.ت، ص 82).

هنا جناس مذيل في كلمتي "الجوى" و "الجوانح" الزيادة حرف النون والحاء في اللفظ الثاني.

د. الاختلاف في ترتيب الحروف

سمي هذا الاختلاف الجناس القلب هو الذي يشتمل كل واحد من ركنين على الحروف الآخر من غير زيادة ولا نقص ويخالف أحدهم الآخر في الرتيب، وهو على قسمين:

1. قلب الكل

هو ما انعكس فيه ترتيب الحروف كلا كقولهم "حسامه فتح لأوليائه، وحتف لإعدائه". هنا قلب الكل بين "فتح" و "حتف"، انعكاس كليا لأن الأول مقلوب الثاني.

2. قلب البعض

هو "ما انعكس فيه الترتيب بعضا، كقوله النبي: "**اللَّهم اسْتُرْ عَوْراتِنا وآمِن رَوْعَاتِنَا**" (الصعيدي، مرجع سابق، ص 356). هنا قلب البعض في عَوْراتِنا و رَوْعَاتِنَا" لانعكاس الترتيب ليس في الحروف بل في بعض الحروف ، قد وجد هنا في لفظتي "عَوْرا" و "رَوْعَا" وهما مقلوبا ولكن في بعض الحروف.

والملحق بالتجنيس نوعان:

1. الجناس الاشتقاقي.

هو توافق أصل اللفظين في الاشتقاق كقوله تعالى:(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ) (سورة الروم 3) ، والشاهد في الجناس الاشتقاق في قوله "أقم والقيم" كلامهما متشقان من قام – يقوم.

2. الجناس شبه الاشتقاقي:

هو اختلاف الأصل اللفظين فيما يشبه الاشتقاق دون الاشتقاق.

كقوله تعالى: (**إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ**) (سورة التوبة 38) والشاهد في هذا الجناس قوله "الأرض" و "أرضيتم" الأرض هنا الكرة السيارة التي تعيش عليها والثاني من الرضا كأنهما من مشتق واحد.

وقد وظف الشاعر عصام الفرجاني الجناس لخلق ايقاع موسيقي وجرس أخاذ وذلك على النحو الآتي:

يقول في قصيدة واراكَ قومُك:**"واراكَ قومُكَ في التُّرابِ وعادُوا**

فبَكتْ ثمودُ في التُّرابِ وعادُ"

(الفرجاني، مرجع سابق، ص 27).

فبين كلمة (عادوا) الفعل الماضي وكلمة عادُ الاسم جناس تام حيث التوافق في الحروف والأصوات والحركات إلا أن الفعل ينتهي بحركة طويلة والاسم ينتهي بحركة قصيرة ولكن الإيقاع واحد ومتشابه في كلتا الكلمتين مع اختلاف المعنى . وهذا يعطي جرساً موسيقياً آخاذاً.

ويقول في قصيدة علام حزني 67

"علامَ حُزني والآهات والوجع؟

سيان عندي إن غابوا وإن رجعوا

ألا ابكي على من عز دمعهم

واسهر الليل والأحباب قد هجعوا"

(الفرجاني، مرجع سابق، ص 67).

وظّف الشاعر الجناس الناقص بين كلمات (وجع، رجع، هجع) توظيفاً موسيقياً حزيناً فالحرف الحلقي (العين) مع الجيم توحي بالألم وتعطي جرساً حزيناً .

ويقول في قصيدة رحيل شاعر:

"بكيتُ النَّوى وانتابني الوجل

فقلتُ لي ما الذي يبكيك يا رجل"

(الفرجاني، مرجع سابق، ص 78).

بين (رجل) و (وجل) جناس ناقص يعطي جرساً موسيقياً وإيقاعاً جميلاً

ويقول في قصيدة لا تسألوها:

"لا تسألوها كل صباح

كم نائماً ملء الجفون وصاح"

(الفرجاني، مرجع سابق، ص 38).

بين كلمة (صباح) وكلمة (صاح) جناس ناقص يعطي جرساً وإيقاعاً آخاذاً

ويقول في قصيدة عاصفة عين :

"يا من إذا نظرت لا ينفع الحذر

ورمش عينيك لا يبقي ولا يذر"

(الفرجاني، مرجع سابق، ص 34).

فكلمة (حذر) اسم وكلمة (يذر) فعل ، بينهما جناس ناقص يعطي جرساً موسيقياً يأخذ الأسماع والعقول.

المطلب الثاني : التصريع

التّصريع لغةً من صرعَ يصرَع صرعًا، وصرعَ فلانٌ فلانًا إذا طرحه أرضًا، وصرعَ العدوَّ: قتله وصرع النجَّارُ بابًا إذا جعله مصراعين أي قسمين أو جزأين، ومنه معنى التصريع اصطلاحًا وهو أن يأتي الجزء الأخير من الشطر الأوّل الذي يُسمَّى الصدر في البيت الشعري متَّفقًا مع الجزء الأخير من الشطر الثاني الذي يسمَّى العجز في الوزن والقافية والإعراب، [2] "تعريف و معنى تصريع في معجم المعاني الجامع"، المعاني، اطلع عليه بتاريخ 02-12-2020 . بتصرّف. وعرَّف ابن رشيق التصريع بأنَّه "ما كانت عروض البيت الشعريّ فيه تتبعُ الضرب، فتزيد بزيادته وتنقص بنقصانه" (ابن رشيق، مرجع سابق ، ص 173). بتصرّف وقال قدامة بن جعفر: "هو أن يعمد الشاعر لجعل مقطع أوّل مصراع من البيت الشعريّ في القصيدة مثل قافيتها". (ابن جعفر، د.ت، ص 14).

يعرَّف التصريع أيضًا بأنَّه توافق في القافية بين الصدر والعجز في البيت بغض النظر عن اختلاف الوزن، ويظهر ذلك في الأمثلة فيما يأتي،: في المَوتِ ما أَعيا وَفي أَسْبابِهِ ** كُلُّ امْرِئٍ رَهْنٌ بِطَيِّ كِتابِهِ بيت لأحمد شوقي فيه تصريع واضح، حيثُ تشابهت نهايتا الشّطرين في القافية واختلفتا في الوزن فجاء نهاية الصدر على وزن: مستفعلن، ونهاية العجز على وزن: متفاعلن ،

بِأَبِي وَروحي النَّاعِمات الغِيدا ** البَاسِماتِ عَنِ اليَتيمِ نَضِيدَا

بيت لأحمد شوقي أيضًا على البحر الكامل، وفيه تختلف النهايتان في الوزن، فالأولى جاءت: مفعولن، والثانية على وزن: فعلاتن ،

لَم يَبْقَ رَسْمٌ للأَدَبْ ** أَوْدَى ضَياعًا وَذَهَبْ

هذا البيت للشاعر ابن الأبار على بحر الرجز، فيه تصريع اختلفت فيه النّهايتان، فجاءت فيه نهاية الصدر على وزن: مستفعلن، والثانية: مفتعلن.

طَرَقَتْ أسماءُ والرَّكْبُ هُجودُ ** والمطايا جُنَّحُ الأَزْوارِ قُودُ

في قول الشاعر ابن الرومي على وهو وزن الرمل، وجاءت فيه العروض على وزن: فعلاتن وضربه على وزن : فاعلاتن.

آذَنَتْنا بِبَيْنِها أَسْماءُ ** رُبَّ ثاوٍ يملُّ منه الثَّواءُ .

ويعرف ابن رشيق القيرواني ظاهرة التصريع بقوله: "فأما التصريع فهو ما كانت عروض البيت فيه تابعة لضربه تنقص بنقصه، وتزيد بزيادته ... والتقفية: أن يتساوى الجزءان من غير نقص ولا زيادة، فلا يتبع العروض الضرب في شيء إلا في السجع خاصة ... فكل ما لم يختلف عروض بيته الأول مع سائر عروض أبيات القصيدة إلا في السجع فقط فهو مقفى". (ابن رشيق ، مرجع سابق، 1/ 173-174).

وقد ذهب ابن رشيق إلى "أن مذهب فحول الشعراء ألا يأتوا بالتصريع إلا في مهمات القصائد فيما يتأهبون له من الشعر وهذا يدل على فضل التصريع ، أما ابن الأثير فقد كره تكرار التصريع في القصيدة ذاتها وإن كان يرى أن التصريع يدل على سعة

القدرة في أفانين الكلام" (ابن الأثير، مرجع سابق، 1/ 338)، وقد رأى فيه باحث معاصر عودة مبدئية متصلة بحركة الذات إلى الانبثاق ومعاودة الإعلان عن وجودها الخارجي داخلياً، (الهاشمي ، مرجع سابق، ص 312).

أ. التصريع في الدرس اللغوي :

جاء في معجم مقاييس اللغة : " (صرع) الصاد والراء والعين أصل واحد، يدل على سقوط شيء إلى الأرض عن مراس اثنين ، ثم يُحمل على ذلك، ويُشتق منه ، من ذلك صرعت الرجل صرعاً وصارعته مصارعة، ورجل صريع. والصريع من الأغصان ما تهدل ، وسقط إلى الأرض ، والجمع صرع" .

أما ابن منظور ت (711هـ) ، فيقول في معرض حديثه عن مادة (صرع): " والصرع علة معروفة والصريع : المجنون ... والصرعة الحليم عند الغضب، لأن حلمه يَصْرَعُ غضبه على ضد معنى قولهم: الغضب غول الحلم. (ابن منظور ، مرجع سابق، مادة (صرع)، ويقول : " صرع الباب: جعل له مصراعين، قال أبو إسحاق: المصراعان بابا القصيدة بمنزلة المصراعين اللذين هما بابا البيت ، قال : واشتقاقهما من الصرعين، وهما نصفا النهار..

ويقول الزبيدي (ت 1205هـ) : " وتصريع الشعر هو : تقفية المصراع الأول، مأخوذ من مصراع الباب، وقيل: تصريع البيت من الشعر : جعل عروضه كضربه، (الزبيدي مرجع سابق، مادة (صرع).

ب. التصريع في الدرس الأدبي :

يقول ابن رشيق القيرواني (ت 456 هـ) : "فأما التصريع، فهو ما كانت عروض البيت فيه تابعة لضربه، تنقص بنقصه، وتزيد بزيادته" (ابن رشيق، مرجع سابق، 173/1.

ويقسمه ابن أبي الإصبع المصري (ت 654 هـ) على قسمين ، يقول: "التصريع على ضربين: عروضي، وبديعي، فالعروضي عبارة عن استواء عروض البيت وضربه في الوزن والإعراب والتقفية بشرط أن تكون العروض قد غيرت عن أصلها، لتلحق الضرب في زنته، والبديعي: استواء آخر جزء في الصدر، وآخر جزء في العجز في الوزن والإعراب والتقفية، (ابن أبي الإصبع المصري،د.ت،305/2).

ويحده الخطيب القزويني (ت 739 هـ) بجعل العروض مقفاة تقفية الضرب" (القزويني، مرجع سابق، 365).

وعن علاقة التصريع بالتقفية، فإن "أهل البديع يسمون التقفية تصريعاً، إذ لا يعتبرون الفرق بينهما".

يقول قدامة بن جعفر (ت 337 هـ) في نعت القوافي : "أن تكون عذبة الحرف، سلسة المخرج وأن تقصد لتصيير مقطع المصراع الأول في البيت الأول من القصيدة مثل قافيتها". (ابن جعفر، د. ت، 42)

ويقول ابن سنان الخفاجي (ت 466 هـ) : "وأما التصريع، فيجري مجرى القافية، وليس الفرق بينهما إلا أنه في آخر النصف الأول من البيت والقافية في آخر النصف الثاني منه"، (ابن سنان الخفاجي، 1995، ص 180)

وربما وظف الشعراء هذا الفن لأسباب تطرق إليها بعض النقاد منها : دليله على إجادتهم ، يقول (قدامة) : " فإن الفحول والمجيدين من الشعراء القدماء والمحدثين يتوخون ذلك، ولا يكادون يعدلون عنه، إذ فيه دلالة على سعة القدرة في أفانين الكلام". (العلوي، د.ت،ص 413).

في حين يعزو (ابن رشيق) توظيفه إلى إعلام المتلقي بالفن الأدبي (الشعر)، وتمييزه قبل أن يقرأ هويته، وهو يصل إلى القافية، يقول: "وسبب التصريع مبادرة الشاعر القافية، ليعلم في أول وهلة أنه أخذ في كلام موزون غير منثور ، ولذلك وقع في أول الشعر". (ابن رشيق، مرجع سابق، 174/1).

وإذا كان في التصريع علامة فرق بها (ابن رشيق) بين الشعر والنثر، نرى (ابن سنان) ينظر إليها وهو يفرق بها بين أبيات الشعر نفسه ، يقول : "والذي أراه أن التصريع يحسن في أول القصيدة ليميز بين الابتداء وغيره" (ابن خفاجة، مرجع سابق، ص 181). بل ذهب إلى القافية وإمكان معرفتها ، يقول : "ويفهم قبل تمام البيت روي القصيدة وقافيتها".(ابن الأثير ، مرجع سابق، 338/1).

أما (الخطيب القزويني)، فيرى في هذا الفن ما يساعد المتلقي في مجال الميزان الصرفي للبيت إذا ما وقع بين مصراعيه اختلاف، يقول : "وهو مما استحسن، حتى أن أكثر الشعر صرع البيت الأول منه ولذلك متى خالفت العروض الضرب في الوزن جاز أن تجعل موازنة له، إذا كان البيت مصرعاً". (القزويني، مرجع سابق، ص 365).

التصريح البديعي : يقتصر على التماثل الصوتي للقافية

"اليومَ أنجزَ وعدَهْ * وحَقَقَ الحُلْمَ وَحْدَه

أنا الآتي إليك وفي آهاتي * صدى حبّي وأعذبُ أغنياتي"

(الفرجاني، مرجع سابق، ص 245 ـ 264).

"بلدي ما أروُع يا بلدي * أن يزهر حبك في خَلَدي

دمعة تنساب من عينيك أغلى * من كنوز الأرض أغلى

بعثت آياتها في قلمي * و سَرَت راقصةً في عَلمي"

(الفرجاني، مرجع سابق، ص 274 ـ 305 ـ 41).

التصريح يتميز الشعر ذو الشطرين عن غيره بمميزات ، تؤكد اصالته التراثية ، وقد اثبتت الدراسات الأدبية قديما وحديثاً الاهمية الموسيقى بالنسبة للشعر ، "فقد تكون من علامات التفريق بينه وبين غيره ومن المصادر الموسيقى الداخلية للنص الشعري التصريح، وهو ما كانت عروض البيت فيه تابعه للضرب ، تنقص بنقصه ، وتزيد بزيادته" (ابن رشيق، مرجع سابق، 173/1)، أما السكاكي فيرى "أنه ما يتعمد فيه اتباع العروض الضرب في وزنه ورويه".السكاكي ، 1976 ، ص 527).

اعتمد الشعراء قديماً على التصريح اعتماداً كبيراً خاصة في مطلع القصائد لأنَّه يجذب انتباه المتلقي خاصة إذا لقيت القصيدة بين جمع من الناس، "ومن النادر أن تجد قصائد كالمعلقات تخلو منه ، ويعد ظاهرة جمالية موسيقية مازال شعراؤنا في العصر الحاضر يميلون إليه وهو أسلوب من القفز إلى الأمام قد يتسع مداه، ولكنه لا يقتضي أكثر من بيت واحد، لأنه يتحقق في صدر البيت ويتجسم بربط آخر الصدر بآخر العجز" (الطرابلسي ، 2012 ، ص 83). هو من المحسنات اللفظية التي تعمل كالضابط الإيقاعي في النص وجاء التصريع في ديوان دعني وشأنك في تسع وعشرين قصيدة نحصرها في الجدول الآتي:

ر	القصيدة	موضع الاستشهاد	الصفحة
1	أنفة	ومثلي أن يرى أنفاً خليق وبالجوزاء يسكنها حقيق	22
2	أيا وطناً	أيا وطناً به الخطب ادلهمّا غظ الأعداء كن جبلاً أشمّا	24
3	واراك قومك	وراك قومك في التراب وعادوا فبكت ثمود في التراب وعادُ	27
4	خطأُ شوقي	أخطأت شوقي حين قلتُ عجولاً كاد المعلم أن يكون رسولاً	30
5	عاصفة عين	يا من إذا نظرتْ لا ينفع الحذر ورمش عينيك لا يبقي ولا يذر	34
6	لا تسألوها	لا تسألوها عند كل صباح كم نائماً ملء الجفون وصاحِ	38
7	موج امرأة	قلبي لدى جفنيك ضيّع مرفأه ما أذبل الجفن المهيض وأجرأه	39
8	مصارحة	كم أنت يا قلبي بتلك متيمُ وأراك لا تشكو ولا تتكلمُ	42
9	خلود	شَعْرٌ ووثغر باسم وخدود والجفن يشهد والعيون السود	45
10	أطِلّي	أطِلّي يا خلود لكي تُرينا جمالاً ليس تعرفه أثينا	49
11	خيانة حروف	أراك بدفتري عبثاً تطوف فهل خانتك يا قلمي الحروف	51
12	جرعة حب	أحبك كل يوم مرتين وبينهما أحبك بين بين	53
13	حُسْنٌ ومكرٌ	الحسن زانك والدهاء كساكا فبأي جرم يا ترى أمراكا	45
14	لماذا؟	لماذا التقيتكِ بعد الغيابْ لماذا أعدتِ الندى للسحابْ	57
15	تساؤل	سألت القلب عنه فما أجابا نعيماً كان حبك أم عذاباً	64
16	علامَ حزني؟	علام حزني والآهات والوجع سيّان عندي إن غابوا وإن رجعوا	67
17	شؤون	لهم شأن سواي ولي شؤوني ففيمَ أهجتُ مُسْبِلَة الشؤونِ؟	77
18	رحيل شاعر	بكيت يوم النوى وانتابني الخجل فقلتِ لي ما الذي يبكيك يا رجلُ	78
19	ما زلت طفلة	أراك كطيف يمر للحظة أراك كحلم بنوم ويقظة	92
20	صحوة	بين وجد وانتحاب ووصال واغتراب	100
21	أزف الرحيلُ	أزف الرحيلُ وحان زمّ متاعي هيّا هريرة أقبلي لوداعي	102
22	صحوة قلب	في حبه يا قلب ما أغواكا روم المتاعب ذا الذي أشفاك	105
23	غيبي عني	غيبي عني كي أنساك أنسى زمن الحب الباكي	109
24	الكتاب	إذا غاب الصحاب وإن أطلّوا فإنّ كتابك الخلّ الأجلُّ	111
25	إعراب	تقول أعرب لنا ما تحته خطُ وما درت بفؤادي نحوها يخطو	114
26	مرآة السفيه	يظن بأنّه لا عيب فيه وكل السم مدسوس بفيه	115
27	سليني	سليني إذا كنت لا تعلمين مدى سحر عينيك في العالمين	116
28	سلام	سلام أيّها الأقصى سلام حرام أنت والبلد الحرام	119
29	عيناك	عيناك لو تدرين ما عيناك فتكت بأهل الراح والنساك	120

ويتضح من الجدول السابق أن الشاعر نظّم على الشعر العمودي 29 قصيدة من مجموع قصائد ديوانه التسع والخمسين أي ما يقارب الخمسين في المائة من الديوان رغم الخداع الكتابي للأبيات فتظنها من الشعر الحر وقد التزم فيها جميعاً التصريع لحسه الموسيقي المرهف.

المطلب الثالث: التَّكرار

مفهوم التَّكرار:

التَّكرار لغة : "الرجوع، مصدر للفعل كرَّ ، أجمع أصحاب المعاجم – القديمة والحديثة على أن التكرار يتمثل في الرجوع إلى الشيء وإعادته مرة بعد أخرى" (ابن منظور ، مرجع سابق، 135/5) و(الزمخشري ، مرجع سابق، 2/ 128).

التَّكرار اصطلاحاً : "التَّكرار ظاهرة أسلوبية في النّص الأدبي، حاول البلاغيون العرب أن يدرسوها من خلال الشواهد الشعرية أو النثرية، فتحدثوا عن فوائدها وأثرها" (القرعان، فايز عارف : في بلاغة الضمير والتكرار، ص 117). وهو عندهم تكرار اللفظ الدال أكثر من مرة في سياق واحد، يقول ابن الناظم: " التَّكرار : إعادة اللفظ لتقرير معناه، ويُستحسن في مقام نفي الشك" (الجيلاني، 2011، ص 119)، وهو "مصطلح نقدي ظهر في الدراسات النقدية القديمة وباتت رؤية النقاد القدماء لحقيقته متقاربة إلى حد ما، فهي لم تخرج عن إعادة الكلمة أو أكثر في اللفظ أو المعنى لغرض ما " الحولي، 2016 ، ص 7 – 11)، فهو من سنن العرب في كلامها ومن أساليب محاسن الفصاحة، فإذا أرادوا الإبلاغ عن شيء معتنى به كرروه توكيداً.

أهمية التَّكرار : "أصبح التكرار في الشعر العربي المعاصر ظاهرة مهمة تستدعي الدراسة والعناية، وهو لون من ألوان التجديد فيه لما يحتويه من إمكانات تعبيرية وإيحائية وجمالية يستطيع الشاعر من خلاله أن يرتفع بالنَّص الشعري إلى مرتبة الأصالة والجودة موازنة بأسلوب التكرار في الشعر العربي القديم الذي ظل في إطار محدود سواء في أنماط بنائه أم في دلالته" (السيد، 2009، ص 143).

وتحول إلى أسلوب فني تتكئ عليه القصيدة الحديثة فلم يعد ذلك التكرار الذي انحصر في تكرار اللفظ أو تكرار المعنى، بل أصبح تكتيكاً فنياً على أيدي شعراء التفعيلة، فقد استخدموه على نطاق واسع وبأشكال متنوعة ودلالات عميقة ؛ لقناعتهم التامة.

بدوره الواضح في إخصاب شعرية النص ورفده بالبواعث الإيحائية والجمالية، إضافة إلى إسهامه في "بناء القصيدة وتلاحمها بما يلحقه أو يكشف عن علائق ربط وتواصل بين الأبيات أو الأسطر تتشكل من خلالها لحمة القصيدة ". أبو مراد ، 2002، ص 111).

وللتكرار وظائف جمالية تتمثل في البنية التشكيلية والاجتماعية، ووظيفة نفعية تتمثل في دور التكرار في الكشف عن المعنى، وقدرته على إيصال الفكرة، لذا أسهب الشعراء المعاصرون في استخدامه بهدف تحقيق التركيز على المتلقي، أو تحقيق إيقاع موسيقي، أو ترابط معنوي ونفسي .

وجاء التَّكرار في الديوان على النحو الآتي:

يقول في قصيدة أطلي: 49

"أطلِّي يا خلود لكي تُرينا

جمالاً ليس تعرفه أثينا

أطلِّي كي تري قوما تراموا

على أعتاب حسنك هائمينا

وكم سفكت لحاظك من دماء

علمت بها وما لا تعلمينا

وكم ثملت قلوب من لماك

فما تغني خمور الأندرينا"

(الفرجاني، مرجع سابق، ص 49).

كرر الشاعر فعل الأمر أطلِّي ملحاً على محبوبته طالباً منها إطلالها كي تظهر بسحرها وجمالها، وكرر(كم) الخبرية لدلالة كثرة ما تفعله عيونها وكثرة سكرة القلوب من لماها فالتكرار هنا للتنوع والمبالغة.

ويقول في قصيدة رحيل شاعر:

"الله أكبر يا بغداد يا بلدي

الله أكبر يا من خطبكم جلل"

(الفرجاني، مرجع سابق، ص 80).

يكرر الشاعر الجملة الاسمية (الله أكبر) متأثراً بما حدث لبغداد ومن خطبهم الجلل.

ويقول في قصيدة ما زلت طفلة:

"غدا تدركين

غدا تدركين

على حين غفلة

بأنّك ماعدت طفلة

ما عدت طفلة!"

(الفرجاني، مرجع سابق، ص 95).

يكرر الشاعر في آخر قصيدته أن طفلته ما عادت طفلة مؤكداً لها ذلك غدا تدركين، غدا تدركين

ثم يكرر النفي ما عدت طفلة ، ما عدت طفلة ، والتَّكرار هنا للتوكيد والتثبت من المعنى. وإقامة الحجة عليها.

وفي قصيدة الورد لك يقول:

"الورد لك

والشعر لك

ولك القوافي

يا ملك"

(الفرجاني، مرجع سابق، ص 98).

هنا يكرر الشاعر حرف الجر اللام مع ضمير الخطاب (لك) ثلاث مرات لامتلاك محبوبته لكل شيء فلها الورد ولها الشعر ولها القوافي ، والتكرار يفيد التنوع وتوكيد أنَّ محبوبته غير كل الناس فهي ملك .

وفي قصيدة (صحوة) يقول:

"بين وجد وانتخاب

ووصال وانتحاب

بين هجر من حبيب

ودموع للتصابي

بين شوق وانتظار

ضعت مني يا شبابي"

(الفرجاني، مرجع سابق، ص 100).

كرر الشاعر ظرف المكان (بين) وحرف العطف (الواو) فهو يصف شبابه الذي ضاع ، ضاع بين المتناقضات التي تقتضي البينية الجد والانتخاب ، الوصال والانتحاب ، الهجر والدموع ، الشوق والانتظار.

فجاء التَّكرار مناسباً للمقام .

وفي قصيدة (صحوة قلب) يقول:

"سيقول:

إنّي للمودة حافظ

ويقول:

عمري لوطلبت فداكا

ويقول:

إنّي عاشق ومتيم

ما كنت أدري ما الهوى

لولاك"

(الفرجاني، مرجع سابق، ص 107).

كرر الشاعر الفعل (يقول) وجعلها مركز المقطع لأنه يصف من يدعي الحب كذباً فهو قول فقط لا فعل، فالتكرار هنا يدل على تعدد الأقوال واختلافها .

ويقول في قصيدة (سليني):

"سَليني إذا كنت لا تعلمين

مدى سحرعينيك في العالمين

سَلي عن فؤاد ببينٍ تلظّى

وصبٌّ يذوب إذا تنظرين

سَليني عساي أجيب فكم كم

تمنّيتُ لو أنّك تسألين

وكم فوق جفنيك غنّى البنفسج

كم بين هدبك سر دفين"

(الفرجاني، مرجع سابق، ص 116).

كرر الشاعر هنا الفعل (سلي) ملحًا على محبوبته أن تسأله وتتحدث معه ، ثم يكرر (كم) أبع مرات قائلا: فكم كم تمنيت مؤكداً شغفه بسؤالها ثم يكرر كم بعدها واصفا حسنها وجمالها.

الخاتمة:

لا شك أن النصوص الأدبيَّة تمثل اللغة في مستواها الإبداعي، فضلا عن مستواها البلاغي، الذي يُعد وظيفة اجتماعية لها، والذي من أجله كانت اللغة، في حين أن المستوى الإبداعي هو تعبير عن الغرض وزيادة، وهذه الزيادة ما هي سوى محاولة التأثير في الآخرين وإقناعهم مع مواءمة الكلام لمقتضى حال المخاطبين والمقام الذي يقال فيه، ومن هنا يحصل التميز بين الأدباء وغيرهم من جهة، وبين الأدباء فيما بينهم من جهة أخرى، حتى يحصل للكلام التي تجعل من نص أدبي ما في مرتبة عليَّة ينفرد بها في أسلوبه وتركيبه عن غيره في أداء المعنى ، فهكذا أثبت شاعرنا عصام الفرجاني فهو شاعر موهوب ، يصنع من اللغة عالما شعريا خاصاً ، وبعاطفته الجياشة مشاعر وأحاسيس يملأ الكون، وبصوره وخياله عالمًا مثالياً ، فاللغة طيعة في يده، والخيال يواتيه، والأفكار تراوده، والموسيقى تعزف له أجمل إيقاع.

ومن خلال ما سبق يمكن أن نستنتج ما يأتي:

1 – تنوعت معجم الشاعر اللغوي كما تعددت موضوعاته فقال في الوطن والطبيعة والمرأة كغيره من الشعراء.

2 – وظّف الشاعر الأساليب المختلفة لخد تجربته وإثرائها من تقديم وتأخير ، وحذف وذكر ، وتكرار. فهو شاعر متمكن يمتلك أدواته الفنية وبجديد توظيفها.

3 – جاءت الصورة الفنيَّة معبرة عن تجربته الشعرية وموافقة المتنوعة، فكان تعبيره صادقاً وعاطفته قوية .

4- تنوع الشاعر بين الشعر العمودي والشعر الحر ، بنسه 50% ، وتميز شعره العمودي بالاستهلال بالتصريع الذي يعطي جرسا موسيقيا يطرب له المتلقي .

5- نوّع الشاعر من مصادر موسيقاه الداخلية من جناس وتصريع وغيره ، لإضفاء الطابع الغنائي على شعره.

وختاما فهذا فيض من بحر ، وعلى الدارسين والباحثين سبر أغوار هذا الديوان والتعمق فيه ، وهذا اجتهادنا فإن أصبت فمن الله ، وإن أخطأت فمن الشيطان ونفسي، والله أسال التوفيق والسداد، وآخر دعواهم أنِ الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع:

*** القرآن الكريم**

أولاً: المصادر

دعني وشأنك، عصام الفرجاني، دار الجابر، 2023م.

ثانيا: المراجع

أ– المعاجم اللغوية:

– الجوهري،إسماعيل بن حماد ، الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، 1399 هـ – 1979م.

– الخليل بن أحمد الفراهيدي. كتاب العين ، ترتيب وتحقيق د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، الطبعة الأولى ، 1424 هـ – 2003م.

– الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد ، تهذيب اللغة تح: عبد الكريم العزباوي، مراجعة :محمد علي النجار، وآخرين، الدار المصرية للتأليف والترجمة (د. ت).

– ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل. المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى 1421هـ – 2000م

ابن فارس: ، أحمد، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق وضبط : عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت، (د. ت) .

الفيروزبادي، القاموس المحيط، تح: محمد نعيم العرقسوسي، ط 8، لبنان: مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، 2005.

– ابن منظور الإفريقي محمد بن مكرم ، لسان العرب ، صححه أمين محمد عبد الوهاب محمد الصادق العبيدي دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة 1419هـ – 1999م.

ب – الكتب

1- ابن أبي الإصبع المصري تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن،: 305/2 ، تقديم وتحقيق د. حفني شرف، أشرف على إصدارها : محمد توفيق عويضة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1963م.

2- ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدم له وحققه، وعلق عليه د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، مطبعة نهضة مصر القاهرة ، (د.ت).

3 – بن إدريس، عمر خليفة ، البنية الإيقاعية في شعر البحترى ، د ط.

4- بالطاهر، بن عيسى، البلاغة العربية مقدمات وتطبيقات، ط1، ليبيا، لبنان: دار الكتب العلمية، دار الكتب الجديدة، 2008.

5- التويس ، ليال فردان، صورة المرأة في القصيدة العربية عموما العراقية خصوصا ، مؤسسة الثور للثقافة والاعلام 2009/4/12.

6 –الجاحظ: البيان والتبين، تح: عبدالسلام هارون، بيروت، دار الجبل دار الفكر للطباعة والنشر،جـ1 ، دت، دط.

7 – الجرجاني،عبد القاهر، أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه، محمود شاكر، دار المدني، جدة، ط1، 1991م،

و دلائل الاعجاز ، دار الفكر، دمشق – سورية، ط1، 2007م..

8 – ابن جني ، أبو الفتح عثمان ابن حنبي ، الخصائص، تح: محمد على النجار، المكتبه العلمية،

9 – الحنصالي، سعيد ، الاستعارة والشعر العربي الحديث، دار توبقال للنشر، ط1، 2005م.

10 – الخفاجي، ابن سنان، سر الفصاحة، شرح وتصحيح : عبد المتعال الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، ميدان الأزهر، 1969م.

11 – الرحموني ، محمد بو حمدى عبد الرحيم ، التحليل اللغوي الأسلوبي، مؤسسة يونه للبحوث والدراسات ، ط1، 2009، عنابة الجزائر.

12 – ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، حققه، وفصله، وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد، ط4 ، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، لبنان، 1972م.

13- روابنية ، حفيظة، صورة المرأة ودلالاتها في ثلاث مقطوعات شعرية جاهلية، ، نشر في مارس 1990، مجلة العلوم الاجتماعية الإنسانية تصدرها جامعة عناية- الجزائر دراسات في اللغة ولادب ع 8، جوان 2001م

14- الزركشي، البرهان فى علوم القرآن ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث القاهرة، جـ 3، ص 102.

15 – السامرائي،فاضل، معاني النحو ، دار الفكر، عمان، الأردن ، ط1، 2000م.

16 – السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن ابي بكر بن محمد ، مفتاح العلوم حققه وقدم له وفهرسه عبدالحميد الهنداوي، المكتبة العلمية الجديدة، بيروت لبنان، دط، 2000م.

17 – السيوطي، همع الهوامع في جمع الجوامع، أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998م.

18- شرف، حفني محمد، الصور البديعية بين النظرية والتطبيقي ، مكتبة الشباب : 1966م.

19 – شيخون، محمود السيد، الاستعارة نشأتها وتطورها، اثرها في الأساليب العربية.

20 – الصاوي،أحمد، مفهوم الاستعارة، منشأة المعارف، الإسكندرية دط، 1988م.

21 – طبانة ، بدوي ، البيان العربي، ط 2، القاهرة مكتبة الانجلو المصرية، 1958.م

22 – عاس، أحمد عبيد الله وآخرون، إعراب القرآن الكريم ، دار التمير ودار الفارابي، ط1، 2004.

23 – عبد المطلب ، محمد، البلاغة العربية قراءة أخرى، الشركة المصرية العالمية للنشر ، لقمان ، ط 1 ، 1997م.

24 – الكواز، محمد كريم، أبحاث في بلاغة القرآن، مؤسسة الانتشار العربي بيروت، لبنان ، ط 1.

25 – القزويني، الايضاح في علوم البلاغة المعاني البيان والبديع، توضيح: إبراهيم شمس الدين ط:1، لبنان، دار الكتب العلمية 2002م.

26 – المبرد،أبو العباس محمد بن يزيد، المقتضب ، تح: محمد عبد يد الخالق عضيمة ، لجنه إحياء التراث الإسلامي، مصر ط2، 1399هـ ، 1979م.

27 – المراغي أحمد مصطفى ، علوم البلاغة و البيان و المعاني والبديع، دار الكتب العلمية ، 1993م.

28 –مطلوب، أحمد . بحوث بلاغية، دار الفكر لنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1987م، ومعجم المصطلحات البلاغية وتطورها، المجمع العلمي العراقي، بغداد 1983م،

29 – الميداني،عبدالرحمن حسن ، البلاغة العربية أسسها وعلومها فنونها، ط1، دمشق: دار القلم، ج2، 1997

30– الهاشمي السيد أحمد ، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، بيروت ، لبنان ، 1998م ، ص 400.

31 – ابن هشام الأنصاري مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، تح : محمد محيى الدين المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ط1، 1411هـ – 1991م.